

مهدية راج دحماني

كَنْزُ

زَهْرَةٌ

(سَرْدِيَّات)

محتوى..

(يضافُ حقل (إهداء))

الصفحة	موضوع	عَتَبَة
	ميلاد..	فيللاً (سيرانو)
	صفعة خالدة..	
	وعد (بلفور) ..شجرة البرقوق وخاله (جولة)..	
	(سي عبد القادر وهواري بو مدين)	
	(انسيتي..مارفعتش صنبي)	
	الاستدعاء الذي انتهى بها إلى أرض التهام..بركات (بو نحاف)..	
	البراني..	
	ليلة زفاف الشاعر..	
	دمعة العريس..	
	حين تغيب عن ذاتك..	
	!!?? Villa coloniale..villa de Maître	
	الرحيل...	
	جدة..مطار الملك عبد العزيز.	
	سماة جدة.	
	تغطي..تغطي..تغطي.	
	حادثة (امكسن) ومعركة الحناء(1).	
	حادثة (امكسن) ومعركة الحناء(2).	
	(امكسن) والدكتور(ميسرا) (3).	

	الكرة الأرضية على كفّ (وَمِي فاطمة).	
	أبو فاطمة.	
	سنة (وَمَّ الجلود) ودموع (عَيْدَه).	
	البيتُ المِضياف.. (راكُ غَالِطُ خُويا).	
	صالون (الكوافيرة).	
	مطالبة بحقوق الرَّجُل.	
الصفحة	موضوع	عَتَبَة
	حادثة (امثلاجة)..وقفات مع ثلاثَة (وَمِي فاطمة).	صفحات بأريج عطرهم..
	لغة القلوب.	
	(بُو لحاف)..الراهبة (بُرْتِي burthey)..	
	بينَ الفاطمتين..	
	استغفري الله يا والدَه..	
	أشياء يعطر يديها..	
	صباحات من الزّمن الجميل..	
	حينَ تستعطفك الجدران..	عَتَبَاتُ من الزّمن
	(كَنْزَة) تحلمُ بعودةِ جدّها..	
	ماتت وهي تبحثُ عن فتوى.	
	كلُّ التّحدّي في ملعقةِ والدِها	
	رأسُ السنّة أسيرٌ في عينيها.	
	نَظرةُ قاهرة..(شَعْنُونَه وَعَيْنُ هالَه).	
	الإرهابُ وعقودُ السّواد.	
	المملكة العربية السعودية - أرضُ السّكينة والنّور	
	بينَ حَظَرين.	حَظَرُ المنازل.
	(أَمَحْرَمَه) في الحَظَر.	
	(بُو مَنقُود) و(كرونا).	
	حَظَرُ المنازل.	

	العَمُّ قَيْسٌ وَ(كُرُونَا). حَضَارَةُ كُورُونَا (بُو دَشْرَةَ) وَ(كُرُونَا). لَنْ أَقْصَّ شَارِبَكَ!! لَيْلَةُ الْقَدْرِ. ذَاتَ لَيْلَةٍ سَرَوِيَّةٍ. زَمَانُ (كُرُونَا) - هَلْ يَعُودُ الْعِيدُ إِلَى الْعِيدِ (1). زَمَانُ (كُرُونَا) - الْعِيدُ يَعُودُ إِلَى الْعِيدِ (2). (لَلْأَزْهَيْرِ) (1) (لَلْأَزْهَيْرِ) (2) تَفَاصِيلُ الْوُرُودِ صَيْفٌ أَبْهَأُ. عَلَى مَثْنِ الصَّفَحَاتِ وَالسَّمْسِرَةِ - (عَسَلَامَةُ بِضِيَاْفِ رَبِّي). حَالِيَةَ الْخُبْزِ. بَيْنَ (الشَّانَزِيْنِيَّةِ) وَ(الْقَدِيدِ). كُوْحُ الْمَهْنَدِسِ / مُحَمَّدِ طَالِعِ الْأَلْمَعِيِّ - (مِيْلَادُ الشَّاعِرِ - فِي جَبَلِ (أَمْرُوَاحٍ - طِفْوَلَةُ الشَّاعِرِ - رَسُوْبُ الشَّاعِرِ). رِيَالُ الْجَزَائِرِ (1). زَلْزَالُ الْجَزَائِرِ (1980) - رِيَالُ الْجَزَائِرِ (2). الْـ(مِيْنِيُو) ..(كَنْزَةَ وَبُو لِحَافِ). جِدَّةٌ .. خَبْزَةٌ رَفِيْقِي. جِدَّةٌ .. سِرْوَلٌ (لَلْأ).. جِدَّةٌ ..(كَنْزَةَ) تَبْحَثُ عَنِ إِطْلَالَةٍ.. - جِدَّةٌ ..مَنْ يَعْرِفُ رَفِيْعٌ؟ (كَنْزَةَ) وَجَارُهَا الْجِدَّأَوِي. جِدَّةٌ .. هُوَ وَقَطْرَةُ الْمَطْرِ. شَيْءٌ مِنْ نَظْرِيَّةِ (دَارُوِيْنِ). جِدَّةٌ ..(يَاهِي سَنْطَةَ أَمْدَهَبِ).
	عسير - سياحة ومواسم
	جِدَّةٌ - الْحَيَاةُ إِلَى الدَّخْلِ

	!! هل اغتربت (كَنْزَة) ؟	هل اغتربت !! (كَنْزَة)؟
--	--------------------------	----------------------------

إهداء..

إلى المجاهدة (جَمِيلَة بُو حَيْرَد) التي علّمتني الدفاع عن الأرض والعرض..

إلى يمامات شمرايخ جبال (أزفون - الجزائر) يعاقرن موج الشاطئ عند منبتها :

(لِلَّأَحْسَنِي) (نَنَّ فَاطِمَة نَسْعِيد) - (نَنَّ فَاطِمَة مُوْح) - و(نَنَّ مِلْحَة).. سيدات (دار الشهداء) - عائلة (حَدْرِي) - أرامل الشهداء في حيّ (ابن صيام) في أعالي (هضبة الأبيار الجزائر..)

إلى (لِلَّأَحْسَنِي) خنساء الجزائر التي علّمتني الصمود وهي تنكر رأس ابنها الشهيد يرميه العسكر الفرنسي عند قدميها فتصمد وتتصدى ولا تعترف بفيلقها ، تُعْتَقُ دمع الأنبياء في مقتلتي أم الشهداء..

إلى سيدات (دار الشهداء) اللواتي علّمنني كيف تُبنى الأوطان والرجال، وكيف أظهر بستان أبي من دنس المستعمر.. سيدات علّمنني كيف أُجْتَثُّ كروم خموره لأغرس شتائل شجر التين والزيتون..

إيهن كلهن أهدي هذا العمل امتنانا و عرفانا لصنيعهن يجعلن يدي خضراء تزرع شجر التين والزيتون سلاما من أرض الشهيد إلى قبلة المسلمين أرض الحرمين مهد السكينة الأزليّة ومنبت العروبة وتجدر الضاد : (المملكة العربية السعودية)..

فيلاً (سِنِرَانُو..)

ميلاد..

أشجار (الكاليتوس).. الصنوبر.. الزيتون.. كل أشجار الغابة.. الأزهار
عند منبت الصخر..

ديار "مزعنة" في كثافتها..

شفافية العابرين من أعالي (إيكوزيوم) إلى ضفة الموج المستنفر
عند "باب الجزيرة" ..

أرصفة مرفأ "باب بحر" التي تسير أسرع من الصيادين الذين
يجرون شباكهم ..

أجراس (المرسى) التي تجوب سنةً عبر ليلةٍ لحلم الصياد..

غابة (باينام) التي تنتظر أمام المنازل، والمنازل التي تنتظر عند
حافة الغابة ، وعلى أعالي (القرية السماوية village
Céleste) على جبل (بوزريعة) المطل على (جزيرة النورس)..

الكل ينتظر هذا اليوم الذي يستيقظ فيه النهار، ليعيد الركاب إلى
أواجه.. ركاب أكثر من قرن من الاستعمار..

يومٌ ويستيقظ معه فيءُ الشهداء..

اليومَ بياض الثلج على الجبل بأطراف قوس قزح تضيء أجمل
الحل على الغابة ، ومعها أجمل المعاني وهتافات النصر وتحقيق
السيادة الوطنية..

اليومَ وبعد سنوات من الاستقلال ، يحصل (السّي عبد القادر) من
"دار التراب" على حجة استرجاع أرض جده التي استلبها
المستوطن الفرنسي وشيد عليها قصرا..

مثلها كل القصور الأخرى: فلل معمرين.. قصور فخمة بنوها بعد
طردهم أهلها والتكيل بهم..

هكذا كان المعمر الفرنسي يعبث ظلما وفسادا في أرض الجزائر،
يسلبهم مزارعهم، ويحيلهم إلى (خمّاسين) يستعبدهم في خدمة
أراضيهم بخمس المنتوج ، حجةً يطفئ بها المجاهد قيظا دون
صيف أضرمه المعمر "سيرانو Cérano" وأمثاله على أرض
أجداده في سياسة "الأرض المحروقة" والأرض المُستَلبة..

اليومَ (السّي عبد القادر) يحصل على حجة إثبات الملكية، ومعها
الإعفاء من دفع أقساط شراء أرض وبيت جده من المعمر
"سيرانو".."سالفةً نبيغ لك دار باباك" التي عانى منها
الجزائريون بعد الاستقلال.

استقلت الجزائر، ورحل (مسيو سيرانو) ومعهم كل المعمرين
يسحبون وراءهم السنوات العرجاء العقيمة، وانتهى العالم
المرهق الذي يصنعه المستعمر على أرض الأحرار، تاركا ما سلب
بغير وجه حق و"ما يبقي في الواد غير حجارو".

العدو يبقى عدوا..

يوهم المعمرُ صاحبَ الملكِ الأصلي أنه هو صاحب الحق في البيت الذي بُنيَ على الأرض التي سلبها من جده بطشاً، ليدفع له (سَيِّ) عبدِ القادرِ) - المالكِ الأصلي - حوالاتٍ بريديةً إلى فرنسا لشراء ملكه.. وهكذا كان حال معظم الجزائريين..

اليومَ تولدُ قوانينُ وأنظمةُ الجمهورية المستقلة بعد سنوات من الاحتلال.. تفتح كل الدروب المكسوة بالسواد، وتشع سماء الجزائر القاحلة بعد سنوات الاستبداد..

اليومَ هو الغد الذي يملك فيه (السَيِّ عبدِ القادرِ) مخاض دولة القانون، ومخاض جيل الحرية..

اليوم هو النهار الذي يطلقه هذا المجاهد على أرض الشهيد..

اليوم يستبشر (السَيِّ عبدِ القادرِ) بمولود جديد يعوضه عن ابنه الشهيد.. اليوم وقد هياً للأمل الجديد الأرضَ و(الفيللاً) التي استرجعها بحد السيف وحببات الرصاص التي مزقت جسده، وآثار التعذيب والصعق الكهربائي على أعضائه والتي رسم بها (عبد القادر) عَلمَ الجزائر بكل قطرة دم صرخت بها شرايينه .

اليوم فقط هو جدير بأن يأتيه مولودٌ جديد..

"لَلْأُ نْسُومَرُ" "خنساء الجزائر" مقبلةً من (دار الشهداء)..

هذا هو اسم أعلى بيت في الحيِّ يَقطنه أربع نسوة من أرامل الشهداء هنَّ : (لَلْأُ نْسُومَرُ) وزوجات أبنائها الشهداء وأطفالهم. خنساء الجزائر من (دار الشهداء) هي من سيرافق زوجة

المجاهد إلى المشفى كما كانت تفعل مع كل نساء الحي تيمنا
وتبركا بها..

"خنساء الجزائر" التي فقأت عيني الجنرال الفرنسي بمنجلها..
الأم التي أنكرت أبناءها المجاهدين الثلاثة حين رمي برووسهم
وجثثهم عند رجلها ، فأنكرت أنهم أبناؤها دون أن تذرف دمعة،
حتى لا ينكل بها وتغتصب أراملهم أمام الملائم لتعترف بمكان
المجاهدين الآخرين في فيلقها..

الثلج في هذا الفجر أكثر بياضا وزرقة..

(جزيرة النورس) أكثر فيروزا، وغابة (باينام على الجبل
المنغمس في البحر أكثر خضرة)..

خنساء الجزائر- (السّي عبد القادر وزوجته) نحو أفق جديد لن
يعرف أبدا ظلمة الغسق..

اليوم تولد (كنزة) ، ومع ميلادها ينجلي كل القحط الذي صنعه
الجنرال (بيجو) وكل جنرالات فرنسا في أعين الجزائريين..

هذا اليوم يولد مع بسمة (كنزة) هلال ونجمة أحمران ترسمهما
بسمتها في ظلمة الغسق، ليرفرف علم الجزائر على مشارف
خليج "مزغنة"..

"يَفْكَأَيَاكَ رَبِّي تَأْفِشِي شَتَّ آيِيْمُغُورَن دِيْقَرَب نَثِيْلِي نُلْدَزَايِرْ" - رزقك
الله ببنت تتربي في كنف الجزائر الحرة -.. هكذا بشرت (للأ
نُسُومِرْ) (السّي عبد القادر) وعلى وجهها ملامح الاعتذار، فلم
يأت الصبّي الذي يترقبه المجاهد والذي يعوضه عن ابنه الشهيد.

(حَمْدُكَ يَا رَبِّي شَكَرُكَ آفَ النِّعَمِ اِيَّاكَ) - الحمد لله يا ربّي أشكرك
على نعمتك - هكذا يردّ المجاهد على لئلاً نُسُومَر.. يحتضن
مولودته.. يلفها في ثياب أخيها الشهيد المخضبة بدمه الطاهر..
يوذُنُ في أذنها.. يرددُ بصوت تخنقه الدموع :

(قَسَمًا بِالنَّازِلَاتِ المَاحِقَاتِ

وَالدَّمَاءِ الزَّاكِيَاتِ الطَّاهِرَاتِ

وَالبنُودِ اللامعاتِ الخافقاتِ

في الجبالِ الشامخاتِ الشاهقاتِ

نحنُ ثرنا فحياءً أو مماتُ

و عقَدنا العزمَ أن تحيا الجزائرُ

فاشهدوا

فاشهدوا

فاشهدوا)

ينثر على مهدها حبات من ثرى الجزائر، ويضع عند مَخَدَّتِها
حفنة من غبار البارود.. يغطيها بعلم الجزائر..

ينظر من النافذة المطلّة على مقبرة الشهداء هناك على سفح
الجبل ويصيح ملء صوته :

زَعْرَدِي يَا خَنَسَاءَ الْجَزَائِرِ، الْيَوْمَ مِيلَادُ (كَنْزَةَ) وَمَعَهَا مِيلَادُ
(فَاطِمَةَ نُسُومَرُ) لِبُؤَةِ الْجَبَلِ، وَمِيلَادُ (جَمِيلَةَ) الَّتِي قَهَرَتِ الْمَقْصَلَةَ
وَأَحْرَقَتْ نَهْدَهَا كَهْرَبَاءُ التَّعْذِيبِ..

الْيَوْمَ وَلَدَ كُلُّ جَمِيلَاتِ الْجَزَائِرِ الْحَرَّةِ ، وَفِي يَدَيَّ كُلِّ مَنْهِنِ هَلَالٍ
وَنَجْمَةٍ وَبَنْدُوقِيَّةٍ..

يَنْزَوِي (السِّيَّ عَبْدِ الْقَادِرِ) بِ(كَنْزَةَ) يَوْشُوشُهَا :

سَأَجْعَلُ مِنْكَ فَارَسًا.. سَأُرَوِي لَكَ سِيرَةَ "بَابِ عَزُونُ" فِي أَسْفَلِ
الْقَصْبَةِ الْعَتِيقَةِ عِنْدَ جَامِعِ (كَتْشَاوَةَ).. سَأَخِذُكَ إِلَى (بَابِ عَزُونُ)
لِيُهْدِيكَ اسْتِشْهَادَ (عَزُونُ) الثَّائِرِ عَلَى الْحَاكِمِ الْعُثْمَانِيِّ..

سَأَعْرِجُ بِكَ إِلَى (بَابِ جَدِيدِ).. إِلَى أَعْلَى الْهَضْبَةِ فِي أَعَالِي
(الْقَصْبَةِ) لِيُرَوِيَ لَكَ "حَادِثَةَ الْمَرْوَحَةِ" حِينَ أَدَلَّ دَائِي الْجَزَائِرِ
الْقَتْلَ الْفَرَنْسِيَّ فِي (دَارِ السُّلْطَانِ) ..

سَيُرَوِي لَكَ (بَابِ جَدِيدِ) مَلْحَمَةَ (زَبَانَا) هُنَاكَ عَلَى الرَّصِيفِ
الْمُقَابِلِ دَاخِلِ أَسْوَارِ سَجْنِ (سِرْكَاجِي) وَنَشُوتِهِ عِنْدَ حَافَةِ الْمَقْصَلَةِ
.. سَتُرَوِي لَكَ أَبْوَابَ سَجْنِ (سِرْكَاجِي) مَلْحَمَةَ (السِّيَّ الْحَوَّاسِ)
(عَلِي لُبُونَاتُ) وَ(حَسِيبَةُ بِنِ بُوْعَلِي) وَ(وَرِيدَةُ مَدَّادُ) وَ(العَرَبِي
بِنِ مَهِيدِي) وَ(عَمِيرُوشِ) ، وَكَيْفَ يَسْجِنُونَ السَّجْنَ فِي عَيُونِهِمْ..
سَتَسْمَعِينَ صَدَى اسْتِشْهَادِهِمْ: "اللَّهُ أَكْبَرُ تَحْيَا الْجَزَائِرِ" ، تَرْدُدُ
صَدَاهُ أَسْوَارُ الْقَصْبَةِ..

سَنَسْرِي مَعَا فِي لَيْلَةِ قَمَرٍ إِلَى "بَابِ الْوَادِ" يَوْشُوشُكَ لِأَزْمَةٍ
نَشِيدٍ.. أَنْشُودَةَ سَيْلِ (وَادِ قُرَيْشِ) الَّذِي يَصُبُّ عِنْدَ بَابِهِ الْآثَامَ الَّتِي
يَجْرُفُهَا.. آثَامَ الْمُعَمَّرِينَ : "بِرَانِيْسِ Baranes" وَ "لِبِرِيَارِ
"labruère" وَ"بَاشُولِيِي Bachelier" يَجْرُفُهَا عَنِ الْجَبَلِ

(بوزريعة) .. سيغسلُ السيلُ الجبلَ من آثامهم في مخاض وادٍ
قريش ليبتلعها (باب الواد) يلقيها ذليلة إلى زبد الموج هناك عند
قصر (الرَّيَّاس) وضة (قاعِ السُّور) وشاطئ (الكَتَّاني) ..

سيظهر هديرُ السيلِ أرض (مزْعَنَة) برماد الشهداء ..

يهدد (السِّي عبد القادر) صغيرته .. تسترسلُ نظراته إلى البعيد:
ساحة الشهداء - ساحة الأمير عبد القادر - مقبرة الشهداء
"العالية" - ، يعدهم أن يلقن (كَنْزَة) كيف تُصنع الأوطان ..

تترنح (كَنْزَة) من تمايل ساقه العرجاء المعطوبة من آثار
التعذيب ..

تغفو ..

يستغرق المجاهد في رحاب العَلم .. يعده أن يصنع منها كل
جميلات (القصبَة) والمدينة والجبل ..

كلُّ (كَنْزَة) تولدُ اليوم هي (جميلة بوحيرد) شامخة راية ترفرف
خضراء وحمراء وبيضاء على قمم جبال الأوراس ..

صفعة خالدة..

تسترسِلُ الطفولة الأولى لـ(كَنزَة) هادئةً عذبةً ما بين قمةِ الجبلِ
والبحرِ والغابةِ..

في سنِّ الخامسة ، يُقرُّ المُجاهدُ أنه حان الأوان لأنَّ تتدرَّبَ مع كل
أطفالِ الحيِّ على ركوبِ الخيلِ..

يشتري لها مُهرا من جارهم صاحب الإصطبلِ السِّيِّ (كمال) ،
لأنها تخاف كثيرا من الحصان الكبير.. هو يعلمُ أنها تخفي دموعها
عنه حين تبكي من الخوفِ.. فقد كان عيبا على الأطفالِ البكاء.. هذا

شعار ومبدأ وحكم أقره المجاهد (سي عبد القادر) (وللا نسومر)
ومن معهما من مجاهدي حي القرية السماوية بين أعالي (بو
زريعة) وأعالي (الأبيار) والمطلان على خليج مدينة الجزائر..
نواميس و مسلمات فُرِضَتْ على أطفال العشريّة التي تلت
الاستقلال.. فمن البديهي أن أرضهم موعودة لصناعة الثوار وضم
رفات الشهداء..

(كَنْزَة) كغيرها من أترابها من البنات كان عليها أن تكون رجلا،
فهي موعودة للثورة أو الشهادة، لا مكان للدمى ولا الدبوب في
حياتها المبرمجة المقتنة من طرف قدامى المجاهدين في "الحي"
والذين جعلوا من غابة "الزغارة" ثكنة يدربون فيها أطفال الحي
على حرب العصابات والكمائن.. لم يكن أبدا شاطئ (بولوغين)
و(رايس حميدو) ضفة تلهو فيها (كَنْزَة) وتبني قصورا من الرمل
وتركب المد والجزر.. وكانت شواطئ (جزيرة النورس) أغوارا
للتدريب على الغطس والتخفي. ولم تكن غابة (باينام) روضة
للتأرجح في المراجيح والزلاقات ، بل هي مخيمات إجبارية
للكشافة الإسلامية التي أصر (سي عبد القادر) على أن تنضم
إليها (كنزة) ورفاقها..التدرب على الأسلحة هي اللعبة الوحيدة
المسموح بها لجيل الاستقلال.

لم تعرف (كنزة) لعبة القفز على الحبل ولا الغميضى. فأقصى
ترفيه لها كان زيارة (متحف المجاهد) الذي يتواجد في الحي،
والتدريب على مهرتها في فناء غابة (الكالتوس) التي تحيط
بالحي..

كَنْزَةٌ... لَيْلِيَا... حُورِيَّةٌ... سَجِيَّةٌ... جَوِيدَةٌ... زَهِيدَةٌ ، جَهِيدَةٌ ،
وغيرهن من الرفيقات حُكِمَ عليهن أن يكنَّ رجالاً و(جماليات
الجزائر)..

الأيام... الشهور، وسنوات الطفولة المسلوقة تمضي وخريرة
الثورة التي تغذي جوارح والدها لم تطفئ الطفلة التي تصرخ
بداخلها..

كانت (كنزة) تُخفق في كل اختبار القسوة التي تواجهها.. فهي لم
تستطيع ذبح "نوار الفول" - الديك المفضل لديها - ، ولم تقدر
على ذبح "موشيطة" - بطتها المدللة -.. خيبة (سي عبد القادر)
وعقابه لم يكن يهمها حين يأمرها بالتوضؤ والتكبير وذبح (نوار
الفول وموشيطة... ولعل يوما يأتي ليعتقها والدها من قالب
الجندي الذي يصب طفولتها فيه ، فتعود إلى أنوثتها التي تتشبث
بها ، فهي تحلم أن تكبر وتحفظ بحلمها وتشتري دميتها.. طفلتها
الخالدة.. فالدمى لا تموت مثل أخيها الشهيد.. ستشتري دمىة تحرك
عينها وتلعب أمام الملا، وتلهو لهو الأطفال ، وتلبس فساتين بكل
الألوان لها كرانيش مزركشة ، وتنثر شعرها الذهبي في فضاءات
السموات ، فهي يوما ما ستسترجع طفولتها وتصرخ من أعلى
طور جبل "الديس" : دعنا نبك...

دعنا نبك..

دعنا نبك...

كان عيبا على الأطفال البكاء.. كان عيبا على البنات البكاء..
حين أقبلت (كنزة) تبكي وتشتكي لوالدها من الولد "أرزقي":

- سيدي..سيدي..بابا. بابا

- واش بيك... غلاش راك تبكي؟

قلت لك : (بنت عبد القادر مالازمشن واحد يشوف دموعها!!).

ضربني أرزقي ونحى ليا المهرة تاعي.

- أهالا حليتيه يضربك ويأخذ المهرة تاعك وجيتي تجري كالجبانة

تشتكي يا بابا يا بابا !!!

إيه هو ولد وكبير عليه.

- إيبه سنواسوا خذي: دالالف.. لا ما تهديرشن معايا ولا نشوفك

حتى تضربه وترجعي مهرتك..

آالاي..

يصفع (سي عبد القادر) (كنزة) صفة قوية.. تبكي بصوت

مرتفع.. تقبل جدتها (للا الضاوية)..

بؤوه سي عبد القادر غلاش ضربتها " ، أرزقي " كبير عليها

وولد تبغي بنتك تضارب مع لولاد وتخرج " عايشة رجل "؟ روح

اضربو وجيب لها مهرتها، أنت باباها تحامي عليها..

إيه يعطيك الصحة يا للاً الضاوية.. يعني لو أي حد تعدى على

شرفها تسكت وتبكي وتجي تجري تقول يا بابا ارواح تحامي

عليها؟؟!!

سي عبد القادر لا ينجب بنات جبانات..

فهمتُ (كنزة) الدرس جيدا: أأ محل لأنوثة تنتظرُ كفّ رجلٍ
يحميها....

وعد بلفور وشجرة البرقوق وخالة
(جولة)...

- شجرة البرقوق..

شجرة مُعَمَّرَة إلى جوار أشجار الفواكه في البستان تحفّ الشبك الذي يفصل بساتين فلل الجيران المحيطة بفيلاً "سيرانو" ..

لم يستطع أسلاف "سيرانو" المحتلون اجتثاث جذورها حين راحوا يقتلعونها ويصبون الملح والكلس حولها، ويغرسون دوالي نبيذهم الملعون ، فتبرز من جديد كاسحة فسائل الدوالي التي لم تثمر لهم عنب "حَمَرُ بُوعَمَر" و عَنَب (الْفَرَّانَة)

و "الموسكا" لصنع خمورهم ..

تلك الأرض الخصبة والشجر الذي غرسه أسلافها تتحدى كل سياسات الأرض المحروقة ، وتهجين التربة .. كانت شجرة البرقوق باسقة تتوسط البستان الفسيح .. تظل الغدير .. غرسها أسلاف (كنزة) ..

تكبر وتكبر يانعة .. تجود بثمر البرقوق الذهبي .. جذعها الضخم يترّيع على أكثر من قرن من زمن الرماد في زمن الاحتلال .. أغصانها قوية داكنة تحاكي مقتها للأقدام السوداء التي رافقت (سيرانو) ..

البرقوق تعلو وتعلو نحو السماء، تكاد فروعها تخترق نوافذ و "فيراندات" و "بلكونات" الطابق الثاني للفيلا ..

تَنَحَّل الطفلة يوم ميلادها أغصانا صلبة تعرج منها (كنزة) إلى التاريخ ..

كل غصن شرفة سماوية تشهد من خلالها أبعاد التاريخ وملاحم الشعوب المضطهدة ..

شجرة البرقوق العملاقة شرفة تشهد عبرها الطفلة سيرة شعب
يناضل ، وأمة في طريقها إلى تقرير المصير..

تتسلق (كنزة) الشجرة إلى أعلى الجذع الضخم ، حيث تتفرع
جذوع أخرى ضخمة.. تنحى مسار الجذع الذي يكاد يخترق
بلكونة المطبخ..

- على قدم وساق على المطبخ الواسع تُطل.. حركة دؤوب بعد كل
عصر عبر سيرورة سائر الفصول..

والدها ترص أطباق الحلويات في الصواني "مَقْرُوط
لُعَسَل..الصَّامِصَة..

لَقْنِيذَلَاتٌ" ومختلف حلويات اللوز..إلى جانبها المجاهدة
"اللَّانْسُومَر" قد أحضرت سلة الخيزران التي وضعت فيها خبز
"أَعْرُوم آقوران واسْفَنَج وتَغْرِيفِين" ..

هناك عند الثلاجة الغليظة "طَاطَا سُونَج و طَاطَا كَلُوي" قد
أحضرتا " "كيكات الشوكولاتة" الفرنسية، هما فرنسيتان زوجتا
ابني عم والدها المجاهدين..ممرضتان في الهلال الأحمر الفرنسي
، أمنا بالقضية الجزائرية وانشققتا عن صفوف الجيش
الاستعماري وانضمنا إلى جوار والدة (كنزة) كمرضتين
مُسَبِّلَتَيْن في صفوف جيش التحرير ، وبقيتا في الجزائر بعد
الاستقلال..

كل شيء على قدم وساق استعدادًا لجلسة "صوت الثورة
ال فلسطينية" التي تُبثُّ على الساعة السادسة كل مساء..

- صوت الثورة الفلسطينية..

قدمها حافيتان.. تَتَشَبَّثُ أصابعها بالجذع.. بعض الأشواك تخذش
وجهها الطفولي ويديها الصغيرتين.. تنتقل إلى الجذع الآخر
المطل على مكتبة والدها المجاهد (السي عبد القادر)..

أحضر النسوة صينية القهوة "الكحلة" مع ماء الزهر وصينية
الشاي الأخضر "لَمْنَع" وصواني الحلويات والخبز وعليهن
الانصراف.. فقط "الآنسومر" والخالة "جولة" من كان يُسَمَّح
لهما بحضور الجلسة..

ثلة من الرجال المعتادين حضروا للجلسة.. :

"صوت الثورة الفلسطينية"

(السي الميسوم) و(اشعأبي) و(السي باكير الإباضي) واثان من
بني أعمام (السي عبد القادر) إلى جانبهم (السي عبد الباقي
الغرناطي) معلم الكتاب و(السي أمقران الورثيلاني) إمام المسجد
، كلهم مجاهدون وأغلبهم معطوب حرب..

عند المذيع الضخم يضبط والدها الترددات و الموجات، وحان
وقت البث..

يبدأ البرنامج..

من أعلى جذع الشجرة تكاد (كنزة) تسمع النشيد الذي يبدأ به
البث.. (بلادي.. بلادي.. بلادي يا أرض الجدود.. بالدم بالروح نفديك
يا فلسطين)..

صوت جهوري يتسلل إلى أذنيها من خلال زجاج النافذة المقفل
 في صقيع الشتاء.. " هنا صوت الثورة الفلسطينية" .. يلف
 الصوت تشويش ترددات مقصود.. تسمع دويّ تفجيرات وطلق
 نار.. الحرب مبهمة لديها لكن لا تخيفها ، فهي محصورة داخل
 الصندوق.. الطفلة الصغيرة لا تخشى الحرب لأنه لا أحد يُقتل ممّن
 يحيط بالراديو في مكتبة والدها..

تُصغي إلى أصوات الحاضرين..

تتعالى وتترد إلى سمعها نفس الأسماء :

ياسر عرفات... بلفور..

الكل يتجادل بأصوات عالية..

(للأنسومز) لا تطيق كلام واحتجاجات خالة (جولة)..

ابن عم والدها (السي الساسي) كالعادة عصبيّ مشاكس يجادل
 الكل ثم ينسحب من الجلسة غاضبا..

- وعد بلفور.. شجرة البرقوق وخالة جولة..

حل فصل الربيع يُعطر البستان ببشائر الشهيد في (بيت
 المقدس)..

تنتقل الجلسة طوال فصل الربيع والصيف إلى البستان.. يمدّ (السي
 عبد القادر) (الكيبيل) الكبير ليوصل الكهرباء إلى الراديو في
 البستان..

على طاولة الحديقة المستديرة يأمر (كنزة) بترصيص الجرائد التي كان له فيها اشتراك..تصله من فرنسا(كَنازْ أُونْشِينِي..لومُونْدُ..بَارِيمَاتْشُنْ)..

صارت (كنزة) تقرأ وتكتب وتستنتق بعض العناوين على الجرائد الفرنسية..

على الطاولة أيضا جرائد وصحف جزائرية ، لكن لا تعرف قراءتها لأنها لم تدرس العربية بعد..

حين تكمل مهمتها يأمرها والدها بالإنسحاب..

يجتمع الكل..تتسلل وتتسلق شجرة البرقوق كعادتها..تطل على (الثورة الفلسطينية) من أعلى جذع في الشجرة حتى لا ينتبه والدها..

ذات الأسماء يردد لها الحضور :

(ياسر عرفات..بلفور..و...و...)

صارت تعرف أن فلسطين بلد محتل، وهناك في فلسطين يوجد (القدس الشريف) ، لكن بالنسبة لها كطفلة كل احتلال هو فرنسي..

ترقب نفس المشهد.. جدال العم (السَّاسِي) المندفع الذي لا يتقن الحوار ، ويفرض رأيه..تُسهَم في الحوارات بطريقتها الطفولية لتفض الخصام..تهزّ أغصان الشجرة المزهرة فيتناثر الزهر على الكل، فيصاب العم (السَّاسِي) بنوبة الحساسية المعروفة لديه من (غبار الطلع)، ويعطس عطساته اللأمتناهية ، وينسحب غاضبا

من الكل، ويستمر الحوار بعد ذلك مع البث الإخباري للبرنامج..
يخترق صوت المذيع خصام السيدتين في الجلسة..

(كنزة) تصغي إلى كلمات واحتجاجات خالة (جولة):

- بحق الرب وعد (بلفور) ظلم من هُجروا إلى فلسطين أكثر من
ظلمه للفلسطينيين..

عَلاش تُجَبِرُ شعوبَ على الرحيل من أوطانها لتستوطن في
فلسطين وتحتل أرض الفلسطينيين وتُخرجهم من أرضهم؟؟

تبكي الخالة (جولة) وتحتج بقوة :

لن أرحل عن بيتي أبدا أبدا ، ولن أُخرج فلسطينيا من بيته لأحل
فيه أبدا أبدا.. وعد (بلفور) مشؤوم.. مشؤوم..

الكل يتعاطف معها إلا (للأنسومر) :

- ارحلي.. ارحلي.. إلى الجحيم..

لم تكن تفقه (كنزة) ما يدور بين السيدتين وتحامل وعداء
(للأنسومر) لخالة (جولة)!!

كانت المجاهدة تخاصم كل أبناء الحي حين يكلمون خالة (جولة)
أو يخدمونها..

كانت تخاصم (كنزة) ورفيقتها حين تدخلان بيت خالة (جولة)
لتعلمهن الخياطة والتطريز وصنع حلويات اللوز..

تكبر (كنزة).. هي على وشك مغادرة الطفولة، وتلاحظ أن عالم
خالة (جولة) يختلف تماما عن عالمها.. خالة (جولة) لاتصلي مثل

صلاتهم ، هي تصوم شهر رمضان لكن يوم السبت تصوم صياما مختلفا عن الصيام الذي تعرفه (كنزة) ورفيقاتها..تسأل الخالة:

لماذا تعيشين لوحدك أليس لك أهل؟

- بلى لي أهل لكنهم رحلوا وبقي القليل منهم..الرب يلعن (بلفور) المشؤوم، هو الذي هجرهم من أرضهم وظلموا أهل تلك الديار التي حلوا فيها..

- وأنت ياخالة غلاش مارحيتيش معاهم؟؟

- أبدا أبدا لن يُخرجني (بلفور) الملعون من بيتي لأطرد أحدا من بيته وأحلّ فيه..

كانت أسماء بعض أهل خالة (جولة) دخيلة: (رُوبيلة..يشيش..
نُجامي..خُميس..رهول..

غليلاش..بگوس)..

تجري (كنزة) إلى والدها تسأله..

- أبا شكُون هُو (بلفور)؟

- اسألي (جولة) تعرّفو مليخ..

ماتت خالة "جولة"..لم تسارع مُعسّلات مسجد الحيّ إلى غسلها وتكفينها تحضيرا للجنّازة، ولم يعلن الإمام (الورثيلاني) كعادته صلاة جنازة..سارع (السّي عبد القادر) إلى إخبار شقيقها بوفاتها هاتفيا..حين حضر مع القليل من رفاقه وأقاربه كانت (للاً نسومر) تخاصم الكل وتحتجّ حين ينادونه (السّي حُسين)..

النخبة من الرجال في الحي ومعهم (السّي عبد القادر) كانوا يقدمون له العزاء وينادونه (السّي حُزيم)..

كانت (كنزة) أول مرة تسمع هذا الاسم الغريب.. وكانت أول مرة ترى موكبا يلبس الأسود على غير عادة الجزائريين الذين يلبسون اللون الأبيض لتشييع الجنائز وفي الحداد..

كان المشهد كله غريبا عليها.. كان (حُزيم) ومن معه يرتدون طاقيات غريبةً ينسدل منها شعرٌ ملتوٍ ومضفور.. تغطّي وجوههم لحى عجيبة مشوشة الشكل مبالغة في الطول ، ليست كلحية الشيخ (عبد الباقي) والإمام (الورثيلاني).. لم تُقَم صلاة الجنائز على الخالة (جولة)، ولم تُدفن في المقبرة التي يُدفن فيها أهل الحي.. أخذها شقيقها (حُزيم) ومن معه إلى مقبرة بعيدة ..

بقيت (كنزة) تسأل والدها : من هو بلفور ؟ ولماذا لم نصل على خالة (جولة) ولم ندفنها في مقبرتنا؟؟

يرد:

- عاشت (جولة) تلعن (بلفور) ، وماتت وهي تلعنه.. ظلمها وظلم أهلها وظلم الفلسطينيين واحتلّ (بيت المقدس).

كبرت (كنزة) ومن أعلى غصن في شجرة البرقوق آمنت بالقضية الفلسطينية، وعرفت من هو (بلفور) المشؤوم، وعرفت من هي خالة (جولة) التي كانت تتبرع مع (كنزة) ورفاقها كل أول عام دراسي لفلسطين تتبرع معهم في إطار الحملات التي كان ينظمها الهلال الأحمر الجزائري.. وتلعن (بلفور) إلى أن ماتت..

(سَيِّ عَبْدِ الْقَادِرِ وَهُوَ آري بُو مدين)..

كنزة طفلة في مرحلتها الإبتدائية ، بدأت تفقه الكثير من الأمور..
تعيش كل المعاني التي يضيفها والدها على تفاصيل حياتها
اليومية.. بدورها بدأت تستقرئ كل أوجاع (السِّي عبد القادر)..
أوجاع ما زالت تئنُّ في جسده من جراء تعذيب العسكر الفرنسي..
ووجع آخر أكبرِجره المجاهد..وجع الرئيس (هوارى بومدين)..
فجر الاستقلال كان "السِّي عبد القادر" قد أكمل سنوات الخدمة
في الوظيف العمومي لدى وزارة البريد والمواصلات الفرنسية
أذاك ليتقاضى تقاعده كاملا مائة في المائة من صندوق التقاعد
الفرنسي وبالفرنك الفرنسي..اعتبر المجاهد هذا عارا لأنه طوال

سنوات خدمته كان يحلم بأن يعمل في مؤسسة جزائرية تحت
ظلال العلم الجزائري..

كانت وظيفة - كساعي بريد - تجنيدا من طرف (جبهة التحرير
الوطني) بصفة "مُسَبَّل" في الحيّ الراقي (الأبيار) أعالي
العاصمة، حيث تتمركز الإقامات السكنية للجنرالات الفرنسيين،
وأهم مكاتب قياداتهم إلى جانب السفارات والوزارات..

مستواه التعليمي مكنه من اجتياز المسابقة بتفوق ، وهيئته
و(كاريزميته) التي تقترب من السحنة الأوروبية تمكنه من أن
يسكن هذا الحي الخاص بالفرنسيين دون أن يتعرض للاغتيال ،
لأن المستعمر - آنذاك - قسّم أحياء العاصمة إلى أحياء فرنسية
وأحياء أهالي وأحياء يهودية..

والد (كَنْزَة) كان لبقا (بريستيجياً) متقنا للفرنسية و متمكنا من كل
أساليب (البروتوكولات) مما جعل كبار المسؤولين والضباط
الفرنسيين بالحي يثقون فيه ، وبالتالي كان يدخل بيوتهم بسهولة
ويحضر احتفالاتهم..

أدّى مهامه على أكمل وجه في التجسس عليهم ونقل كل
المعلومات لقادة الثورة ، ولم يشك فيه الفرنسيون أبدا، فهو
مجرد ساعي بريد..

انتهت الحرب واستقلت الجزائر، وصارت وزارة البريد
والمواصلات كغيرها من المؤسسات مؤسسة جزائرية..

تشرف "السّي عبد القادر" بتحويل خدمته تحت الراية الوطنية ،
وبالتالي كان عليه أن يواصل العمل لبضع سنوات ليتقاضى تقاعدا
بعملة الجزائر المستقلة..

تقاعد ، وإذا بتقاعده لم يكن بالنسبة الصحيحة.. أمضى سنوات
وسنوات يرفع تظلمات.. يكتب شكاوى لكل الجهات المعنية.. لكن
لا حياة لمن تنادي..

كل الشكاوى كانت تُهمل أو تخزن في الأدراج، ولم تصل أبدا إلى
أي مسؤول.. استمر على هذه الحال ثلاث عشرة سنة خلال حكم
الرئيس (بومدين) دون جدوى، ثم نصحه أصدقاء بطلب مقابلة
الرئيس بومدين.. طالب وطالب وطالب بموعد لمقابلة الرئيس في
يوم استقباله للمواطنين، لكن من كان حوله كانوا يقفون سدا أمام
ذلك حتى لا تصل بدايات الفساد إلى الرئيس..

تشاء الأقدار - يوما ما - أن تصل رسالته إلى (بومدين)، حيث
كان يقوم بزيارة مفاجئة لإدارة التظلمات في قصر الشعب
آنذاك.. قرأ الرئيس بومدين كل التظلمات بنفسه وحدد كل مواعيد
المقابلات بنفسه وأشرف على أن تصل إلى المعنيين، وكان ذلك
قبل شهرين من مرضه ووفاته..

كاد المجاهد أن ينشل من الفرحة حين استلم موعد المقابلة في
٢٧ ديسمبر ١٩٧٨ م..

بعد هذا اليوم عاش شعورا بالانتصار والإنصاف..

وتشاء الأقدار أن يمرض والد (كُنْزَة) مرضا عضالا، وتشاء ذات
الأقدار أن يمرض الرئيس (هوّاري بومدين) مرض الموت..

كان المجاهد المواطن يصارع الموت ليقابل الرئيس بو مدين ،
وكان بومدين يصارع غيبوبته لينصف المظلومين مثل (السّي عبد
القادر)..

فجرَ ٢٧ ديسمبر توفي بومدين وظهر ٢٧ ديسمبر من نفس اليوم
توفي والد (كَنْزَة) ، ولم يلتق المواطن المُسَبَّل بالرئيس ، ولم
ينصف الرئيس المواطن المظلوم.. ظهر ٢٨ ديسمبر.. شاء الله أن
يُصَلَّى على (السّي عبد القادر) في نفس التوقيت الذي يُصَلَّى فيه
على الرئيس..

خرجت جنازة المجاهد متجهة غرب العاصمة نحو مقبرة "بني
مسوس" ، وخرجت جنازة (بومدين) متجهة شرق العاصمة نحو
"مقبرة العالية"..

قدَّرَ ألا يتحقق موعد المواطن مع الرئيس، لكنَّ تدبيراً إلهياً
وحكمة تضرب لهما موعداً في مغادرة الدنيا سوياً..

في ذات اليوم بكت (كَنْزَة) والدها ، وبكت بومدين وحزنت عليهما
معا وحزنت كل الجزائر...

(أَنِسْتِي.. مَا رَفَعْتُنْ صُبْعِي..)

مدرسة (ذبيح الشريف) للتعليم الأساسي - الطور الأول والطور
الثاني - كانت أول مدرسة تلتقي فيها (كنزة) بالطفولة التي غابت
عنها.. طفولة تطبعها خصال الرجال..

أزقة (القصبة) تلقنُها طفولة أخرى متمازجةً بشيم الرجولة
المبكرة..

تلتقي بالطفولة رجالا أطفالا..

أولئك هم أطفال عمق الأحياء الشعبية في (القصبة وسونطارة
وباب جديد - ولاد لبلاد).. أطفال الأحياء الشعبية الأقل حظا من
الأطفال المترفين بالألعاب واللباس المستورد في حيها (الأبيار)
أعالي العاصمة..

كانت لها هناك خبرتها مع أطفال تشبهها طفولتهم ، عليهم أن
يكونوا رجالا بحكم تاريخ المنطقة النضالي الثوري ، ففي قلب
(القصبة) استشهدت (حسيبة بن بو علي - علي لا بوانت - السّي
الحوأس - بالعيد - ومحمود بو حميدي- عمر الصغير)..

هناك على زاوية الرصيف أذلّ (أحمد زبانا) المقصلة في سجن
(سركاجي) ، فكان على أطفال هذه الأحياء أن يعرجوا إلى
الرجولة مبكرا إذ لا مكان للهو الأطفال في (القصبة المحروسة
وحي باب الواد)..

هناك يولد الأطفال رجالا تدهم "لخراير" واقفات لا ينحنين
لويلات المخاض...

صور وشواهد..

(كنزة) في أوج صبوتها..حماس وعطاء في المدرسة
الجزائرية..مدرسة ثكنة وميدان :

جداول (٤٢) حصة أسبوعيا..

دوام الستة أيام، مع جمعة للرحلات المدسية ودورات إجبارية..
الورشات..و..و..كل هذا إضافة إلى الخدمة المدنية الإلزامية..
في بعض سنوات زاولت فيها ثلاثة تخصصات (تعليم أساسي)
طور أول وطور ثانٍ..

في مدرسة (ذبيح شريف) بـ(سُوسطارة) إلى تعليم أساسي
متخصص في إعادة الإدماج ، فمن تخصص (إعادة إدماج أطفال
السجون) إلى (إعادة إدماج الأطفال المغتربين)..
واجهت خلال بضع السنوات هذه صعوباتٍ وطرائفٍ من التلاميذ
على اختلاف أعمارهم.. أهم هذه الطرائف:

الأسئلة التعجيزية التي لم يكن جيل الصورة المدرسية بالأبيض
والأسود من جيلها يجرؤ على طرحها على المعلم والأستاذ خشية
كثير من الأمور، فيُحْتَفَظُ بها في الأذهان إلى الأبد، وقد تخرج
تلکم الأجيال من دراسات عليا ويبقى ذلك السؤال عالقا معهم
إلى أن أجاب عليهم الشيخ Google مؤخرًا..

كانت أسئلة تلاميذها ومعظم التلاميذ المعاصرين - وخاصة
الصغار منهم - تعجيزية..مثلا : هناك من يطرح أسئلة تتعلق
بالغيبيات..تخص عقيدة الإلحاد..الشرك..الذات الإلهية..
الموت..الجنة والنار..القضاء والقدر..أسئلة أخرى لا تقل حرجا
في أمور الطهارة والزواج والإنجاب، وأخرى تخص الأخلاق
والآداب بصفة عامة..أسئلة يواجهها كل معلم..

بالنسبة لها كانت في كل الأحوال تجد لها مخرجا. تارة تحوّل
السؤال نفسه إلى موضوع بحث حتى تستشير أساتذتها في كيفية

التعامل مع الموقف، وتارة تشرح شرحا سطحيا بما يتوافق مع
المستوى الذهني الاستعابي للطفل..

جاء اليوم الذي لم تسعفها فيه كل نظريات علم نفس الطفل
والمراهقة ، ولا نظريات التربية العامة والتربية الخاصة، ووقفت
عاجزة عن أي تصرف..

كانت في فصل بديل للفصل الأول (أساسي) في مناوبة إلزامية
حين غاب معلمهم.. دخلت الفصل.. حاولت أن تشغل الأربعة أطفالا
وظفلة، حيث لا خبرة لها في هذا المستوى.. قامت بشرح بعض
مشاهد (التعبير الشفاهي) للدرس السابق، وإذا بطفل آخر الصف
منشغل في أمر ما، وهي تعلم جيدا أن الطفل المنزوي آخر الصف
والمنهمك في شيء ما هو طفل داهية في الذكاء..

فاجأته بالسؤال: " يا رضا أجب على سؤالي" ..

قام هذا الطفل بكل ثقة وهدوء وهو الذي لا يتعدى الست سنوات،
ورد عليها:

" أنستي ما رفعتش صُبعي" !!

قالت:

"إيه عارفة لكن جاؤبني". - " أنستي لو كان نعرف راني رفعت
صُبعي".

تفاجأت ولم تعرف كيف تتصرف..

أمرته أن يجلس في الطاولة الأولى حتى ينتبه، وأكملت الحصة ،
لكن كل التساؤلات كانت تدور في ذهنها:

ما هو التصرف الصحيح؟ سألت زملاء من المدير إلى المعلمين إلى المستشار، كلهم كانت إجابتهم واحدة :

يا آنسة درست كل النظريات واختبرت فيها، ونجحت وتحصلت على الشهادة، وتوظفت مبروووك والحمد لله.. الآن هذه النظريات ليست لأطفالنا.. خذي عصا طويلة أو خرطومًا (ورايحة تشوفي النتائج لي تفرحك).. مرّ الأمر بسلام، وغيرت تخصصها.. وفي يوم من الأيام الشاقة جدا في فصل (التلاميذ المغتربين)، كانت تشرح بعض الأمور الأولية في درس "المعرب والمبني" .. درس صعب على تلاميذ لا ينطقون العربية.. حاولت أن تترجم الدرس بالإنجليزي والفرنسي، وتُقرّب المعنى والبناء والتوظيف.. يقوم أحدهم يسألها بالفرنسية: "مدموزيل" "mademoiselle" لو قلت أكلت "التفاحة" - بالضم - بدلا عن "التفاحة" - بالفتح - واش رايح يصير؟ ولو قلت دخل "الولد" أو "الولد" وين المشكلة؟ .. يخي تفهمي علي؟ قالت له: "هذه قواعد اللغة." قال: "واعلاش عقُدوها يخي؟ المهم نتواصل فقط" .. وهذا ثاني موقف تعجز فيه عن الرد..

مرّت الأيام والسنوات ، وذات يوم كانت في انتظار رحلة إلى (فرنسا) للالتحاق بدورة تخصصية من مطار (هوارى بومدين). فترة الإجازة مزدحمة، وتأخرت الطائرة.. يتقدم نحوها طيار شاب وسيم خلوق:

- "عالسلامة مدام ، أروحي معي" ..

من كثرة التعب والإرهاق مشت خلفه دون سؤال..

أخذها إلى قاعة الدرجة الأولى، وأمر لها بغذاء وعصير
وقهوة، وقال لها:

- مدام ما عرفتينيّش؟

قالت: لا ، لكنّ أكيد أخذتني إلى هنا لأنّي لست ضمن تفويج
وكالة سياحية..قال:

- أنا (الليّ ما نعرفشّ فما رَفَعْتَشْ صُبْعِيّ)..أنا رضا.. ارجعي يا
مدام إلى مدرسة (حديقة الساحل بالأبيار) بجوار جنان الميثاق
والسفارة البلجيكية..

- إيه يا ابني (نذكرها وزيادة هديك حُومْتِي)..نظرت إليه مفتخرة
بصنيعها..

(رضا) التلميذ المشاغب طيار..وجه مُشرف..

أما (سمير) ابن الطبيبة الروسية المهندس الجزائري، سمير العدو
اللدود لسيبويه والنحو العربي، فقد حرر عقله من اللغات ونحوها
وصرفها وبلاغتها، واختار لغة الرموز والأرقام والأشكال..مهندس
دولة في الهندسة المعمارية ، وهاجر إلى كندا..

في أحد الأعياد تفاجأت به يجتهد حتى حصل على عنوانها ويرسلُ
إليها بطاقة تهنئة العيد ويبشّرها بأخبار تفوقه في مجاله الهندسيّ
المعماري..

الاستدعاء الذي انتهى بها إلى أرض التهائم وبركات الشيخ (بُو لِحَاف) ..

تمضي أيام (كَنْزَة) مكتظة مزدحمة ما بين ممارستها الوظيفة ،
ودراستها المُستمرّة في مجال تخصصها ونشاطها في المجال
النقابي والحزبي ..

تحاولُ تحقيق ذاتها ، لكنّها من حينٍ لآخر تشعر باختناقٍ شديدٍ
لجزئها خلف عقارب الساعة .. تكادُ تستسلمُ للإرهاق ، وتتسحبُ
من بعض المهام .. في تلك الرّبكة من ترتيب الأوليات بين الوظيفة
والدراسة ، ومهامّها في المؤسسات المدنيّة ..

يسلّمها مديرُ المدرّسة استدعاءً تقرأه فينتابها بركانٌ من
الغضب ..

كانت في أول سنة تخرجها ، ولم يأت عليها الدور للالتحاق
بالدورات الإلزامية التي تفرضها وزارة التربية والتعليم كل ٣
سنوات على المدرسين .. لكن زميلتها التي كان عليها الدور كانت
حاملًا ، وبيتها يبعد عن المعهد العالي لـ (تكوين أساتذة التعليم
الأساسي - بُو زرّيعة - الجزائر) ، فرشّحها مفتش المنطقة
التعليمية بدلا عنها، لقرب بيتها من المعهد ..

رفضت (كنزة) الالتحاق بالدورة لثقل التزاماتها، حيث كانت تواصل
تخصصها في (إعادة إدماج أطفال السجون وإعادة إدماج أبناء

المغتربين) إلى جانب كل التزاماتها وجدول الدوام القاتل في الجزائر فترات صباحية ومساءية طول ٦ أيام..

ثارت وتآبّطت استقالتها واقتحمت مكتب مفتش المنطقة..

السيد المفتش أستاذ كبير من بقايا طلبة (جمعية العلماء المسلمين).. رجل تربوي رزين حكيم.. مسلمٌ وسطي لا يرتني للمرأة وظيفة أفضل من التعليم.. تظاهر أنه سوف يدرس أمر استقالتها وأقنعها بأن تلتحق بالدورة حتى يفصل في الأمر..

التحقّت بالدورة في عدّة تفويجات حتى رسّت عند الشيخ (بو نحاف) ، وبدأت بركاته تهطل..

الشيخ (بو نحاف) لدى كل الطلبة هو الشيخ (الصحراويّ - من واحات الصحراء الجزائرية)..

كان الأساتذة السعوديون يعملون في سرّية تامة ، لا أحد من الطلبة يعلم أنهم من السعودية ، وفي الجزائر كان وجودهم مقتصرًا على السلك الدبلوماسي..

لهجة الشيخ (بو نحاف) قريبة جدا من لهجة أهل الواحة جنوبيّ وجنوبيّ غرب الجزائر، فهو الشيخ (بو نحاف الصحراوي)..

حين بدأت الشكوك عند الطلبة أنه وزملاءه ليسوا من الجزائر تيقنّ الكل أنهم من (الإخوان في جبهة البوليزاريو - الصحراء الغربية) اللاجئين إلى الجزائر..

وبدأت خيرات الله تنهال عليهم من الطلبة و(كنزة) - بنت أبوها - شيمّة وكريمة لم تقصّر هي زملاؤها:

قهوتهم ..

ساندوشاتهم..

شايهم..

وكل مصاريفهم في الكافيتريا على حساب الطلبة المساكين من مكافآتهم ، فهم ضيوف لاجئون وبلدهم في محنة..

انبسط الأساتذة من هذا الكرم ، وضمنهم الشيخ/ التهامي..

بدأ الأستاذ يهتم بالطالبة ، وهي تجامله ، فبلده وأهله في محنة.. تارة يتحجج بأن طريققتها في الإمساك بالقلم خطأ ، والآنسة طالعة روحها من هذي الدورة الإجبارية ، وغير مبالية بمحاضراته ، وتذاكر خلالها خفية لاختبارات تخصصها..

لم يوافق المفتش على الاستقالة وبدأت تتغيب عنوة عن الدورة لعلمهم يفصلونها.. وصار السي / الأستاذ يحاسبها على الغياب ، فأخبرته أنها ترغب في الاستقالة، لأن التعليم في الجزائر كالخدمة في الجيش : دورات إلزامية - ندوات تربوية - أيام دراسية تلزم المدرس ببحث مرة كل شهر دون أي ترقية أو درجة..

تحدثت إليه عن كل هذا، في (الكافيتريا) ، وهو يلتهم الوجبة التي دفعتها من مكافآتها ، ويرتشف فنجان القهوة مستمتعا بطيبة وسخاء هذه الطالبة التي تكرمه كلاجئ..

بدأت بركات سيدي الشيخ (بُو لحاف) تهل..

عرض عليها مساعدته في أبحاثها الروتينية التي تقدمها شهريا في الأيام الدراسية الإجبارية.. وافقت :

- (يا لله واش رايحة نخسر أصلا سأستقيل من التعليم)..
 كان أول بحث يقدمه لها بعنوان..(همزة الوصل وهمزة الفصل
 والقاعدة المجنونة) ، ووضع لها قصيدة غزلية بين الأوراق ،
 وطلبها للزواج..

"البراني" ..

- إكرام الأستاذ اللّاجئ..

ما زالت (كنزة) ورفاقها يكرمون الأساتذة "البوليزاريو"
 اللّاجئين في الجزائر..

ما زالت على عهد كرم (السّي عبد القادر) والدها ، تُسهم
 بمنحتها البسيطة لتكرم هذا اللّاجئ.. حين اكتشف الطلاب أن
 الأساتذة الخمسة ليسوا من الصحراء الجزائرية. هم من الصحراء
 الغربية لاجئين مع أسرهم في الجزائر ، وعلى كل جزائري
 إكرامهم، فبلدهم في محنة..

(كنزة) في أزمة!

كيف تخبر والدتها أن هذا الأستاذ العريس الذي كلمتها عنه ليس
 من الصحراء الجزائرية؟!

كان صداما حادا بينهما حينما أخبرتها والدتها بقرار زواجها من
 أحد بني عموماتها..

- العريس البرّاني..

- يا طفلة جاؤني غمومك صباح وقرروا نيزوجوك..قالوا خلاص
تخرجت وتوظفت وراك في مقام أزواج..

- كيفاش؟؟(jamais..أبدا) ما نتزوجش بطريقتهم..

- يا طفلة ما تدخليش خوالك في مشاكل مع عمامك يقولوا
ما عرفناش نربوك..

- يقولوا عمامك عندك أولاد عمك من خيار الناس : أمقران كمل
قرايته ورجع من كندا، وولد عمك سيد أحمد في مقام الزواج،
والخرين، اختاري منهم اللي يناسبك..

- غلاش؟! هم سيارات بش نخير هكذا!؟

قولي لهم كيرجعوا أني اتفقت على الزواج مع أستاذي
الصحراوي..

- يا طفلة رايحة تديري فتنة في العايلة.. عمرهم ما مدّوا بناتهم
للبرّاني.. أنت تعرفي مليخ عرّف القبيلة.. تاغ باباك وحكاية
الأرض والورث.. راك حابه يقتلوك..

- ما نتزوجش إلا باللي نخيرو أنا غلاش الصحراوي ما شي
جزائري كما هم؟؟

احتدم الحوار بين (كنزة) ووالدتها ، وبقي الأمر معلقا لدى
أعمامها ، وبقيت والدتها تماطل في الرد متحججة بالخدمة
المدنية التي ما زالت (كنزة) ملتزمة بأدائها..

ما زال الأعمام ينتظرون الرد، وما زالت والدتها محرجة منهم..

تفاقت أزمة (كنزة).. فالعائلة رافضة أصلاً مبدأ الزواج من خارج أبناء العمومة، وقد رفض أعمامها بني خولتها من العاصمة..

هي ذات الأعراف الأزلية التي تخنق (كنزة).. أعراف القبيلة، وحتمية الزواج من ابن العم والأرض عرض..

الأستاذ "البرّاني" من "البوليزاريو" يصرّ على التقدم لأهلها ليطلبها للزواج..

تقرر أن تخبر والدتها:

- أستاذي من "البوليزاريو" حابّ يخطبني..

- يا طفلة أنتِ هبّلتِ، نَعْرَفُكَ طِفْلَهُ عَاقِلَهُ وَاشْنُو هَذَا؟

شَحَالْ مَنْ أَسْتَاذ تَعْرَفِي وَتَتَّفَقِي مَعَاهُ عَلَى الزَّوْاجِ؟؟

تخبر (كنزة) والدتها أنه حصل سوء تفاهم، وأن هذا الأستاذ "البوليزاريو" هو نفسه الأستاذ الصحراوي..

- آه هذا الرجل ما هو وليد ناس، يَتَمَسَّخَرُ بِأَصْلُو وَفَصَلُو كُلِّ مَرَّةٍ يَقُولُ لَكُمْ أَنَا مِنْ بِلَادِ!! لَا يَجِينَا وَلَا نَقَابِلُوهُ وَلَا عَمَامَك رَايْحِين يَسْتَقْبَلُوهُ..

تَحْتَجُّ والدتها بقوة، فكيف تتزوج ابنتها التي انتظرتها عشرين عاما من أرض بعيدة في حرب وفي محن؟؟!!

أصرّ الأستاذ على لقاء أهلها..

وأصرت هي عليه، وقررت الوالدة أن تستقبله مع أخوال (كنزة) ،
فهم من العاصمة ، وأكثر تقبلاً للغريب ..

تراوغ الأم (كنزة) .. فالطفلة ما زالت صغيرة، ويمكن أن تقنعها
بعد ذلك في تغيير رأيها ..

ترتب (كنزة) لقاءً أستاذها (البوليزاريو) بوالدتها وأخوالها ..

- عريس من عسير ..

في (كافيتريا) الكلية يجري الحوار بين الأستاذ وطالبته:

- متى حدد أهلك الموعد لأرتب مع الرجال من أهلي يحجزون
رحلة من جدة؟؟؟

- يُجُون من جدة؟؟!!

- أيوه أنت عارفة الحين موسم عمرة وصعب الحجز؟؟

- داروا عمرة وكمّلوا؟

- أكيد ويجون على طول؟

- أحسن هُمّا أصلاً يمرون بالعاصمة قبل ما يروحون للجنوب ..

وعلى فكرة أهلك ساكنين معاك في العاصمة والأ في ملاجئ
ومخيمات (تندوف) ؟

- ما بك يا بنت عن من تتكلمين؟

- عن أهلك ..

- أيّ ملجأ وأي عاصمة وأي جنوب تتكلمين عنه؟؟

- عن جنوب الجزائر، ما هو أهلك في ملجأ "البوليزاريو" في
تندوف؟؟

- يا بنت أنا أهلي من جنوب السعودية ، من (عسير) ويجون من
جدة..

- غلاش أنت ماشي "بوليزاريو"؟؟

- أنا (عسيري)، من (رجال ألمع)، من جنوب السعودية..

يُكاد يُغمى عليها في هذا العريس المتعدد الجنسيات..

كيف تخبر والدتها من جديد أنه

غير مرة أخرى جنسيته؟!

- لكن كلنا الطلاب نقول لكم "بوليزاريو"، ونعاطف معاكم وأنتم
ساكتين؟!!

يعني كلكم سعوديين "بيترو دولار" ، واخنا نصرّف عليكم في
(الكافيتيريا) والمطعم من منحنى الجامعيّ؟!

- وما ذنبنا؟؟ احنا اعتبرنا هذا إكرامَ ضيوفٍ من شعبٍ كريم ؟

- لكنّ الحين كيفاش نُخبّر أمّي بجنسيتك الجديدة؟!!

- وما ذنبي في اعتقادك مع زملائك؟ أنا ما كذبت عليك ما

قلت لك إني جزائري من الصحراء ولا من "البوليزاريو" ، وأنا
مصمّم على أن أتقدم إلى أهلك!

أخبرت (كنزة) والدتها بجنسية العريس الجديدة..

ارتعبت الوالدة من هذا العريس الغير سويّ ، وهددتها بأن تخبر أعمامها ليتصرفوا معه، وخافت على ابنتها منه، ورفضت إطلاقاً مقابلته ، وطلبت من (كنزة) أن تنقطع عن الدّورة في الكلية وعن الخدمة المدنية ، وكانت صارمة ، وأخبرت أخوالها بأمر الأستاذ المريب..

أمام إصراره على خطبتها، وإصرار والدتها على رفضه، أخبرته (كنزة) أنّ أخوالها يجتمعون في بيت والدتها كل جمعة للغداء.. في الموعد حين اجتمع الأخوال عند والدتها بعد صلاة الجمعة اقتحم الأستاذ البيت ، وكان متكلماً فصيحاً بلاغته لا يغلبها أحد فهو شاعر.. تمكن من تبديد كل الالتباس الذي أحاط بشخصه المريب..

- أرض القبيلة..

اقتنع الأخوال بالعريس (العسيريّ) ، فهو ذو الحجة القوية، والكلمة النافذة إلى القلوب والعقول.. قرروا إقناع أعمامها الذين لم يقتنعوا أبداً..

أمام إصرار الأستاذ على الزواج من طالبتة وإصرارها على اختياره شريك عمرها وصل أخوالها إلى اتفاق مع أعمامها ليتنازلوا عن الولاية لابن عمها الأكبر..

كان الاتفاق أن يخارجوها في كل أراضيها في القبيلة والتي ورتتها من والدها خوفا من أن يرث هذا (البراني) أرض القبيلة..

بدأت رحلتها مع المحكمة لتنتقل الولاية إلى ابن عمها الكبير من الجيل الجديد المتجاوز لأعراف القبيلة الظالمة ،

ورحلة أخرى شاقة موازية لتحصل على ترخيص من الداخلية للزواج من أجنبيّ مسلم ، وفي نفس الوقت بدأ الأستاذ هو الآخر رحلته الشاقة بين الجزائر والسعودية يخلق ويجوب ويراجع الداخلية والخارجية هنا وهناك للحصول على تصريح زواج من المواطنة الجزائرية فلااااااااااا بنت فلان..

ليلة زفاف الشاعر..

الشاعر والداخلية الجزائرية..

بدأ (بُو لحاف) إجراءاتِ الزَّواجِ معِ الدَّاخِليَّةِ الجِزائِريَّةِ بعدَ
حصوله على موافقةِ الدَّاخِليَّةِ في بلادهِ..

وبدأتْ دَوَّاماتُ مراجعاته في الجزائرِ وسطَ تفجيرات في قلبِ
العاصمةِ الجزائرِ..

سياراتِ مَفخخةٍ..

طلقاتِ نارِ عشوائيَّةٍ..

اختطافِ واغتيالاتٍ..

نقاطِ عسكريَّةِ مزيفةٍ للإرهابيين هنا وهناك حولِ ضواحي
العاصمةِ..

حظرِ تجوالِ وحالةِ تَأهَبِ قصوى..

الشاعر في آخرِ إجراءاتِ الزواجِ.. وزارةِ الدَّاخِليَّةِ.. الخارِجيَّةِ..
الأمنِ الوطنيِّ.. أمنِ الدولةِ.. تحرياتِ عليه من كلِّ هذهِ الجهاتِ..

أخيرا جاءه إشعارُ بالموافقةِ عليه..

لا يصدقُ أنِ الإجراءاتِ انتهتِ وسيتزوج من طالبتِه..

يلتف في كلِّ الاتِّجاهاتِ متسائلا:

وهذا عسكري، وهذا أمنٌ بلديَّةٌ ، وهذا حارسُ الغابةِ ، هل أخطبك
منهم أيضا؟!!

وهذا مقرُّ وزارةِ الرِّيِّ والصيدِ البحريِّ ، هل أقدمُ هنا ملفَ زواجي
بك؟!!

كم أرهقته المراجعات أكثر من سنتين في عدة وزارات في
الجزائر حتى جاءه الرد بالموافقة!!

أخيرا سيتوجه إلى الإدارة العامة للأمن الوطني ليستلم موافقة
الدولة الجزائرية عليه بالزواج من المواطنة الجزائرية (كَنزَة)..
منها مستسلما لقدره يدخل إلى مكتب المحافظ السامي للأمن
الوطني..

يستقبله مع اثنين من الضباط معه غلاظ شداد.. ملامحهم كلها
غضب وثورة.. مكشرا يستقبله المحافظ ويسلمه وثيقة الموافقة
وكان (كنزة) هي البنت الوحيدة التي بقيت في الجزائر!!

- حُودٌ مبروكٌ عليكِ الطَّفلُ.. رَآنا وافقنا لكِ تَهَلَّى في بنتنا..

يستلم الشاعر الوثيقة مهرولا نحو الباب..

- المحافظ : استنى يا السّي الحاج، ما زال ماكمّناش الهدرة

- خير يا حضرات أنا أبغى الحق بموعد في الحالة المدنيّة لعقد
الزواج...

- ما زال..

ما زال..

لازم تمضي على هذه الشروط وتصادقها من سفارتك..

يطل (بُو لحاف) العربيّ على الشروط التعجيزية ويستسلم ويوقع،
لكن يللم شجاعته ويسأل المحافظ :

يا أخي هذه شروط صعبة لكن عادي وقعت،

لكن مؤخرُ الصداق مبالغ فيه!!

- آه يالسيّ مُحَمَّد ما رَناش نَلَعبو هنا، هذي خطبة من دولة لدولة..مقدم الصداق بينك وبين ولي أمرها لكن المؤخر من صلاحيات دولتها.. هذي شروطنا.. جيت بُرْجُليكُ تتزوج عندنا... هكذا يخاطبه المحافظ بوجه متجهم..

يوقّع الأسمر العربي ولا حول له ولا قوة، فالأمن الوطني الجزائري أمامه، وقبائل البربر وراءه...

وتساءلت (كَنزَة) :

- هل وقع هذا الفارس العربي على الشروط حبا فيّ؟ أم وقع خوفا من الداخلية ومن قبائل الأمازيغ من أهلي؟! وبقي سؤالها عالقا دون ردّ..

كل الإجراءات الإدارية والأمنية مرت بسلام، وحانت مراسيم ليلة الزفاف..

- ليلة زفاف الأستاذ على طالبتة مناسبة ضيقة النطاق يحضرها نخبة من رجال العائلة والقلة القليلة من السيدات.. مراسيم في سرية تامة..

فقد أمر الإرهابيون وأعلنوا تعليق الزواجات ومناسبات الختان والعقيقة والملكات ، ومن يخترق هذا يُنكّل به وبأهله..

كانت عائلة (كنزة) العروس في حداد لاغتيال ثلثة من خيار شباب العائلة من الضباط والشرطة..

ليلة زفاف وفرحة مع إيقاف التنفيذ..

مأدبة عشاء رمزية مرشدة..

مناسبة لم تتعدّ الأربع ساعات ، تسودها أجواءً من الحزنِ

المهيب..

دمعة العريس..

بسم الله الرحمن الرحيم..

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا).

كانت هذه الآية الكريمة أول ما بدأ بها المأذون خطبة عقد النكاح..

القليلون من الرجال الذين حضروا إلى جانب ولي أمرها اعتادوا ذلك في مذهبهم المالكي..

لكنه سرعان ما انهمرت دموعه شفافة على البدلة التي كانت تحاول ترويض جسمه للتألف معها..

كان شيئاً جيّاشاً مكتنزاً بصدرة يتدفق مدّه إلى حنجرته فتضيق ، وتحتبس كلماته..

شيء يكبلها فلا تنعق..

ليست ربطة العنق التي كان الفارس الأسمر ينبذها لأنها تحوّل بين لسانه العربي وأحرفه فلا تخرج سلسلة من شفّتي ربان الريشة والقوافي ، بل كان صوت ذلك الإمام (المأذون الشرعي)..

صوته في تلاوته للآية هو من كان يربك العريس..

تنهلّ دموعه على مسارٍ تقاسيمه الأزديّة شلالاً سماوياً..

تتلظى وجنتاه من وهج ذلك الشلال الملتهب الذي يُخدر صحو
شفتيه فلا تتحرك..

الحضور من الشهود وولي أمرها في ذهول وحيرة من أمر هذا
العريس !!

ففي كل الأعراف العروس هي من تبكي ربما لفراق أهلها الحتمي
وذلك هو المألوف..

كان الأسمر العربي يتصدر الأريكة إلى جواره ولي أمرها
والشاهدان وقلة من الحضور..

إبهام وسبابة تمسكان بالقلم الذي يستعد به لتوقيع عقد النكاح..
دموعه لم تكف..

تنهمر..

تعب شفتيه فلا يقدر مرة أخرى على الكلام..

يمسحها فتغمر القلم ويتجمد الحبر..

تزيد دموعه تمرُّدا.. يحفر وقع الآية القرآنية على وجهه الحنطي
نور الحكمة والوفاء..

يتصلب كل شيء في الغرفة..

دمعه شفاف رقراق كانعكاس بياض الثلوج التي غطت (جبال
أشريعة) تتلاشى من القمم يهوي تدحرجها مع انحدار الجبل عند
حافة العمارة..

كانت نبضات قلبه تضخ دما إلى الداخل في مفارقة سرمدية مع
دماء الأبرياء من الضحايا..

دمهم متدفق للسماء من بطن الجبل يرسم على السفح وجع
احتضارهم..

الأبرياء الذين ذُبحوا في الأمس بيد جماعة الهجرة والتكفير..
كانوا كلهم يرقدون تحت الثلج الذي يتنازل عن شماريخه
فتتعى..

ينسكب إلى أسفل الهضبة ليستر عورات السبايا اللواتي نُكِّلَ
بهنّ..

كان الوحيد الذي يلبس بدلة ملوّنة يطوّقها كل ذلك البياض الذي
يلبسه الحضور من القلة من النساء والرجال مع (جبال
أشريعة)..

لم يكن ارتداء الأبيض في تلك العصرية احتفاءً بالعريسين..
كان اللون الأبيض حدادا كما تقتضيه العادات الأندلسية في
الجزائر..

فاللباس الأبيض عند الجزائريين هو ذلك اللون الذي يُعبّر عن
صفاء وصدق المشاعر في العبادات :

الحج - العمرة - صلاة الجمعة - صلاة العيدين - المواسم الدينية -
الأفراح -

في تشييع الجنائز - الحزن والحداد..

في تلك العصرية كان حدادا على كل من نُكِّلَ بهم بيد الإرهاب
خلال ذلك الأسبوع.. اغتيال ابن خالة العروس الضابط الشاب..

اغتيال الراهبات في كنيستهم..

اغتيال إمام المسجد.. واغتيال السبايا في جبال (أشريعة)..

لبس كل الحضور الأبيض حدادا ولبسته أيضا جبال حظيرة
(أشريعة) تنثر وميضها النوراني على أشلاء السبايا تطهرهن من
الذنس.. يتمازج الوميض النوراني مع قداسة الآية التي يتلوها
الإمام ودمعه الرقراق تطهرهن من دنس يد الجلاد الذي انتهك
حرماتهن.

يواصل الإمام خطبة النكاح..

يكمل العريس الآية التي بدأها الإمام..

تتم مراسيم عقد النكاح :

- زوّجتك موكلتي (فلانة) على الصداق المسمّى بيننا..

- وأنا قبلت هذا الزواج..

- يا وُلَيْدِي سَلْمَنَّاكَ أمانة وانت سِنْدُ أَرْجَالِ..

دموعه لم تكف تجرّف معها كل الدمع المهيب الذي يتمازج بدمع
أمهات وأرامل وأيتام الضحايا بالأمس..

زغرودة يتيمة ، وطلقة رشاش واحدة لإشهار الزواج خلسة ،
حتى لا يكتشف الجلادون أن هناك من يصنع الحياة وينكت
ميثاقهم في إشهار الموت في الوطن الدامي..

يمضي الأسمر العربي مع زوجته..

تسأله عن دموعه فلا يرد..

تسأله وتسأله..

صامتا يستغرق في وجهها فتقطف من نظراته العميقة وعد
الوفاء.

ومع تحليق الصقر الذي يزف كل الصلوات التي تعرج إلى السماء
مترحمة على السبايا في موكبها إلى حياة الخلود.. إلى ملكوت
البرزخ.. عالقة أرواحهن تترقب ثأرها.. تمضي العروس مع
فارسها تغادر ارتياب ذلك الزمن..

سألته عن تلك الدموع ، فأجابها بذاتِ الدموع..

بدورها فهمت كل معاني الوفاء وتحمل الأمانة التي تحملها معها
في ذلك الزمن الدامي في أرضها ، فكانت وحدها من يستطيع
الإجابة عن سؤالها..

حين تُغَيَّبُ عن ذاتك...

Villa coloniale..villa de !!?? Maître

حين تُغَيَّبُ عن ذاتك حتما ستكون إنسانا غير موجود..

ومع هذا تصرُّ (كنزة) على أن تقيم - مع زوجها - أسبوعا كاملا في بيت أهلها في (فيلا سيرانو).. فقد انتهى إيفاد الزوج إلى الجزائر بعد بضعة أشهر من زواجهما..

تحاولُ في (الفيلا) تطهيرَ روحها من وجعِ (سيرانو) قبلَ رحيلها إلى بيتِ زوجها في أرضِ الحرمين ..

خلالَ أسبوعٍ كاملٍ تستنطقُ وجعها مع معالمِ الاحتلال في مقتنيات (سيرانو) التي ما تزالُ تستفزُّ سيادتها في بيتها..

- فيلا اللوتس le lotus..فيلا "سيرانو Sérano" ..

هي وكل رفاق المنشأ..الطفولة والصبا..نشأوا في تلك الفلل
الفسيحة المُترفة ذات الحدائق الفرنسية والبساتين المترامية
والينابيع التي تنساب بين أشجار الفواكه والمساح المرمرية في
حي (الأبيار) أعالي الجزائر العاصمة..

الحي الراقي "quartier" résidentiel الذي كان مخصصا
للفرنسيين في عهد الاحتلال "château neuf chevaley"
"cheval blanc mont d'or
..poirson

فلل وقصور بناها المُعمر على أرض أجدادهم ..سلبها ظلما
وعدوانا..استردها آباؤهم وأمهاتهم بسلطة النار والدم..إحلالهم
فيها كان شعورا جميلا بالنصر..

(كُنْزَة) وكل رفاقها .. تخمّن :

هل فعلا كان لي ولرفاقي وجود تحت أسقف هذه الفلل الفخمة؟!!

تحقق في ما حولها .. تستحضر كل الوجد تخاطبُ الجدران :

كنتُ وما أزالُ مُغَيِّبة تماما في فيلاً "اللوتس..lotus" فيلا
المُعمر " سيرانوا Sérano" الذي استردها والدي..

كان شعورها دائما مكتظا بالمفارقات :

نشوة الانتصار على العدو في خيبته العرجاء يجرها المُعمر
Sérano راحلا للأبد..Serano الذي شيّد قصرًا على أرض
جدها حين سلبها ظنا أنه سبقي فيها للأبد.. "سيرانو" ورعب

الأقدام السوداء.. **pieds-noirs**.. مفارقة.. نشوة النصر
يُطوّقها إحساس متناقض كله إحباط.. لم تكن متواجدة فيها..
جدرانها جليدية تُعلّق عليها لوحات مشهورة باهضة الثمن
رُسّمت عليها أشياء لا صلة لها بماهيتها الجزائرية..
أسقفها العالية أغوار سجن تحبس أنفاسها.. ترعبها..
نُقِشت جُبوسها بمجسمات من هلامية آلهة الإغريق أو دين
Audin.. زيفير. **zephir Cupidan**.. أصنام رخامية
وخشبية هنا وهناك في زوايا الغرف..

أصنام تحاول المشي.. تخيفها.. تتمتم.. تخبرها أن "سيرانو" ما
زال هنا في أرض جدها يسكن كل الغرف بمقتنياته الدخيلة
عليها.. مزهريات خزفية بها ورود مجففة تطلق رائحة الموت
الغادر ..

حين تجلسُ على أرائك لُويس 14 "Louis" في المجلس
الكبير كان جلوسا مريبا مرتبكا.. كأنها تجلس على جثامين
الشهداء الذين كان يقرر المعمر **Sérano** وجنيرالاته إعدامهم..
هناك على طاولة السفرة العملاقة كانت تُقرّر الإبادة الجماعية
للقرى والمداشر..

يقرر (سيرانو) مع جنيرالاته كل ذلك.. قانون (الأنديجينا) ،
وسياسة الأرض المحروقة..

يقرّرون الإبادة الجماعية على جلسة عشاء وسمرة لهُو
ومجون.. على طاولة السفرة العملاقة أيضا يقررون نفي أسلاف
(كَنْزَة) إلى (كاليدونيا) الجديدة..

هناك في الدولاب الكريستالي أكواب الخمر البلورية تنتهك
إيمانها ومحرماتها..

يصعقها طقم السفرة "روميو وجوليتت **Romio Juliette**.. في
قدح (البرسولين) المزخرف الذي طُمست فيه جمجمة جدها قبل
أن يُرَج بها في (متحف الإنسان) المزعوم في باريس..

تحقق (كَنْزَة) في الصورة المدرسية المعلقة على الجدار في
الحجرة الكبرى.. صورة الطفولة مع رفاقها..

تحدثهم :

نشأتنا في هذه الفل كانت وجعا.. تفاصيل حجراتها لا ترسم
ملاحنا..

(فيلا سيرانو) قبو.. مسغبة وآلام .. (فيلا اللوتسن) بيت لا
يشبهنا...

في (فيلا سيرانو) ، تربة الأرض فقط هي التي كانت تكنز لـ
(كَنْزَة) ملاحها الجزائرية.. لم يقدر "سيرانو" على تغريب
الأرض..

والدها المجاهد (سي عبد القادر) وغيره من رجال الحي لم يكونوا
مهتمين بتفاصيل الحجرات، فالأرض هي الأصل..

راح والدها ومن معه يطهرون بساتين وحدائق الفلل من دنس
الأقدام السوداء les

pieds-noirs .. يجتثون كل الدوالي المتجذرة في الثرى..
دوالي عمرها

عمر الاحتلال ، غرسها المعمّر لصنع خمرة المشؤوم..

دوالي رُوِّعت بصيحات الفلاح الجزائري ، فأبت التخمر يجتثها
(سي عبد القادر) ورفاقه من وتد هضبة (الأبيار) وجبل (بُو
زريعة) ، ويغرس شجرتي التين والزيتون تباركان التربة.. تلبيان
نداء ما بعد احتضار قرن وثلاثين عاما من الاحتلال..

تشرف للاً "نُسومر" المجاهدة الفلاحة على تلقين رجال الحي
غرس الشجر المبارك في الأرض الجزائرية..

"للاً نُسومر..خنساء الجزائر" في فيللا "دار الشهداء" برفقة
أرامل أبنائها الثلاثة الشهداء

وأيتامهم ، تصرُّ من خلف الشبك الذي يفصل بين البستانين ،
تصر على أن تعلم(كنزة) كيف تغرس شجر التين والزيتون..

فيللا "دار الشهداء" ..بهذا الاسم..

كان الكل في (الجزائر العاصمة) يعرف ويلقّب هذه (الفيللا) بهذا
رغم نمطها الفرنسي ، لكن دماء أبناء "للاً نُسومر" الشهداء
طهّرت الفيللا من فرنسيتها ، وبددت فيها كل أثر استعماري..كانت
(كنزة) بدورها تلمّم فيها شتاتها الضائع في فيلا "سيرانو" ..

تلقاه حين تروي لها "للاً نُسُومَر" إنكارها لجثامين أبنائها الشهداء ورؤوسهم المبتورة التي ألقاها العسكر الفرنسي عند قدميها لتعترف بكتيبتها ، فلم تعترف وعَتَّقَت دمع أمهات وأرامل كل الشهداء لتسقي به الشجر المبارك الذي تغرسه في التربة الجزائرية فجر النصر..

تصر "للاً نُسُومَر" على أن تردّ إلى التربة صبغتها..

تشرف على غرس الشجر المبارك في هضبة "الأبيار" ، يقابل الهضبة جبل "بوزريعة" ، ولكل جبل في الجزائر "للاً نُسُومَر" .. في الجبل المقابل لفيلاً "سيرانو" و"دار الشهداء" كل الرجال والنساء والأطفال يطهرون مدرجاتهم من الدوالي.. يطهرون مقاطعة **Lotissement Labruère** لبرييار و **Baranès** برانيس و **Jubert** جوبير، يطهرونها من دنس الأقدام السوداء ..

ما بين (هضبة الأبيار) و(جبل بوزريعة) وادي "قريش" الأبّي الدائم الجريان يغذي الأشجار المباركة بمياه السيل النقي..

كلّ أجيال الاستقلال - في هذه الفلل المترفة - يبحثون عن نواتهم.. و(كَنْزَة) مثلهم تبحث عنها فلا تجدها.. يشتمها شبح "سيرانو".. تحمل وزر حضارته الفرنسية المزعومة التي حاول نسبّها إليها.. محاولاً محو هويتها منذ أكثر من قرن..

توارب كل النوافذ التي تعيدها إلى ماهيتها حين يصيبها مسّ من البيت (القَصْبَاوِيّ) بيت "يَمَّا كُبيرة" و"للاً سِتّي" ..

حينها فقط تجد ذاتها.. تحتفظ ببصمة كل مقتنياته.. تحتفظ بوقعها على عينها.. تطبع بها فكرها وتفكيرها.. ترسخها في

شعورها.. وإلى أبعاد بيت جدّتها الحجريّ في جبال "الأخضرية" الشامخة في منطقة "القبائل الكبرى" بيت جدّتها الفلاحة راعية الغنم.. بيت وحقل وغدير انبلجت من جذع شجرة الزيتون.. تجد هناك ضالتها.. تلتقي بالطفلة الصغيرة المبعثرة عند ثقافات "سيرانو" الوهمية..

لم يفلح الاستعمار الفرنسي في تهجين بيت جدّتها المتلاحم مع وتد جبل "الأخضرية" ، ولم يستطع تغيير ملامح بيت "يَمّا كُبيرة" في "القصبّة Casbah".. بيت قصابوي مكنون داخل أسوار المحروسة لقبيلة (بني مزغنة)..

حين تعودُ إلى فيلا "سيرانو" كانت تعود من رسوخ موروث جداتها إلى (الفيلا) التي تُغيبُ فيها عن ذاتها ، تعود بوعد ثقيل مقدس.. وعدٍ بأن ترسّخَ هذا الموروث في بيتها الزوجيّ الجديد..

هي على وشك الرحيل مع زوجها ، تقرّر - مع والدتها - بيع (الفيلا) بمقتنياتها والاحتفاظ بالبستان ، لتقتل (سيرانو) إلى الأبد.. تأخذ معها تلك المقومات التي ترسم ملامح هويتها : مقتنيات موروثه من جدّاتها .. مقتنيات نحاسية وطينية صلصالية تصوغ جزائريتها لترحل بها إلى أرض (المملكة العربية السعودية) ، لتقتل (سيرانو) قبل رحيلها ، وستقتله من جديد في بيت زوجها هناك في أرض الحرمين..

الرحيل..

تعودُ (كَنْزَةَ) وزوجها من (فيلاً سيرانو) وقد طَهَّرَتْ روحها من
كلِّ الأوجاع.. تولدُ من جديد..

وقد تَخَطَّتْ - مع زوجها - كل العقبات.. أعراف القبيلة .. الأنظمة...

أزمنة الإرهاب التي طُبعت زمن فرحتهما المعلقة..

تستعد (كنزة) للرحيل مع زوجها.. كل الأمور على ما يرام بين
زوج من مشارق الأرض وزوجة من مغاربها.

لم تكن هناك أيّ هوة أو فجوة ثقافية وحضارية بينهما.. يُحدِّثها
عن أرضه.. الجبل.. الهجر.. الصحراء.. القطيع.. الزرع..
فتستوعبه.. فالجزائريّ مزارع فلاح بفطرتة، وابن جبل وبحر
وخيمة.. أرض زوجها تشبه أرضها.. يخبرها عن القبيلة
والعشيرة فتفقه ذلك ، لأن تلك البنية متجذرة في جبالها
وصحاريها ومدائنها.

تجاوزت صدمتها حين أخبرها أنه ليس لاجئاً من "البوليزاريو" ،
وأنه من السعودية.. بعد ذلك لم تصدم أبداً، لأنه كان "بيترودولار"
من الطبقة الكادحة مثلها، فهي من عائلة مكافحة رغم ثقافات
وظفرة النفط والغاز في أرضها..

تتحدّر من طبقة المتشبهين بالوظيف العمومي من أعلى الكوادر
الأكاديمية في عائلتها إلى أبسط موظف..

تحضّر حقائبها للرحيل معه.. ينتصبُ غاضباً ممسكاً كومةً من
الألبسة.. يحشرها في الحقائب..

- غَلاشْ تَأْخُذْ هَذَا اللَّبْسَ؟ يَحْيَى فِي بِلَادِكَ تَلْبَسُ ثُوبًا..
- هَذَا اللَّبَاسُ غَالِي عَلَى قَلْبِي ، سَأَحْتَفِظُ بِهِ إِلَى الْأَبَدِ. هَذِي كَسْوَةُ الْعِيدِ مِنْ طُلَّابِي الْكِرْمَاءِ ، وَأَنْتِ عَلَى رَأْسِهِمْ..
- يَعْنِي بَاقِي تَفْتَخِرُ بِالْمَقْلَبِ الَّلِي أَخَذْتَهُ أَنَا وَزَمَلَانِي؟!!
- وَاللَّهِ أَنَا مَالِي ذَنْبٍ أَنِي صَعَبْتُ عَلَيْكُمْ وَكَسَيْتُونِي فِي الْعِيدِ..

d'accord..d'accord-

- طِيب..طِيب بِالصَّحْ غَلاشْ خُذِيْتَهُمْ وَقَعَدْتِ تَلْبَسُ فِيهِمْ؟
- هَذِي كَسْوَةُ عِيدٍ وَقَدَّرَ مِنْكُمْ يَا طُلَّابِي الْأَعْزَاءِ وَالْهَدِيَّةُ لَا تَرُدُّ، وَزِيَادَةُ هَذِي مِنْ مَارَكَاتِ عَالَمِيَّةٍ..
- أَنْتِ تَدْرِي أَنْ فِيهِ مِنَ الزَّمَلَاءِ مَنْ اسْتَلْفَ حَتَّى يَشَارِكَ فِي كَسْوَتِكَ؟
- مِنْ أَجْلِ هَذَا أَخَذَهَا مَعِي وَأَحْتَفِظُ بِهَا إِلَى الْأَبَدِ ، لِأَنَّهَا بِالنَّسْبَةِ لِي لَيْسَتْ مَجْرَدُ كَسْوَةِ عِيدٍ..
- يَنْصَرِفُ الْأَسْتَاذُ عَنِ زَوْجَتِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الذُّكُورِ تَرْتِيبُ الشَّنْطِ..تُقَلَّبُ تِلْكَ الْمَلَابِسُ :

بَدَلَةٌ مِنَ الْمَارِكَةِ الْفَرَنْسِيَّةِ..جَزْمَةٌ جِلْدٌ طَبِيعِيٌّ.. (كَرْفَاتَاتٌ) مَتَنَاسِقَةٌ الْأَلْوَانُ مَعَ (الْجَوَاكُتِ) وَالشَّرَابَاتِ.. لَبْسٌ رِيَاضِيٌّ..و(قَشَّابِيَّةٌ) مِنَ الْوَيْرِ مِنْ "غَرْدَايَّةٌ" فِي الصَّحْرَاءِ الْكُبْرَى بَاهِظَةٌ الثَّمَنُ. جَمَعَهَا كُلُّهَا بِعَنَايَةٍ فِي لِحَافِهِ..

بُرْدُهُ الْيَمَانِي الَّذِي حُظِرَ عَلَيْهِ لَبْسُهُ إِلَى أَجْلِ مُسَمَى..عِشْرَتُهَا الْقَصِيرَةُ لَهُ خَلَالَ عِدَّةِ أَشْهُرٍ مِنَ الزَّوْجِ أَخْبَرْتَهَا كُلَّ شَيْءٍ عَنِ

علاقته بلحافه ومآرب ذلك (المصنّف) المُقَلَّم الذي لا يفارق حُبوتَه في البيت فقط لأنه سبق أن نبّه زملاؤه الجزائريون أن ألوان لحافه مطابقة للهويّة الأمازيغية التي كانت محظورة قبل مظاهرات 88 وقد يُعتقل ويُعتَبَرُ من الأمازيغ المعارضين..

هذا التطابق في الموروث الثقافي بين (عسير) والرموز (الأمازيغية المحظورة آنذاك) جعلته يُعرض عن لحافة إلى ميقاتٍ غير معلوم ، ويتحمل برد شتاءِ جبلِ (بُو زَرَّيعة) في أعالي العاصمة وثلوجه..

كان أستاذنا التهامي قد اعتاد بردَ (السراة)، بردا يعاقره ويهزمه بلحافه حين يصعدُ إليها في الشتاء مضطرا لبعض سويغات محتميا بلحافه فيُدْفئه، لكن هيهات من شتاءِ جبلِ (بُو زَرَّيعة) وجبلِ (ازْغَارَه) وهضبة (الأبيار) في واجهة البحر المتوسط بزمهريره ورياحه وصقيع الثلوج الطافية على صفحة الموج العاتي..

تقلّب كسوة العيد.. تتمم : يا له من مقلبٍ حُرِمْتُ مع زملائي من كشخة ذلك العيد لنجمع للآجىء (البوليزاريو) كسوة العيد هدية!!

كان لباس الأستاذ اللّاجئ كارثيا يجمع كل الموضات في آن واحد : بناطيل من موضات السينما الصامتة.. ألوان غير متناسقة.. لباس شتوي يلبس معه (صندلا) صيفيا..

ترغب كنزة مع زملائها في (السّيكشن) مساعدته، فشتاءُ الجزائر قارس كثيف الثلوج ، واللّاجىءُ ليس معه ما يحميه من ذلك.. ليس له (أمبريلا) تحميه من الثلوج..

لم تكن تعلم آنذاك أنه تَهَامِيٌّ ولا يحتمل اللبس الثقيل..

يفكر طلابه كيف يساعدونه..كيف يكسونه لباسا شتويا يقيه البرد
دون إحراجه وجرح مشاعره..

العيد على الأبواب.. فرصة مواتية للهدية والأستاذ قدره عالٍ
وعزيز على طلابه..

يجتمع طلاب (السَّكْشَنُ)..تتجدد (كنزة) معهم..(يَقْطُون) - يجمعون
- مبلغا تبرعا كل حسب إمكانياته..تُكَلَّفُ (كنزة) مع اثنتين من
زميلاتها لشراء البَدَلِ وجزمة جلد وجزمة رياضة من أفخم
محلات الماركات، ويكلف زميل من (بني مَزَاب) في (غرداية)
بإحضار أفخم (فَشَابِيَّة) من الوبر باهضة الثمن..

ليلة العيد عند انتهاء المحاضرة تقدم ثلثة من الطلاب إلى الأستاذ
يقدمون (قَدْر) العيد للأستاذ اللاجئ:

- يا شَيْخَ قَدْرِكَ عَالِي وَأَنْتَ فِي مَقَامِ وَالذَّنَا وَخُونَا لِكَبِيرِ وَإِخْنَا فِي
عُرْفُنَا نُكَبِّرُ وَبَلْكَبِيرِ وَنُكْسِيوَهُ فِي الْعِيدِ الْقَشَابِيَّةِ وَالْبِرْنُوسِ تَع
لُؤْبَرِ رَمَزِ الْقَدْرِ الْجَزَائِرِيِّ ، وَفِي هَذَا الْمَظْرُوفِ قَدْرِكَ تَعْ عَشَا
العيد، فَعَرَّضْنَا لَكَ وَجْهَ رَبِّي لَا تَرَدَّنَا..

- وأنا قبلت الهدية يا أبناء الجود والكرم وبلغوا شكري لكل
زميلاتكم وزملائكم..

وسأحتفظ بهذا القدر إلى الأبد..

أخذ الأستاذ اللاجئ القدر الذي أسهم به كل طلابه ومعهم (كنزة) ،
 وبقي يلبس ذلك اللبس الشتوي طول إيفاده في الجزائر وقرّر
 الرحيل به إلى دياره..

في طريقهما إلى مطار (هوّاري بو مدين) يترك وراءه كل
 الذكريات.. خلفه خصالٌ وشيّم طلابه وطالباته ، ومعه (كنزة)
 ومن شايِعهم من الأقربين.. خلفه كلُّ الجمال ، وأمامه أشلاء
 الضحايا في المطار الذي فجّره الإرهابُ ، وفي خضمّ كل هذا وقفَ
 متّجهاً إلى (القَصْبَة المحروسة) المتربّعة على هضبة الخليج
 منشدًا:

أَكْرَمَ وَيَعْقِبُنَا عَلَاكُمْ زَاكِمِ الرَّعْدِ
 وَاللَّهُ يَمَسِّيْكُمْ مَسَايِ الْخَيْرِ وَالسَّعْدِ

إلى ديار ألمع

جدة..مطار الملك عبد العزيز..

كانت خطوات (كنزة) نحو الحرية وتحريها في رحاب العباءة ،
كانت في ذلك الصباح البذيء الذي استيقظ شاحبا..

مواقف مطار (هوارى بومدين)..

أحزمة العشب الأخضر..

والريح بعيون غريق مجنونة تشهد السماء تهوي..

دموع الوالدة عند الوداع تزيد ملوحة ملح الأرض الذي يبتلع
دماء ضحايا تفجير المطار بالأمس..

تخطو (كنزة) نحو بوابة المطار مع زوجها..

تركض للالتحاق بقدر جميل، لتلقى اللحظة اللامعة، والصوت الذي
يمنح الحياة في ذمة زوج..

قاعة الركوب المكتظة ببياض المعتمرين..

تلبياتهم تراتيل محبوب..

نور الابتهالات ونسيم الأكوان..

كل هذا كان يزفها إلى أرض الحرمين..

لم تكن (كنزة) تهتم لتلك النظرات التي كانت تطوقها بوابل من
الإشمئزاز والتشاؤم.. نظرات العجائز.. نظرات الرجال بلباس
الإحرام..

كانت الوحيدة التي يكسوها سواد العباءة الشاذ في ملا كل ذلك
البياض، فارتداء الأبيض للعمرة والحج هو من بقايا العادات
الأندلسية التي لا زالت راسخة في الجزائر..

الكل في قاعة المطار يبتعد عن (كنزة)..

عجوز جريئة تقترب منها :

- غلاش يا بنتي تَقُولِي على روحك بَلْكَحَلْ وأنت رايحة لْبَيْتِ ربي
وقبر لِحَبِيبٍ!!??!!

- أَلَا ياللاً الحَاجَّةُ أنا رايحة مع راجلي لُدَارِي..

- إيه أنت عروسه جديده..

إيه يا بنتي الطفلة زَرِيْعَةُ كلِّ بِلَادٍ..

ربي يَزِينْ سَعْدَكَ.. بِالصَّحَّحِ يا بنتي نَحِي لِكَحَلْ،

ما تَدْخُلِيْشْ على ناس دارك هكذا تَقُولِي عليهم..

تبتسم (كنزة) للعجوز دون نقاش..تبتعد العجوز حتى لا يصيبها
شيء من الفأل السيء من السواد الذي ترتديه (كنزة)..

تحلق الطائرة..

تلتقي كنزة بالسماء..

تكاد أن ترى الكعبة تلوح لها من أعلى كل قمة جبل شرقي..

سحب..

نجوم..

سديم

كلّ هذا تجره الأقدار نحو كنزة..

تجزّ مقدمة الطائرة الغيوم..

تنساب مغزليا في أروقة السماء 6 ساعات..

تحط في مطار الملك عبد العزيز بجدة..

تخطو (كنزة) نحو البوابة، لتلقى المدينة..تلقى أمانيتها المفقودة
خلال الأيام المحبطة للإرهاب، وتتلاشى شيئا فشيئا صور الموت
والاغتيالات..

إحساس مرهف بتحرر قوامها تحت ظلال العباءة السوداء
المخملية..

أخيرا (كنزة) تُحرر جسدها من بدلة الكشّاف والجندي الذي صبّ
فيه (سي عبد القادر) والدها (المجاهد الضابط في صفوف جيش
التحرير الوطني) طفولتها وأنوئتها وصبأها..

العباءة السوداء غسَّقُ فسيحٌ يحرر جسد المرأة الصغيرة من قيود
اللباس الرجاليّ الذي كان يخنقها..

هي اليوم نجمة يطلقُ لها دجا العباءة ليلا رشيقا مزهرا نحو
ضفاف جدة.. ترفل في العباءة..

تغادر أياما رمادية - سلبتُ منها لباسَ النساء - نحو غد يلوح لها
ببشرى تستعيد فيه طفولةً سُرقتُ منها..

هي اليوم طفلة تحت العباءة..

أنثى في ظلال العباءة..

سيدة وقور تحت العباءة الشاسعة التي تسع كل أحلام الطفلة
الصغيرة التي تحلم بلبس الحرير والإستبرق والدانتيل..

كل الفضاعات المكيفة والمسخرة لحرية المرأة في أرض الحرمين
تعدّها بتحرر كامتداد قصيدة..

تلك البيوت المريحة..

الأقسام النسائية التي تحتضن سمرات السيدات بكل راحة تهديها
وعدا بالتحرر..

تتذكر جدتها للاً (الضاوية)..

الجدّة: (أشششتْ أهذرو بشويّة يا بنات كايّن الرجال قُدامنا)..

(كنزة) ستّجهُ إلى الجنوب في الأرض الطيبة انطلاقا من (جدة)
فراشة تحومُ على حوافّ التحرر:

البيت المكيف للمرأة..

الإدارات..

المدارس..

الجامعات..

الأسواق..

قاعات الأفراح..

الأمن والأمان الذي يكفل لها أن تحيا سيدة لا تدفن فيها
أنوثتها.. طفولتها.. صباها..

لا أحد بعد اليوم يُخرس أصوات (كنزة).. قهقهاتها.. لهُو الأطفال
الذي أقصيت عنه..

فساتين السهرات التي لم تلبسها بحكم "لا يبدين زينتهن" ..

كل فضاء السيدات في عالمها الجديد سُخرت لها ، ليحيا جسدها
حرا طليقا من حصار الألبسة المصفحة التي فرضها عليها والدها
وجدتها ومدرستها لأنها بنتٌ في مجتمع رجولي..

هي الآن حمامة تحلق في آفاق أرض الحرمين سيدة حرة ترفلُ
تحررا تحت أفياء العباءة التي تحفظ لها ملامح الأنثى، وتكفل لها
أدميتها..

امرأة لن تجبرَ على التنازل عن أنوثتها..

كنزة تتحرر..

تتحرر..

تتحرر..

تُلقي بلباس الجندي وببدلة الميدان من الطائرة ..تلقى بكل
المسؤوليات التي أثقلت عاتقها وهي طفلة..

تحيا على قيد العباءة روضةً تُعْتَقُ فيه جسدها من قوالب لبس
الرجال لتحيا سيدهً أنثى في كنف عباءة وزوج ممتدِّين إلى ملكوت
التحرر..

سماءُ جدة..

(كنزة) مترفة بالأمن والسكينة تحت ظلال العباءة بين أسراب
المعتمرين في المطار يتجهون نحو الباصات..
مع الخطوات الأولى خارج المطار حلمها كان متواضعا تستشْفُهُ
مِنْ أرض الحرمين ، المملكة العربية السعودية..
لا تزال (كنزة) تصغي إلى صدى التفجيرات عبر أبوابِ وجدرانِ
ووحوشِ سوداوية مأكثة على نهر دموي متعرج في حناياها..
أنظارها تلاحق المعتمرين الذين يحملون ذات الأسي..أقدامهم
المتزنة قدمت من أرض المليون شهيد حاملين أسي الأرض
المستعجلة للخراب..

كنزة مثلهم تحمل هاجس تلك السماء المنطفئة والبحر الرمادي..

كل شيء خلف كنزة كان يتلاشى..

هيبة القمم كانت تفقد بريق ثلوجها عند حواف المنازل التي
يبتلعها ظلها مثقلةً بأحداث الضحايا..

غرف تلك المنازل دون وغد مهاد.. دون غد.. وكأن الجزائر تأخرت
فجأة عن الحياة..

هي ذلكم الزمن الدموي للإرهاب..

لم تعد أرض الأحرار تهدي لأبنائها إلا دروب خريفٍ مع كل
اغتيال ومع كل تفجير..

وريقات غضة تهوي في بركة ماء عفن من دم حفرتها أقدام وأيدي
حاقدة..

تخرج كنزة من المطار برفقة زوجها الشاعر "بُو نحاف"..

سما (جدة) في هذا الصباح ما زالت ملونة بالشفق والمساءات..

تلتقي كنزة بالشمس في مدارها..

الدم الذي لا يزال يغطي جراحها التي لم تلتئم بعد من جراء تفجير
في حياها..

هذا الصباح الحجازي يُحوّل الدم إلى نسغ زهرة تلفها العبادة كظل
منزل يشعرها بالسكينة..

(جدة) تهدي كنزة ليلا شتويا يروي لها أساطير فقدتها..

تصغي إلى العشب ينمو، والأرض الطيبة التي تفتح لها ذراعيها..

شعاع الشمس ينحني لها ترحيبا..

يناجي قلبها الحزين..

ينشد لها لحن كل المخلوقات وتراتيل المعتمرين وتلبيتهم نحو مكة..

تراتيل وابتهالات تتغنى بسيرة الأرض والسماوات في هذه الأرض المقدسة..

تتعلق عيون كنزة بباصات المعتمرين التي تختفي شيئا فشيئا نحو بيت الله..

هي غير قادرة على أداء العمرة من آثار الجروح وذراعيها المحترق من شظايا ذلك التفجير..

ما زالت تحتفظ بصورة ذلك الطفل وحيدا يبكي على أرصفة الشارع ينحب عند أشلاء والديه.. يختلط بكأوه بقهقهاته الهيستيرية التي تخترق سمعها بمرارة عواصف عتيدة مقيبة..

شهداء المدينة هم مزيد من الشهداء يعرج بالجزائريين إلى الخلود الذي يواصل مداراته نحو آفاق دون نهاية يجرف رمادهم في أرض الجزائر..

أشجار الحيّ تتحول بغتة إلى أصنام مجنونة تنوح في مرثاة الضحايا، وشبح الموت يعود إلى الموت يحاول الفرار من طلقات الرصاص العشوائية على المارة في شارع (ديدوش مراد - العربي بن مهدي) ، والمنية تستعطف المجازر الجماعية في قرية (بن طلحة) و(بني مسوس)..

تلملم كنزة ذراعها المحترق تحت كنف العباءة..

يسكنها شعور بالاطمئنان والسكينة لم تشعر بهما منذ عهد السيارات المفخخة والأحزمة الناسفة للانتحاريين عند أبواب الجامعة المركزية في الجزائر العاصمة..

سواد العباءة لم يعد بذلك الشؤم في عينيها، فهو يأخذ من البدر المظلل للكعبة لجينّه وشفافيتّه وبياضه.

في هذا الصباح لم يعد اللون الأسود المشؤوم في الأعراف الجزائرية لونا يرتبط بالجنائز التي تخرج من الكنيسة الكاثوليكية في حيّها..

الأسود في هذا الصباح امتزج ببياض موكب المصلين في يوم جمعة في أفنية مسجد (الخلفاء الراشدين) المقابل للكنيسة قرب بيتها.. يتلاشى شؤم هذا اللون كسراب يختفي في سماء حرة في مدينة جدّة الملونة.. وتمضي معه أجراس الكنيسة التي تزف الجنائز في حيها هناك : " الأبيار" ..

أول أسبوع في جدة تسترجع كنزة مذاق قطرة الماء عند أول رشفة لماء زمزم.. تصغي إلى صوت الحياة الرجراج.. أنفاسٌ جديدة تولد من الأفراح العتيدة التي غادرتها في مواقيت سواد الإرهاب.. وهي في القنصلية الجزائرية تُتمّ - رفقة زوجها - إجراءات التسجيل وفتح الملف.. بسمّة خجولة ودودة تستشف من خلالها لمعان ثغر الجزائر.. السّي " عبد القادر بن شاعة" القنصل العام يستقبلها :

- مَرْحَبَا بَكْ يَا بِنْتِي فِي دَارِكِ.. الْقَنْصَلِيَّةِ دَارِ (بَابَاكِ) وَهَذَا رَقْمِي
وَرَقْمِ أَهْلِي لَوْ شَعَرْتُ بِأَيِّ ضَيْقٍ أَحْنَا أَهْلَكَ هُنَا..

الكل في القنصلية يرحب ويبارك للزوجين..

احتفال جزائري بالشاعر و زوجته..

عند هذه النجوم المتألقة شعرت أنها تقطف كل الزهور الرمادية
من خليج الجزائر العاصمة وتلقيها في قفار الهجر التي صنعها
الإرهاب في الأرض الخضراء..

ما زال هناك أحرار في الجزائر لن يولُّوا أبدا..

تَمُضِي أسبوعها الأول في جدة.. تطلب من الشاعر أن يأخذها إلى
مشارف مكة في طريقها نحو مجسم المصحف تبحث عن الشجرة
التي قرأت عنها حيننا.. تكاد تراها.. تصغي إلى حفيفها يروي لها
(بيعة الرضوان في الحديبية)..

تنتشي آمالها في رحاب عباؤها.. جسمها الحر مترف في كنف
هذه العباءة.. تلتقي بالطريق نحو الحياة.. تلاقى سيدات عربيات
يرفلن في سواد عباوات بكل سياداتهن..

أسواق وإدارات وجامعات..

روضات لعالم نسويّ ينعم بالحرية والأمن والأمان..

ومع اقتراب المساء تتراقص روحها على الجزر المخملية لضفاف
جدة نحو بحيرة عطرة كلها تباشير..

أيام أولى في أرض الحرمين تتحررُ فيهار كنزة من مشاهد تدمي
العيون..

تستفيق جوارحها عند أكوام الزهور التي تحف شوارع المدينة حيث يمتزج النسيم بماء الساحل، وتمتزج المياه بالأرض، وأبعد من القفار التي ارتسمت في عيونها وآلام الجروح على جسدها، ولهب الحروق على ذراعها ، أبعد من كل ذلك ثمار غضة على شجيرات من ذهب تلوح لها عند اتجاه الجنوب نحو (الديرة) ، وإلى الأبعد نحو (جبال عسير)..مساءات فتية وقورة بلون غروب ذهبي قد رَوَّضت عندها (كنزة) كل العواصف العاتية ومآسي الإرهاب، ليتحدى جسمها الصغير المجروح الصخر والفراغ..

هي اليوم نهر لا ينتظر ريحا تنحت له مجراه، وعلى قمم (جبال عسير) تمضي الجراح كالسحب ليعبر النّو، ولتعيش (كنزة) تحت ظلاله..

تَغَطِّي.. تَغَطِّي.. تَغَطِّي..

من أزمنة أولى عند قمة الطور الأزلي - على قمة جبل تَهْلَل في عسير- إلى عمق أودية (الأمع) تطل (كنزة)..

نصيفها ميت تحاول تجاهله..تحاول أن تتناسى آلام جراح ذراعها المصاب في تفجير في سوق حيها..

عبر السديم الذي يلف جبل (عَسَّان) - في عسير - نصيفها الآخر أنيق مزهر يحاول أن يجعل من زمن الإرهاب في الجزائر ماضيا

دون ذكرى.. تحاول إسقاط ذلك المشهد المرعب من ذاكرتها
المنهكة..

جسدُ السيدة (أورايس) أستاذة الأدب الفرنسي ملقاةً على عتبة
(مسجد الخلفاء الراشدين) مغتالةً بوحشيةٍ في حيها في (بلدية
الأبيار).. تحاول دون جدوى أن تروض الذكرى المقيتة المتعفنة
لترجعها للنسيان..

صور مجزرة (السبع عشرة معلمة) في (سيدي بلعباس غرب
الجزائر)..

تتناسى.. تتناسى تلك الاغتيالات والمجازر الجماعية والتفجيرات
الانتحارية التي أغرقت الجزائر في برك الدم..

تسترسل نظراتها عبر الضباب المنسكب حلزونياً من أعلى (جبل
تهلل) على منحدرات (عقبة أمصماء).. يلوح لها إلى البعيد درب
الزمن العتيد للمزارع والقطيع في (رجال المع)..

ما أجمل هذا الأفق رغم الليل الذي يسكنها تحت تلك السماء
الرمادية والراوبي المغطاة بالركام هناك في (أرض الشهيد)..
الدروب الطينية دون مرّج.. أحرقته يد الإرهاب.

تستسلم إلى ذلك الدفق من السكينة التي تملأ وجدانها.. هي تعرف
قبلياً ماهية هذا الإحساس.. السكينة والطمأنينة.. ذات الشعور..
إسقاطٌ يلملمُ الروح ويدفنها من روايا الحجاج والمعتمرين عن
أرض الحرمين.. هي تعرف ماهية هذه السكينة طفلةً تستعرض
المشاعر المقدسة عبر لعبة التلفزيون البلاستيكية، تلك الهدية
المألوفة من الحجاج.. تشعر بهذا الشعور كلما كانت تطل من

شرفة بيتها على خليج العاصمة حين يطلع قرص الشمس من خلف جبال (الخِشْنَة) قادمًا من الشرق من أرض الحرمين..

أهازيجُ وطروقٌ توقظ حواف الأودية في (ألمع) ألمع شاعرها.. أرض تبدو لها في سباقٍ لاحتضانها بخطوات حازمة مرتابة.. تحاول أن تتحرر من خوف كل الأوجاع التي تنخر حناياها، ومن خلال ذلك الموت الذي اغتال أحلام السماء هناك ترسم نصيفها الميت بألوانٍ هادئة وأساطير كل الورود..

على متن سيارة (الجيب) العتيق العم (قيس) مع الإخوان الصغار يصرون على تسليتها.. تمشية العصر... العم (قيس) في حوش البيت مع أشباله على موعد مع (كنزة) لتعريفها ب(أمبلد).. بالدائرة.. بالأرض.. بالسدر.. ب(أمبراء).. ببقايا عروج الشجر.. البن.. العتم.. الأثب.. هنا لكل شعب اسم ولكل درب ترابي قصة يرويها لها فخورا معتزا بأرضه يسلي (أمبرة) عن بعدها عن أهلها.. سوق (الدرب).. سوق (محاييل) سبت (صلب).. هنا (قرن العريان).. وهنا (أمجبلين) - درب الجمال- وهنا (خط فايح بز يعقوب).. وهذا وادي (سمرة) العتيد.. تكاد (كنزة) تشم رائحة خبز (المعزبات) وأريج قهوتهن.. معالم وأحداث حول أرض (ألمع) (ومواقع يُعرف (حُرمة أمولد) عليها.. (جيب) العم (قيس) - التويوتا- عالم طفولي ساحر.. اللعب.. الغناء.. المزح.. القهقهات.. الخصام.. وحتى البكاء مشروع للأطفال.. يمنح العم (قيس) شرعية الطفولة لأطفاله ، ومعهم (كنزة) التي تُعتق الطفلة المأسورة داخلها.. هذه الطفلة التي زج بها (السّي عبد القادر) والذها في قالب الجنديّ المحاربِ وويلات الوغى..

تعود (كنزة) إلى طفولتها تعني.. تقهقه.. تركض وراء (لولوة) الصغيرة و(فارس) و(أوس).. تطلق دموع (كنزة الطفلة) موجا مستنفرا عند منابت الرموش، فليس عيبا على الأطفال البكاء في نواميس العم (قيس)... كلُّ هذا في رحلات العم قيس..

في رحاب العائلة الكبرى تكتشف مع الإداريات والمدربات والممرضات من صبايا العائلة عوالم وفضاءات نسائية مُترفة..

تكتشف عالما نسائيا مخمليا.. كل شيء رُتبَ لهن :

ساعات العمل.. النقل.. الأمن.. الراحة.. والمرافق العامة في هذا الوطن..

في هذا الوطن السيدات لا يركضن وراء عقارب الساعة، ولا يركضن وراء المواصلات ، ولا يُستنزفن. ليس عليهن أن يكنَّ رجالا !!

كل الظروف هنا تدعو (كنزة) إلى أن ترتاح وتُحررَ حواء التي أسرها والذها المجاهد في قالبِ رُجوليّ ، لتطلق حواءَ حرةً في هذا العالم النسائي المرفّه بخدمة أبٍ وابنٍ وزوجٍ وأخٍ وإدارات... (كنزة) اليوم ستلقي بالرجل الذي كان عليها أن تتقمصه.. بعد اليوم لن تكون فرسا تنام واقفة، ولا شجرة عليها أن تموت واقفةً ككل أبناء جيل الاستقلال وحتمية القدر الذي يعدُّهم بالاستشهاد والنضال..

بعد اليوم لن تكون ذات المعطفين معطفٍ تُخفي تحته حقيبة المُعلّمة ودفاتر الكاتبة.. تخفيها من رشاش زميلها (شفيق) ذلك الولد الودود الذي تحوّل إلى (أميرِ جماعةٍ) ليحكمَ عليها - وعلى أمثالها - بالحدّ، لأنها صاحبة قلم ، وتعلّم في مدرسة الطاغوت

كما أقرّ مع جماعته..لن تلبس بعد اليوم المعطف الآخر الذي تعلق عليه (شنطة) التمويه من جماعة (الهجرة والتكفير) التي أخذت مقرا لها مكتب مجلس الحيّ..ستتخلص من هذه الشنطة الملعونة التي تخفى فيها سلاحا أبيضاً وبخاخاً مخدراً وحبوباً سامّة ، فقد تضطر إلى أن تدافع عن عرضها حتى الموت لو تعرضت للسّبي، وإن سُبيت في أحد كهوف جبل (بُو زَقْرَة) حيث تؤسّر السبايا ، وإن سُبيت فعليها أن تتخلص من حياتها بتلك الحبوب، فابنةُ المجاهد وابنة الشهيد وابنة الشرطيّ والعسكريّ والمعلّمة والصحافية والكاتبة كلهن طواغيت حُكَم عليهنّ بالحدّ..

ستتخلص من شنطة الموت، وتقتني شنطةً تضعُ داخلها عطرا وقلم (روج) و(منيكير)، فهي اليوم حواء أنثى سيدهُ في ظلال زوج تخطو خطواتها الأولى نحو الأنوثة..

تحررت (كنزة) من كل الرجال الذين كان عليها أن تكونهم..الجندي..الشرطي..الكشاف..

قررت أن تلقي بكل المسؤوليات على زوجها الشاعر (بو لحاف)..
تصر على أن توكله في كل أمورهما داخل المملكة وفي بلدها هناك..

في مقر كتابة العدل في (الشّعْبين - مقرّ المحافظة) الكلُّ على قدمٍ وساق لخدمة الشاعر وحرمة المنقبة..عالم آخر يدهش (كنزة) :
كل الإجراءات تتمّ في مواقف الإدارة دون أن تنزل من السيارة..رئيس كتابة العدل والشهود والموثّق..هنا تبدأ كل المفارقات التي تصدم (كنزة)..الكل مستديرٌ نحو الجهة الأخرى!!

وعلى صورة الهوية (لاصق) وضعه أحدهم حتى لا يُكشف
وجهاً:

- أنت السيدة فلانة؟

- نعم.

- وكّلت زوجك فلانا وكالة عامّة شاملة على كذا.. وكذا؟

- نعم.

أمضي هنا على الصّك..

- طيب.

- فلان وفلان شهدتما على هذا؟

- نعم..

انتهت الإجراءات..

ينطلق (بو لحاف) مع (كنزة) نحو البيت :

- خلاص خلصنا الوكالة؟

- أيوه خلاص خلصت كل الإجراءات وهذا صك الوكالة..

- أيّاه بهذه البساطة؟

بالصّح هذو ما يخدموش خدمتهم صح، ولا واحد شاف وجهي،

وما تحقّق من أنّي فعلا الشخص المعني!!!

- لا..لا.. عادي هنا الكل يعرفني والمسألة ثقة..

- أيّاه بالصّحّ أنا ما ارانيش كامل مقتنعة.. ماشافونيش.. ما
تأكدوش!!!

- ولا يهّمش كل شي تمام..

صمتت كنزة مستغربة مندهشة لكن الأهم لديها أنها علّقت كل
المسؤوليات على زوجها، فكم كان يروق لها أن تكون حُرمة
مخدومة..

تتنقل (كنزة) هنا وهناك مع الشاعر المفتون بأوديته وشعبه
وجباله لتستوحي روحه وحبه من عطر الثرى الذي استنسخ منه،
وليغرسها في تهايمه..

هنا وهناك نقاط التفتيش..

تقترب السيارة من نقطة العسكر..

تُخرجُ كنزة وثائقها من الشنطة..

ترفع النقاب عن وجهها مستعدةً للتدقيق والتفتيش ومطابقة
الهوية والصورة بوجهها..

في حركةٍ جماعيةٍ سريعةٍ مفاجئةٍ يصد العسكر نحو الجبل مع
إشارة فسح المرور للشاعر..

تستغرب كنزة كل مرة من هذا الموقف:

- أيّاه.. شكلهم كلهم هنا في ديرتكم ما يخدموش خدمتهم صح لا
في كتابة العدل ولا عند نقط العسكر!!

- لمة؟

- كيفاش يشهدوا بلا ما يشوفوا وجهي ؟ وهذول العساكر يصدون للجبل وما يتأكدوش مَنْ تحت هذه الغطوة ، وما يتأكدوش وما يطابقوش وجهي بالصورة على الهوية!!!

- عادي.. عادي.. كلهم أبناء عمومة وربع والكل يعرفني هنا..

- بالصّح رانا في زمن الإرهاب.. في الجزائر كل العمليات الانتحارية كانت من متخفيين تحت (الحايك ولعجاز) والجلباب والنقاب..

- لا. لا. الحمد لله هنا أمن وأمان..

- إن شاء الله.. لكن هذا شغلهم لازم يكونون صارمين في التفتيش..

تمر الأيام..

كنزة مقتنعة من أن هذا تقصير في الواجب واستهتار وإهمال.. وهي لا زالت تضم ذراعها المحترق من جراء التفجير الانتحاري في حياها من منقب تحت جلاباب ، وكل الانتحاريين كانوا متخفين تحت (الملاية والمُحِفَة) والجلباب :

تفجير المطار، وتفجير المدارس والحافلات والمرافق العامة...

في (رجال المَع) تنساب الأيام الأولى عذبة مع كل هذه الأجواء.. وفي إحدى المساءات في تمشية العم (قيس) والأشبال ينفجر بركان عنيف ، وتهب عاصفة مدارية داخل سيارة (الجيب التويوتا)..

الجيب عند النقطة العسكرية..

تمارس كنزة نفس الطقوس استعدادا للتفتيش..
 يقترب الشباب العسكر من الجيب لتحية العم (قيس)..
 ترفع (كنزة) غطوتها..

يفرُّ العساكر هارعين مستنفرين نحو الجبل..
 يصيح الأشبال والصغيرة لولوة في وجه (كنزة):
 تَغْطِي..

تَغْطِي..

تَغْطِي..

تُغْطِي لولوة والصغيرُ فارس وجهَ زوجة الأخ بكيسِ
 الحلاوة.. يكتمان أنفاس كنزة بكيس البلاستيك الأسود..
 الأخ الصغير الذي يقود السيارة يكاد أن يخبط في الجبل..
 العم (قيس) في المقعد الامامي:

- ما بكم نفرتوا بامبرة؟

- تكشفن يابه.. كشفن وجهها يابه..

- كنزة:

واش كايين واش بيكم؟

هذي نقطة تفتيش ولازم يفتشونا كلنا!!

- العم (قيس):

- لا يا ولدي لا عاد تكشفين ، ليس علاش كلهم عوالنا قد دروا
أنش حرمة وُلدي..

الأولاد في غليان وثورة :

- قَسْمْ لو اقتربَ واحدٍ منهم مِيشْ أن أدقَّ وجْهُوَهْ..

نقاط مرور ..

نقاط عساكر ..

عبر الأيام لا أحد يدقق، وإن دققوا قليلا طلبوا سجل العائلة في
حياء واحتشام على بعد من نافذة السيارة حيث يجلس (بو لحاف)
غاضين النظر ولم تستوعب كنزة هذا أبدا..

الإرهاب سرطان ينخر الوطن العربي..مستنقع فظ يملؤه المطر
القدر والعفن الملول..

امتد...امتد..إلى أرض الحرمين.. رُفِعَت الأيادي إلى السماء..
دعوات الأمهات..اللهم احم هذا البلد الأمين وهؤلاء الشباب..
استوعبت كنزة قيمةً عليا راسخة لدى رئيس كتابة العدل في
الشعبين والشهود والعساكر حين استشهدَ (أبو يُمنى) الشاب
العسكري عند نقطة (الحمراء) جنوبيّ مدينة (الدرب) برصاص
إرهابيّ انتحاريّ متخفّ خلف النّقاب..فهمت كنزة أن هؤلاء
النجوم من العساكر ليسوا مستهترين ولا مهملين..

هم بين الشهامة والشيمة والواجب موعودون للشهادة من أجل
الوطن والحرمات..شهامتهم.. أصالتهم..قيمهم..خصالهم.. سجايا
تقدسُ الحرمات..وجه امرأة..حياة وحشمة.. هكذا كان (أبو يُمنى)
في نقطة (الحمراء)، ومُستقبلاً سيكونُ الإخوان الصغار- أشبال

العمّ قيس - نمورا عربيّةً كأبي يُمنى بين الشيمة والحياء
والواجب، وشعارهم على لواءٍ يُعلونه ينسخون عليه بدمائهم:

الحرّات..

الحرّات..

الحرّات..

حادثة (امّ عيس) ومعركة الحناء 1

العمّ (قيس) وأشبأله يحملون على عواتقهم تسليتها لبُعدها عن أهلها ووطنها بعيدا برحلاتهم المسائيّة ، بينما (وَمِي فاطمة) والدة زوجها لها نوااميسها الأخرى التي تغرسُ بها (حُرمة امّ ولد) بين الأهل والقبيلة..

ذات فجر من تلك الأيام من قُدومها تطل (كَنزَة) على الأرجاء المحيطة بالبيت:

الشيطان.. (جبل امّضحي) ..(امّ عودة) ..(امّ ذوابة) تصرُّ على الاخضرار تحديا للريف الذي رحل عن القرية..

تنصت إلى صعيق السكون المدوّي الذي يوحى للشجر نحيبه واحتضاره .. أشجار (الحوش) كانت تموت واقفة تخبر بعضها بحفيف خافت.. كلمات دون نهاية كفجر نائم أقل ضياؤه.

البرتقالة.. الليمونة.. شجرة لمشيّمشه.. شجرة مسك الليل وسلطان الغابة.. و(نوار لعشيّة) في (حوش البيت) تعبت بها (امرّبحان - القُرود) وتصب عليها لهوها الملول، بعد أن أهملها الشاعر (بُو لحاف) حين جاء بها من جبال (الوَنشريس في الجزائر).. تخبر الشجرُ بعضها كلمات بلا نهاية : أن الشاعر

والراعي والريف تخلوا عنها وأسلموها إلى قدرها مع باقي
أشجار القرية..

- يا عمّة وبنّ راهو الغنم والراعيه والفلاحة؟؟؟..

- كلهم رقودو رقودو..

صوت السيارات والصهاريج في أسفل الخط يُوحى بشيء من
الحياة التي تصنعها العمالة : السواق السوداني والبنغالي
وغيرهم من الوافدين..

تبحث (كَنزَة) ما حولها - في الدروب الترايبية الخاوية التي لن
يأتيها أحد - عن القرية.. عن القطيع.. عن الراعية التي وعدّها بها
الشاعر..

هناك إلى البعيد قطيع العمّ (ذيبان) يقبع أسيرا في إقامة جبرية
يصنعها له العامل الهندي تحت الشبّك.. يُعتقه لوهلة ليذّله بحفنة
شعير أستراليّ مهجّن.. القرية الصامتة تلاقي غيابها.. تنوح في
مرثاة حاكها لها زمن الطفرة.. لكنّ مع إشراقة فجر هذا اليوم
(وَمِي فاطمة) وأثرابها مصرّات على صناعة موسم الفرح والحياة
- (حرمة امولّد):

ترنن..

ترنن..

ترنن..

صوت (مهراس) فاطمة يدق قبل أذان الفجر.. يتردّد صداه بين
(جبل قيس) و(حصن شهران)..

- ما بك يا عمّة ما قد أذن للفجر؟

- يا ولدي ذا اليوم ميد نبرّه بأفقال ضحى..العرب يندون
لامقروغ..

- مرحباً بهم.

في سرّيّة تامّة وتأمّر مُحكم تستنفر (وُمي فاطمة) خالة (رحمة)
وخالة (زلفة) وخالة (نالة)، إلى جانب (أمّ إخوان الشاعربو لحاف)
وأخواته وشقيقته وبنات الأخت وصبايا من بنات العم والخال:

- الصبح زواج (عيدة ابّرة وُختي حصة) ميد نترلم .

- نترلم؟؟؟؟ تتمم (كَنزة) في نفسها : من بعد نستقصي لبنات
واش معنى نترلم..

جرس يدقّ.. باب البيت يفتح باستمرار..

يتحول سطح البيت إلى خلية نحل دوّوبة كلُّ خالة تدخل تحمل لفة
تسلمها في سرّيّة تامّة لـ (وُمي فاطمة) التي تضعها في خزانها
وتحكم إقبالها..

على السطح كل الروائح الأزلية كانت هنا:

أطياب .. سكب .. برك .. ريحان

شِيخ .. زرّ (قرنفل).. محلب .. حناء .. مهراس (وُمي فاطمة)
ومطحنتها الحجرية ..

أيّد مرتعشة تصرُّ على عزف لحن الحياة لتذلل نوم القرية ، وتوقظ
الصبح الذي لم يعد يهدي للراعية الضياء.. وجوه أزدية لم يُعتقها
سلطان الزمن الذي حفرها بتجاعيد تُزيّن كبرها وجوه رُصعت

بمناديلها الصفر، وامتطت وُزراتها لتصنع ربيع العروس
البربرية..

(وُمِّي فاطمة) منحنية تطحن حنّاء (كَنْزَة) العروس ، قطفته من
شجرة (الحَوْش) التي كانت دوما تصنع أفراح العائلة..

أناملٌ ضعيفةٌ مخضبةٌ بالحنّاء في موعد مع صبا العجائز
التهاميات.. أصواتهنّ الشابة.. أهزيج وزغاريد تتحدّى سُبّات
الوادي..

كل هذا كان على السطح ، ومن السطح إلى المطبخ ، إلى كل
أرجاء بيت الشاعر..

يمضي النهار.. يحلُّ المغرب.. حان وقت العشاء:

- أنتِ صليتِ العشاء يا ولدي؟

- أيوه يا خالا رحمه

- أرقِي يا ولدي إلى بشن فاقه وانتِ مضحية فكلِي ذا الحين..

هكذا أمرت (وُمِّي رحمة) ، وإلى أنتِ ظامية فاشربي. تأمرُ خاله
(ناللة) :

أنتِ ميد - الخلاي ، دَوْرَة المياہ - يا ولدي فادخلي ذا الحين،
ماعاد معش كيف تتحركين خلف.. تكمل العمّة (أمّ الإخوان)..

تحقق فيهنّ (كَنْزَة) في استغراب :

- ماذا دهاهنّ وكأهن يقرآن عليّ مزاميرهن؟

ثلّة من صبايا العائلة:

- يا خاله يا خاله ، وقّع عليك الحدّ من العجائز.

بنات أخت وعمّ وخال وأخوات من الأب..وجوه فتية مشرقة
ناصرة ازدان محياها خلقا وخلقا ، لينتهي إليها الطهر في
استحياء يقتبس من نورها سجايها..حوريات حنطيات البشرية،
يرتوي السيل من سخاء أيمانهنّ ، ويرسو الليل على تموج
جدائلهن يختلس دجاه ..

في حضرة هذا الجمال تبحر (كنزة) بعيدا بعيدا إلى الشعر العربي
والغزل العذري في ذات الشعر الأسود الطويل وعيون المها..
تسافر عبر هذه الوجوه عبر سحنتها وشفافيتها إلى ملكوت الجمال
وسلطانه..

من خلف العجائز في نظرات متأمرة مع الخالة البريرية يُشير
الصبايا بأباهيمنّ :

- لا لا لا تقبلين يا خاله..

تتسلل أكبرهن توشوشها :

قولي لا قولي لا..

تدخل (أمي زلفة) أعتى العجائز في العائلة:

- يا ولدي ذا الليلة ميد نحنيش ونكعشش ، وبدينا لش بثوبن
عسيري ، ووزرة ومنديل أصفر وشيله مقلّمه ، ونحزمش
وتلبسين ذهبش وأمصابه وأمشرشش وكفّ وبناجر، ميد تبييضين
بوجيها في أمعرس عند العرب..

تنفجر إحدى الصبايا:

- لا والله يا جدّة ما عادت (موضة) هذي الحاجات ما باقي إلا العجائز يلبسونها..

لا يا خالّة لا تطيعينهم أنحم نزيّش..

يا خالّة أخذنا لشن مكياج ومناكير من الماركة وفستان (سواري) من جدة..

ويدخل الصبايا والعجائز في صراع أجيال:

- انقلّعوا من هنية جنن جنكم ميد امبره تغدي لامعرسن برجليها
ويديها بلا حناء مثل امسعلاة!!؟

تقول زوجة الجد. وتُكمل :

- أنتو ميد تاهبون بها من صهازكم وتصهرونها ببويه وتخربون
جلدها!!؟

تستمع (كنزة) بهذا الحب كله .. هذا الاهتمام كله.. هذا الصراع اللذيذ من أجلها.. تشير للصبايا اللاتي كانت تتواصل معهن بكل سهولة بلغة عربية وسيطة وظيفية يفهما كل الشباب أنها راضية بقصاص العجائز..

حادثة (امّعس) ومعركة الحنّاء ٢

في رحاب المناديل الصفرة والوُزرات المقلّمة بألوان الطيف وعصائب الطيب جبال (شَيْليَا).. جبال (أرَيْس).. جبال (يَمّا قُورَايَا) ، وجبال (إيفري) والتّل.. جبال الأطلس الكبير بشماليها كانت هنا تزفّ (كَنْزَة) ..تحملُ لها تباشير العشرة الطيبة..

في رحاب حجرة (وَمِي فاطمة) المزيّنة بيدها المرتجفة (بالزّيَان). كل الألوان تسبح في عيون الحوريات التسعينيات لتنتشي عند ظل وهج عيونهنّ المشرقة..كلُّ شيء كان متمازجا من جبال (الأوراس) وجبال منطقة (القبائل الكبرى والصغرى) و(وادي مزاب) في مهد الواحة، إلى جبال عسير:

الوزرة.. المنديل الأصفر.. الحنّاء القاني ..الزّيَان ..رائحة المسك والغنبر والجاوي..

تقاسيمُ أرض رسمتها جبالٌ هناك في أرض (الأمازيغ)

مع (جبل قيس) هنا في (رجال المع)، لتصنعاً معاً لـ(كنزة) قدراً
 في هذه الأرض الطيبة.. كل هذا التمازج، وكل هذا التشابه.. كل
 هذه الألفة القبلية، مع كل التفاصيل هنا وهناك هي قصة لا
 يصنعها إلا الأقدار الإلهية..

- عادي عادي يا(وَمِي فاطمة) ، سَوُوا اللَّيَّ تَحْبُوا: حنا ، مكعس،
 ثوب عسيري، كل شي، كل شي تحبوه إلا لبس الذهب الثقيل يدير
 لي حساسية في بشرتي ويسوي لي ألم في رقبتني..

- لَيْسَ غَلاشَ لَيْسَ غَلاشَ.. ما يَدْمِشْ شَيِّ .. لا تَفْضَحِينَا عِنْدَ
 العرب، احضري امعرس ونيلا لَوَحْشْ امْدَهَبْ دَهْنَا جَلْدَشْ
 بَصَلِيْطُنْ، وِعَمَزْنَا رَقَبْتِشْ بِفِقْسْ اِلى رَحْنَا مِنْ اِمْصَالَهْ..

تصرُّ خالاً (نالَه):

ياهُوَ دَهَبِشْ يا ولدي؟

كنزة:

- اَعْطِينِي شَنْطَةَ الذَّهَبِ يا (رِيعَه) - تشير كنزة إلى إحدى البنات-

- خذي يا خاله..

يقلّب العجائز في صندوق الذهب فلا يجدن ذهب العرائس المعتاد..

- ياهُوَ اِمْحِزَامِ وَاِمْرَشْرَشْ وَاِمْكَفَّ وَاِمْبَناجِرْ؟! هذي أسياخ تنك
 لَيْسَنَ ذَهَبِنْ ، تقول خالاً (رحمة)..

كنزة:

- كَيْفَاشْ هَذَا كَلُّوْ ذَهَبْ سَيْنِيَّ (signé) ماركة عالمية. شوفوا
 (داماس) (Damas) ((بولغاري) (Bulgarie)) (كرتبيه)
 (Cartier) كنت كلما أروح (مارسيليا) و(فلورانسيا) وبلدانا في
 أوروبا آخذ دورة في شغلي أشتري ذهب من هناك.

جَبَّةٌ من ضحك الصبايا، تتخللها صيحات العجائز كل واحدة
 بأمر..ياهُو (أبو خليل) فضحنا؟!!

كنزة :

- شكون هو بو خليل؟

- بعش..بعش..

قصدك مولى بيتي راجلي؟؟

- إيوة إيوة هو امجني..

- بالصح راجلي ما واسموش بو خليل!!

- خلينا ذا الحزة من اسموه..

- يا ربيعة يا علوة يا لولوة، كل واحدة تقول لبعلها يبدي بذهبها

(الخالة رحمة تأمر) ..

- خالة زلفه:

يا ولدي ما عاد يمدينا ناخذ لش ذهبن، الصبح تلبسين ذهب امبناه
 في امعرس، خلف الصبح خلي سوق ذهبش في امديره تا كنتي
 تداومين فيها .. وينشر بش رجيش ودقاقن دقوه لسوق امذهب

امْصِدَاقُ ذَا فِي (مَحَايِلُ وَالذَّرْبُ) وَيَاخِذْ لَشْنُ ذَهَبِنُ مِثْلَ ذَهَبِ
العَرَبِ.

تبتسم (كَنزَة) راضية..

صوتُ والدِها الجَهْوَرِيُّ يجشُّ داخلها صداه يملأ أرجاء الحجرة
التي تعج بالصبايا والعجائز، ليطغى على غطاريفهنّ وشدى
طروقهن.

وصاياها :

- يا ابنتي إذا اخترتِ يوما أن تعيشي بين قوم، عيشي عيشتهم
.. أحببهم كما هم ، لا كما تريدان أن يكونوا.. لا تُرهقيهم بتصورك
القبليّ لهم، فهم غير مسؤولين عن ذلك.. لا تقولي: (فصلوا لي
على قدي) .. البسي ما يلبسونه، وكلي واشربي من زادهم..
أحببهم فسيحبونك..

هذا الأب الحكيم (المُسبِّل) في ثورة التحرير، الرجل الذي رحل
كثيرا وجاب العالم في حرب الهند الصينية ..مظاهرات 1945..
ثورة التحرير.. ويلات الاستعمار.. الأسر والتعذيب والمنفى.. كل
هذا ليصنع بنتا حرّة تحسن الاختيار، وإذا اختارت فهي مسؤولة
عن اختيارها إما النجاح أو الموت..

- خالة زلفه :

أنتِ رَقْدِي يا وُلْدِي؟

- آه لا لا ما رَقْدْتِش.

- زلفه :

ذهب امعروس غير ما هنية يا ولدي ، كيف رَوْحْش رَجْلِشْ بلا
ذهب؟!..

- لا يا خالهُ ، والله مولى بيتي ما قصر معي ، كان عندنا إرهاب
وتفجيرات وموت أبرياء وحداد وكل الأفراح عُلقَتْ، فما كانت
الأجواء مناسبة كي أشتري فيها حاجات العرايس..

- تمّ تمّ ..الى راح من عومثوه علانا الفجر خلف سريثوه ورينا هو
شغلوه ..يتفق كل الخالات..

- يا لله ألهينا، امحنائي وامكسن ليسن تزين بالفال
بدأت مراسيم الحناء والمشطة :

مقصّات.. شطرطون.. أطياب.. مناديل صفراء وحمراء قانية..
وحناء منقوع في دوا حناء قوي الرائحة .. روائح وموانع تصنع
مواسم الزهو..

تستسلم (كنزة) لمشرحة العجائز ، كل منهن مسؤولة عن جزء
من جسمها : رأسها .. يديها.. رجليها..حتى الأخت الصغرى من
الأب (علوة) كان لها نصيب من هذا الجسد..الطفلة الصغرى التي
لا تتعدى الثلاث سنوات لا تزال تنظر لـ(كنزة) كشيء غريب
وتبكي كلما حاولت زوجة الأخ أن تداعبها..
- كنزة:

أرواحي أروحي يا حلوه ..تعالني يا بنوته..
تصيح البنوته في هلع، وتختبئ خلف والدتها..

الليلة (علوة) ترى (كنزة) مكبلة بالشَّطْرُطُون لا حول لها ولا قوة.. تقترب قليلا منها في جرأة تحاول أن تعرف طبيعة هذا الشيء الغريب . علوة تخاف الاغتسال بالصابون الذي يحرق عينيها.. تضع أناملها على جلد (كنزة).. تمررها هنا وهناك.. تعيد الكرة على جسمها الصغير.. تخشى على سمارها أن يزول..

- علوة تخمن:

ماذا حلّ بجلد هذا الشيء الذي فقد سماره !! لتتأكد أن الخلل ليس فيها، هو في جلد زوجة أخيها التي اغتسلت بالصابون فذهب سمارها ، فتقرر (علوة) ألا تغتسل أبدا بالصابون، لأنه يُدْهِبُ سَمَارَهَا كَهَذَا الشَّيْءِ الغريب الذي أمامها..

- علوة لأُمّها:

لا لا لا تحطين لي صابون ، ما أبغى آتي مثل تية..
هكذا كانت تبكي وتردد الصغيرة حين تُرغم على الاغتسال بالصابون، وكان لون (تية) حجة لها..

- كنزة :

حَنُونَهُ ..حَنُونَهُ.. هَاكِ حَنَاءَ، شُوفِي اشن حَالٍ هِيَ شَابَةٌ

!!

- أم علوة :

ماقد ضرين بشن يا (كنزة) طمعي لها بامحنائي..
في فضاءات كل هذا الود، وهذه الكفوف الأزديّة التي ترسو بحلم على كل شبر من جسد (كنزة) بلسما وعزفا لأصالة أمهات

تصغي (كنزة) إلى شذى لحن (أثبوغيره) تتبعثُ نغماته من طيف
(يمًا كُبيرة - أم جدتها - في ليلة حنّاء المولد :

حنّة يا حنينة

وحنّة جابوها لغرب.

تربطها لالا بنتي

بخواتم أذهب).

قدّر.. مصير ، وكان (يمًا كُبيرة) تتنبأ أن هذا الحنّاء الذي جاء به
العرب، ستقتنيه حفيدتها يوما - ما - بأيمان سيدات عربيات، من
شجرة حنّاء تربو على أصدار (جبل قيس) في أرض العرب،
والذي يحفظ لها نصيبها من حنّائه الأبدى..

حوريات (قيس) التسعنيات يُشعلن الغرفة وهجا يتلظى قيظ التهائم
من لهيبها الأرجواني ، ترسمه شفاة أرذلها العمر فزادت حياة
وبقاء..

(امّعس) والدكتور (ميسرا) 3

(مشفى رجال المع)

يطل الصبح الخجول على وادي (خراز) من أعالي (جبل قيس)..
يرسم هذا النهار أفقا لازورديا لمنزل الشاعر.. تطل الشمس
العدراء على (القرية).. أشعتها تتسلل في استحياء عبر نوافذ
الأوطان الحجرية ، تداعب هذه الأشعة - بطفولية - أطياب

أحواض (وُمِّي فاطمة) : امعطره.. ريحانة امسوادي.. امشوراء..
امسكب.. وامحبق..

يغتسل رذاذ المطر في الندى المنسكب على السطح ليرفل هذا
النهار إلى شرفات الليالي التهامية محلقا في دُجا ليل (تهامة)
ليضيء غدا منيرا لـ(كنزة) مع أهلها هنا.
ما زالت هذا الصباح مكبلة بالمعس والحنا، مُحنطة على قعادة
(وُمها فاطمة)..

كل الخالات يُشرفن على إطعامها وسقيها وأمور أخرى..
هذه الليلة أوقعن عليها الحد أن تكون جميلة..

في موكب مهيب من التراتيل والتمتمات: معوذات وبسملات
تطوقها بها (وُمها فاطمة) والخالات نحو صالة الأفراح.. الكل في
الصالة يرحب ويبتسم لها..

وجوه نحت عليها (جبل قيس) تقاسيمه، مزدانة بالطيب وجمال
العصائب العطرية التي علت رؤوسهن ..
- حيا الللله حرمة (أبو خليل)..

تبارك الرحمان ، ما حالش وما حال اهليش وربعش في ديرتش؟
-Ca va ca va- سافا سافا خالتو

- قسم انش دوا .

ياهي ديرتش أقيس أنها فوتا؟ تقول إحدى الخالات في الصالة
- الجزائر خالتو

- ايوه ايوه في جيزان ؟
- لاوَه لاوَه ديرتهم ما هي في ارضنا ، تحتجُ إحدى العجائز..
- أقوووول ما سَبَل سَحَنَّتْهَا لَيْسَن سَحْنَة جوازنة ، ترد الأخرى
- فَوْتَن. فوْتَن. الجزائر مَصَارِيَه.
- ايوَه ايوَه عرفت، تضيف خالة أخرى
- لا لا يا جَدَّه ، الجزائر بلد ثاني فَوْتًا غير مصر، تتدخل إحدى الصبايا..
- مَنْ هم شيوخكم يا ولدي؟
- تكاد كنزة تجيبُ الكلَّ في آن واحد..
- تتدخل خالة أخرى:
- كَنَشْ حَرَمَتَن لَأَبُو خَلِيل!؟
- ايوه، تردّ (أمي نالة) اذكري الله وسمي
- قسم ما عَرَنِي من شكلش، بالعاااافيتن يا ابوخليل ، صَحْنُ يدك..
- (كنزة) إلى الآن لا تدري من هو أبو خليل..
- الله يحييُّ ذا الوجه، إزِيك؟ كويسة؟ وبعض المحاولات بالفصحى بكل عفوية من العجائز..
- يَلْتَمُّ حولهنَّ الصبايا، يضحكنَ مع (كنزة)
- شفتي يا خاله عجائزنا تتفصِّح معش!!

- يا لله تفضلي على العشاء ، الخالة حصة

تشديد أمنيّ ويقظة من (وَمِي فاطمة) وقبيلها..

كرم وترحيب وضيافة.. الكل يقطع لـ(كنزة) من الذبيحة ويودّها بأحلى ما في الحنيز وخبز (الميفي) والفواكه التي غطت السفرة..

- يسري ليلُ العرس التّهاميّ بكل ما يحمله من موروث وثقافة الأرض:

الخُطوة..الصف انتّظم ، ونكهة حنيز عظيم ..وبخور سرمدّي برائحة الخلود..

ينتاب (كنزة) شيء من ضيق الصدر ودوخة وصعوبة التنفس.. تُنقلُ فوراً إلى البيت..

(وَمِي فاطمة) وقبيلها في هلع..

في حوش البيت تهوي (كنزة) مغمّي عليها.. نظراتها المقوّسة تستعطف أريج الطيب والتعريبة التي تكسو شعرها..

تصرخ إحدى الفتيات التي تدرس الطب :

فكّوها من القلادة اللّي في رقبتها، وأتكووا كل الأطياب عنها..خالتي تعاني من نوبة حساسية شديدة..

- لاوّه لاوه ، تجمع العجائز :

قسّم أنّها نفّسُو، من عيّنة العرب لها في امّصالة..

- ذا الحين يبدي جدّش بشيخن يقرا علاها وياهب لنا زيت مَقْرِي علاهو ، ولا ترى إلا العافية بإذن الله ،تقول الخالة رحمة..

يدخل العمّ (قيس) يجرّ ساقيه على عصا، ويجرّ معها وهنّ السنين التي تحفر في حوضه المنكسر كل الآلام والعجز ثائرا موجّها عصاه صوب العجائز :

ما هو ما ادمّ امبره؟ ما هو ما ساويثوا بها؟ تعبثوا بها من الصبح!! قسم لو ادمها شي ان آهبا في رؤسكم..

يسمي ويمسح برأسها.. يقرأ بعض الآيات:

- يا الله يا عوال ناخذها للطواري..

سرب من الوجوه البريئة يهرع إلى جيب (التويوتا) ويساعد (كنزة) على الركوب .. أيدٍ صغيرة ناعمة سمراء تحفّ بها..

مستشفى (الشعبين) - الطواري..

صوت العمّ (قيس) يرجّ رواق قاعة الاستعجالات : هات التكتور (ميسرا)، يا هو التكتور مسرا؟

لم يكن العمّ (قيس) يعتدّ إلا بالدكتور (ميسرا) الجراح الهندي حتى لو كان الأمر يتعلق بألم أسنان..

يقبل الدكتور (ميسرا) .. يرتكز العمّ (قيس) على عصاه سدّا منيعا عند ستارة سرير الطواري التي تُنوم فيها (كنزة) حرصا منه أن لا يكشف الدكتور (ميسرا) على وجهها..

عالم الأُخوة هذه الليلة يمتد فسيحا بين الستارة والسرير:

الإخوان الصغار الصبيان الذين نضجت فيهم شيمة التّهامي باكرا ينتصبون في يقظة وهمّة حول السرير ليرعوا حرّما فطروا عليها منذ عهد الرجولة الأولى التي سطرها جبل قيس :

- غَطَّيْهَا.. غَطَّيْهَا.. غَطَّيْهَا ، للأخت الصغرى كلما دخل الدكتور
ميسرا قاعة الطوارئ..

الأخ الصغير (النمر العربي) :

- قَسَمَ أَنَّنِي لَوْ شَلَّتِي غَطَّوْتَهَا لِأَسْرِي عَلاشَ ، قاصدا الممرضة
الغالبينية..

- لا لا صديق.. هنا لازم سوا سوا دكتور يكشف على أذن أنف
حلق، هذا في ماما تعبان ما في تنفس ، تقول الممرضة..

- قسم ما يكشف على وجهها.. يضع "الطفل الرجل" الغطوة على
وجه زوجة أخيه والتي تزيدها اختناقاً..

العم قيس :

- ارق يا تكتور بلا كشفه على حزمة امولد ، أنا أعلمك ماهو ما
ادمها، وانت هب لها ذواي في المغذي، وهب لها أكسجين..

كل الأولاد يصيحون من وراء الستارة :

- يا دكتور يا دكتور، هي تسعل وتعطس و عندها بلغم وتحك
عيونها ونخرتها بقوة، وكتمه في صدرها، وتلوحها مسامعها،
لأننا حطينا لها أطيابن وتغريبه..

- طيب طيب ياعم فهمت هذي نوبة حساسية شديدة يطمئن
د.مسرا العم قيس والأولاد..

الحين أكتب لها علاج وأكسجين وتعطيها الممرضة في المغذي..

- تم يا دكتور بيض الله وجهك..

وكعادته الشاعر يهيم مع صحبه من الشعراء في واديهم لكلِّ
قرينته ، ويتولى الأب والإخوان الأبناء كل هذه الرعاية لزوجته
الأخ..

يغفو الأشبال الصغار حولها على سرير الطوارئ الذي صار مهذا
لأخوة حُرمت منها (كَنزَة) طويلا ..إخوان استشهدوا في الحرب،
وإخوان فُقدوا في زمن الإرهاب ، ليعوّضها (جبل قيس) بأمة من
الإخوان..

يصل الشاعر (بُو لحاف) إلى قاعة الطوارئ يرافقه الدكتور
ميسرا والمرضة..

بُو لحاف:

- لِمَ يا أبه ؟ الدكتور ميسرا يشتكي يقول ماخليتوه يكشف عليها
!

العم قيس :

- تمام يا سيحين أنت ميد رجل يكشف على حرمتك؟!!!

لا تاهبني أدقق راسك..

- لا لا لا يكشف علاها أنجم علمناهو بما يلوخها، واهب لها
مغذي، يحتج الإخوة..

يستسلم الطبيب و(بُو لحاف) أمام هذا الاعتصام في قاعة
الطوارئ..

الطبيب :

- خلاص كلو تمام أنا فيه يعطي مدام كورتيزون وأوكسجين وهي ساعة ميا ميا..

ينسحب الدكتور مسالما مراعيًا للوضع

العم قيس لـ(بو لحاف) :

- لمة تسري تدجّ في كل وادي وتخلي امكهيل يتعبّرون بامضعفة تية وهي أمانة عندنا؟ يرفع العصا في وجه ابنه..

- يا ابة هذي وصية أهلها وأمها ، أمها تقول: لا تُفرخ عليها إذا روّحتها ، حطّها بين أهلك..

تحت وطأة (الكورتيزون) المخدر وجرعات المسكن ونفحات الأوكسجين، بين غفوة ويقظة تستحضر (كنزة) ذكرى وداع أمها لها في مطار (هوارى بومدين)..

تنساب دموعها على كف الصغيرة (علوة) التي تنام عند كتفها ..علوة لم تعد تخاف من (كنزة) ذلك الشيء الغريب.. تبكي كلما تألمت كنزة..

تتذكر (كنزة) رحيلها ووداع والدتها.. هذه الوالدة التي كانت تتظاهر بالفرحة وهي تزفّ ابنتها التي انتظرتها عشرين عاما إلى بيت الزوجية ، قلبها كان ينشطر أشلاء، ومثله (مطار هوارى بومدين) ، كان الإثنان يتقاسمان الأسى : المطار الممزق بعد تفجير إرهابي قبل يومين، ورائحة أشلاء الضحايا ودمهم الذي لم يجف بعد لا يزال متناثرا هنا وهناك :

أشلاء.. خرق عالقة في الأسقف.. عيون الموظفين التي لا زالت
تذرف دموعها على الأبرياء.. وجوه شاحبة من شدة هلع
التفجير..

ومثل كل هذا كانت والدتها تودعهما وعلى وجهها دمعتان
ووصية..

(بو لحاف) :

- ياخاله أعدك أنني لن أحرملك من بنتك حتى لو طلبت أن تزورك
كل شهر..

- لا لا يا وليدي ، اخنا في عوايدنا : الطفلة إذا زوجها ما
تدخلش دار باباها إلا بعد عام .. يا وليدي الطفلة نُقْلة (شتلة)
لازم تنغرس في جنانك ، ماتخافش عليها ، الطفلة زريعة كل
بلاد. أنت اغرسها في دارك والزمان سلطان ، خليها تبني بيتها مع
ناس دارها..

فعلا الشاعر فرح بهذا، وأخذ بالوصية بحذافيرها ..

لقد شهد له شاهد من أهلها، فأقحم (كنزة) أو "امحلة" كما صار

يسميتها، أقحمها في (أبجدية الأزدي) في أرض التهائم، وعبر
رائحة خبز البرّ أودعها عند مشارف منديل (وَمِي فاطمة)
وشموخ عمامة شيخها (قيس)..

أبي (قيس) .. سيدي عزيزي هكذا كانت ولا تزال (كنزة) تناديه ،
مصرّة على ألقاب القدر التي فطرت عليها في (أرض الشهيد)
، هذا المخرم الوحيد في حياتها يجعل من ستارة سرير الطوارئ
ميدان شرفٍ ومعه أشباله الصغار، يدافع باستماتة عن حرّمات

وجهِ زوجةِ ابنه أمام الطبيب ، يجعل من عصاه سيفاً يحميها بها..
هذا الفارس التسعينيّ يحوّل قاعة الطوارئ إلى حصنٍ منيعٍ وقلعةٍ
لا يخترقها أبداً من يحاول أن يكشف ملامح (كنزة)..

ما أعظم هذا القدرَ لـ(كنزة):

أبٌ يحميها هناك، ومحارمٌ استشهدوا من أجل كرامتها، ومحرمٌ
أبٌ هنا في أرض الحرمين، يستميتُ على عصاه ليحمي وجه ابنةٍ
يقَدّسه..

كل الأدوية التي كانت تنساب عبر أوردتها وشرابها ، ذلك
الأكسجين الذي كان يدفع أنفاسها، لن تعطىها أنفاساً جديدةً
كأنفاس أبيها (قيس) وأشباله ، أنفاسهم وحدها هي التي كانت
تسعفها مع كل نفس حياة جديدة، ومع كل إطلالة لوجهه من خلف
الستارة على سريرها كانت تخرج نفساً سوياً ومعه تباشير غد مع
أهل أحبة ..

تلك الأدوية كلها لن تكون أبداً بلسماً شافياً مثل لمسات الأيمان
الصغيرة لهؤلاء الأشبال التي كانت تواسي آلام جسدها المنغمر
بأطياب المسك التهامي.. في تلك الغفوة المباركة، وتحت آلام
صدرها المتشنج من صعوبة التنفس، يتراءى لها صبح مشرق
كله محارمٌ تشبه الثريا حين تلفُ (جبل قيس) لتعدها بدهر من
الأخوة..

تحت ويلات نوبات الحساسية، كانت (كنزة) تتوعد أن (تتكّس)
بالمِشْطَة التهامية دوماً، وألاً تتردد أبداً عند رغبة حسناوات
(وادي خُراز) التسعينيات في تزيينها بالمشطَة والمكعس والمنديل

الأصفر والتعريبية وعصائب الطيب والريحان والسكب، لتحيا على
هذه الأرض الطيبة في كنف أهل كرام..

الكرة الأرضية على كَفِّ (وَمِّي) فاطمَة)...

شاما...بحرا...يمنا...شرقا..

لا يزال سطح الكرة الأرضية مستويا ترسّمه الروابي والجبال

والأوطان الحجرية.. تحفّه شطّان المزارع ومدرجاتها..

العالم يبدأ هنا وينتهي عند عتبة بيتها..

عالمٌ امتد قليلا من جبل (امرّواح) مسقط رأسها إلى بيت زوجها

في وادي (خرار).. عالمها الأفقي المستوي يتسع لها شيئا قليلا

إلى بعض الأسواق الأسبوعية:

(سوق رُجال)..

(سوق سبت صَلْب)..

سوق (الأحد).. إلى أقصى ما تتخيله (سوقِي صَبِيَا والدَّرْب)..

لـ(وَمِي فاطمة) بوصلة، لكنها ليست زئبقية تحد الشمال الذي
تقره من خلال زوايا ونوافذ في بيتها.. تختصر كل الأزمنة
والأماكن، ومن نجمٍ يطلّ على سطح بيتها ذات ليلة تصنع لها
شرقاً وغرباً وجنوباً وشمالاً..

تصنع زمنا وأنا لأحداث تاريخية في أرضها ..

تربطها بتحوّلات تحدث في جسمها الصغير.. نوافذ بيتها الحجري
، جسمها النّحيل.. السماء التي تظلل شطّانها هي معالم رسمت
زَمَكانيّتها وتاريخ القبائل..

على كَفِّي (وَمِي فاطمة) كانت حرمة امّولّد (كنزة) ترفل هنا
وهناك على الخطوط التي نحت تعاريجها لونها الحناء الذي تزدان
به بنانها، وصفحة هذا الكف التسعيني هي ذات الحناء الذي
خضبت به منذ الأزل..

تحوم كنزة " امّعروس " باحثة عن شرق.. عن غرب .. عن وجهة
أخرى في هذه الكف.

في جلسة قهوة الصباح ، لاتزال الشمس مختفية خلف (جبل
قيس) ، لتصنع ضحى (فاطمة وكنزة).. على وجه فاطمة تباشير
وغبطة ، فالיום هناك من يعشق الصبح معها بعدما خيم وابل من
الصمت المهيب على واديهما المتعولم:

(وَمِي فاطمة):

- زائن قهوتش يا ولدي؟

- أَيَوَهُ أَيَوَهُ ارْقِيهَا يَا عَمَّةُ: الضَّغَطُ الْإِيطَالِي تَاعِي رَاهُو
يَطْرَقُ..بَقْ...بَقْ..بَقْ..

- تَعَالِي هَنِيئُهُ هَالِي قَدْ فَرَشْتِ امْسِيفِرُهُ..

عَيْنِي امْسَهْفَةُ تَاكَ خَذِيهَا علاها كَسْرَةُ خَمِيرَةٍ وَهَبِي شَوِيَّةَ
صَلِيْطُنْ فِي امْكَاسَةِ.

- اسْتَنَّايْ يَا عَمَّةُ (مَطْلُوْعَتِي) مَا زَالَتْ عَلَى الطَّاجِيْنَ.

جَلْسَةُ قَهْوَةِ الصَّبْحِ بَابِ تَفْتَحِهِ (وَمِي فَاطِمَةَ) عَلَى التَّارِيخِ..

تَسْكِبُهُ فِي فُنْجَانِ قَهْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ.. فِي رَشْفَةٍ تَمْتَرِجُ فِيهَا رَائِحَةُ
قَهْوَتِهَا مَعَ رَائِحَةِ قَهْوَةِ (كَنْزَةِ) الْإِيطَالِيَّةِ الْمَعْطَرَةِ بِمَاءِ الزَّهْرِ
الْمَقْطَرِ مِنْ (سَهْلٍ مُتَبِجَةٍ) شِمَالِي الْجَزَائِرِ، تَرْوِي فِيهِ (فَاطِمَةَ)
سِيرَةَ (الْمَغْلَبَةِ) وَشِيُوخَهُمْ فِي قَبِيلَتِهَا..

- آه زِنْتِي يَاوَلْدِي؟

أَيُّهُ (بَيَانُ سُورِ) (bien sûr) يَااللَّهُ بِسْمِ اللَّهِ.. رَاهُو كَلَّشْ هَنَا..

لَا تَزَالُ (كَنْزَةُ) تَتَكَلَّمُ لَهْجَتِهَا الْعَاصِمِيَّةَ الدَّارِجَةَ الْمَمْزُوجَةَ بِكَلِمَاتِ
عَرَبِيَّةٍ وَفَرَنْسِيَّةٍ وَأَمَازِيغِيَّةٍ ، لَكِنَّ (وَمِي فَاطِمَةَ) تَتَظَاهَرُ فِي حَلْمٍ
وَحِكْمَةٍ أَنَّهَا تَفْهَمُ هَذَا الْكَلَامَ حَتَّى لَا يَشِقُ الْأَمْرُ عَلَى (امْضَعْفَةُ
تِيَّةُ)، فَتَرْسُمُ بِسَمَةِ مَلَائِكِيَّةٍ عَلَى شَفَتَيْهَا:

تَمْ يَا وُلْدِي..

دَلَةُ قَهْوَةٍ عَرَبِيَّةٍ.. إِبْرِيْقِ إِيْطَالِي.. كَسْرَةَ

خَمِيرٍ.. صَلِيْطُنْ.. مَطْلُوْعُ.. كَسْرَةَ مِنْ (أَغْرُوْمُ أَقْوَرَنْ).. خَبْزَةَ (طَابُونَةَ)
أَوْ (مَلَاوِي) تَارَةَ أَوْ (كَرْوَأَسُونْ) تَارَةَ أُخْرَى..

كان بالفعل فطورا عابرا للقارات..

ينساب الصبح.. تشرق الشمس على (مَيْل قَيْس) كله:

- يا لله يا ولدي ندخل امبيت قبل امهاجرة..

- اسنتي يا عمة . كنزة لم تعرف بعد كيف تعيش تحت
المكيفات.. تركيبها الجينية قد اعتادات مناخ وبيئة البحر المتوسط
ذي الفصول الأربعة.. تمشي تحت الشمس اللافحة في
الصيف.. تحت المطر والثلج والبرد في الشتاء.. تسارع إلى حديقة
البيت لتستمع بحمام الشمس..

- لاوه... لاوه ، تعالي هنيه في امقيّه ، لا تخربين جلدش
بامشمس.

ومي فاطمة في حنكة ودهاء بريء تقنع كنزة أن تدخل إلى البيت
، فبقدر ما كانت تخاف عليها من هجير التهائم كان همها الكبير
ألا يتأثر لونها بأشعة الشمس فتضفي عليها طيفا من السمار..

- يا عمّا ااااا خليني شوية في الشمس آخذ لون..

- الله يهديش، ميد تخربين جلدش ومعنا عزامة خلف الصبح
شاما؟

-اييه...جستومو (justement) يا عمة آخذ شوية لون
برونزي باش نولي حلو..

- ميد تسودين وتأتي مثل امسعلا.. بلا خبال يا لله ادخلي ادخلي
لامبيت.

تتساءل كنزة:

العزومة شاما؟؟!!

يمضي النهار..

غداء..قهوة عصاري..عشاء..سمرة ظريفة على السطح..

كنزة :

- عمّة..عمّة...

العمة:

- لبي يا ولدي..

- قلت لي مُقْبِلٌ عندنا عزومة.. شكُون اللَّيِّ غَرَضْنَا لِلْعِشَا؟

- آل غالب من عوال عمّ رجليش يرحبون بش..

- وين قلت لي يسكنوا...؟؟

- معهم بيوتن وشطّانن وبلادن شاما..

- مليح زين يا عمّة ، عندهم بحر وشواطئ؟

لاوه البحر فوتن..

كنزة:

- أكيد طالما شاما،

بالصّح كيفاش نروحو؟

- بامسيّارة.

يووووووه ، تقدرني يا عمّة بعيد بالزّاف؟

- نُنشِرُ بِالْفَالِ.. ما نتعب إن شاء الله..

- بالصَّخِّ واشْ نلبسْ؟

- كل شي يزين علاشْ يا ولدي.. أبو زيدِ يَعْرِفُ في شملته..

- يا للاً فاطمة شَكُونُ بُو زيدْ؟ كل مرة تنادينني باسم رجل مرة
"سهيل يمانى"... "بو زيد في شملة". وزيادة مرات تنادينني باسم
جماعة تقولي لي "عرب ربّي"، ما فهمت وَالْوَأ!! واشكُون هو
بُو خليل اللّي دايمًا تهدرو عليه؟

- ههههه تضحك أمّ (بو خليل).

- نشهد يا ولدي أَنشْ نشميّة وتزينْ علاشْ امسامي ما هنية..
تقول فاطمة..

كنزة تخمّن:

ما عليشْ مع العشرة نفهم ، كما يقولو عندنا (الزمان سلطان
وحكايتي تمشي الوادِ الوادِ وتبياض مع لجواد).

أما أمرُ السفر فبقي معلقًا بينهما، و انتاب العروس شيء من
التعب المسبق، فقد أرهاقها الرحيل بين قارتين ، ولم ترتخ بعد
لتخوض في مشقة سفر جديد بعد يومين برًا إلى بلاد الشام
لحضور العزومة.. يدخل (بُو لحاف) -أبو خليل- إلى الغرفة وقد
أحضرت كنزة شنطة ترصّ فيها بعض حاجاتها و صيغتها
وملابسها.. يسيطر عليه الفزع والهلع.. لقد حدث شيء ما بين
العمة والكنّة في غيابه، وها هي الآن تقرر الرحيل.. ينظر إليها
مستغربًا: - معقول حدث خلاف بينهما يخمّن..

صوت (طُرُوق) ترددها العمة وهي مسترخية على قعادتها :

لكنها صَيْدَةٌ كنانِ ابرِ عامرٍ

تغرّب سنينٍ وجابها..

يدركُ أن والدته لا تزال تعيشُ فرحتها بصيدةٍ ولدها ، فهي يومياً

تتّوجها باسمٍ يُعليها ووسامٍ لقبٍ جديدٍ مثل: عربٌ ربّي..سهيل

اميماني..أبو زيدٍ.. واليوم (صيدةٌ كنان بر عامر)..

كنزة:

اغلاشٌ ما حُجزتْش لنا طيران أنا ما زالني عيانه؟

لمةٌ خير؟؟ وش حصل؟؟

- والله بالزاف بعيد بالسيارة حتى للشام؟؟

- ولمةٌ نساfer ترانزيت عبر سوريا؟ الخط المباشر جدة- الجزائر

مفتوح حالياً يسألها (أبو لحاف) ظنا أن (كنزة) فقدت أهلها

وترغب في زيارتهم.

- كيفاش، أنا قاعدة نهدير على العزومة تاغ أولاد عمك اللي

يسكنوا في سوريا ما قتلّيش أن لك أقارب في سوريا!!

- من أولاد عمي؟ ومن يسكن في سوريا؟

- آه (للأ فاطمة) قالت لي الصباح باللي عندنا عزومة شاما..

ينقشع كل الهلع الذي أربع (بو لحاف) وهو يعتقد أن زوجته

تتأهب للرحيل..نوبة من الضحك الهستيري تصيبه..قهقهات

جنونية ترجّ البيت يردد صداها (امرّكيب) الملاصق للبيت.. تهرع والدته بخطى متعثّرة:

- ما بك مابك يا ولدي قسم أنت جهلّته؟

تحقق في كنزة :

- ما بامولد؟ ماساويّتي بوه؟؟

- ما على باليشن..كنت نهدرّ معاه على العزومة اللي في سوريا فقام يضحك!

ما أسرعكم باقي ماانتسمتوا من امعومه تغيرون على سوريا ؟
كان يا ولدي بلا عومه ودجة!!

كنزة:

ألاااا..أنا نهدر على العشا تاغ اولاد عمّو غدوة شاما..صح يخّي
انت قلت لي يسكنوا شاما يعني سوريا؟

هنا تنتاب (ومي فاطمة) نفس النوبة الهستيرية من الضحك..

يا ربي ، فعلا الشعراء يتبعهم الغاؤون، شاعر مجنون، وأمه
مثله..تخمن كنزة..

ماذا تفعل أمام كل هذا الجنون : ضحك..قهقهات امولد وأمه..
دموع تسكب من عيونهما من شدة الضحك.. وكلما أكدت (كنزة)
على أنّ (شامًا) يعني سُوريا ازدادت هستيريا الضحك لديهما..

تسترجع (ومي فاطمة) أنفاسها المنقطعة من كثرة الضحك :

والله يا ولدي انش عجبّه ذا الليلة..

اموآء وقد استهلك كل علب المناديل ليمسح دموعه من الضحك:

ياالله ياالله يا ومانت مئء معنا؟

- يا انئو ئسرون ذاء الحزة؟

- شاما شاما...

- معكم...

ئوووووة نروحو ءوك بالليل؟ ما زال ماحضرتش شنطتي...

- ياالله ياالله اطلعي السيارة ولا تاخذين آي اغراض معش..

- كيفاش؟ واش نلبس في العزومة؟

ومئ فاطمة :

- ابصمي ابصمي وكان يا ولدي تكفين ما عادي اقدر
أضحك.. لا عاء تهرجين عن شامش ، ابرق على اموآء من
امضحك وهو يسوق..

أقحمها الشاعر في السيارة في تأمر مع والدته..

منعاهما من الكلام..

كنزة تفكر:

- ما هذا الذي أصاب الأم والولد؟ إنها عملية اختطاف..

امظاهر.. الأنفاق الثلاثة.. الشعبين (مقر محافظة رجال
المع).. الجرف (مركز تجاري).. سنومة.. وسائب.. لم تكن (كنزة)
بعد تعرف أسماء هذه الأماكن.. تنحدر السيارة قليلا.. تنساب في

بطن الوادي .. تصعد ربوة صغيرة عليها بيت محاط بأشجار سدر
تحفُّه أحواض أطيابٍ وريحان..

هنا شاما.. هنا الشام.. هنا بيت (عوال عمي).. الصبح هنا معزومين
على العشاء.. عادت الأسرة الصغيرة إلى البيت بهذا الشمال
(شامًا) الذي يتجه نحو (محايل عسير)..

(وُمِّي فاطمة) تضرب بكل خطوط العرض والطول عرض الحائط :
شاما.. يمنا.. بحرا.. شرقا..

تهيم (كنزة) في كل الجهات كلما طلبت منها ام زوجها أخذ شيء
من غرفة ما في البيت :

- خذي من امغرفة امبحريّة أو من امغرفة اميمانيّة.. أو امبلكونة
شامًا، أو نطلع عقبة امصماء نזור خالتش (زلفة) منومة في
المستشفى في ابها شرقا..

(وُمِّي فاطمة) هي مثلٌ حيٌّ لجغرافية اللغة التي تتبع من تحت
منديلها الأصفر.. هي مصنع ومهدٌ لغويّ للسان العرب..
موسوعة لغوية عريقة..

لسانها هوجذر اللغة العربية التي لم تهجن..

كونيّة في علمها وفقها لأمر الدنيا التي تحيط بها..

لا تتعب في تأويل أية ظاهرة ، لا في سرد الحادثة التاريخية ، ولا
في وصف الظاهرة العلمية، وظيفيّة في سكب المعلومة، أسلوبها
دون أي تعقيد فيزيائي أو كيميائي أو مصطلح مركّب بيداغوجي.

توصل إليك المعلومة بكل بساطة، أسلوبها فطري عفوي لم تقتنه
أية مقاييس وضعية للتلقين والتعلم.. هو فعلا السهل الممتع..

أبو فاطمة...

(امْبَحَث) .. الحَصْنُ الحَجْرِيّ المتجَدَّر عند وَتَدِ (جبل قيس) ينبضُ بسيرة كل الحكايا التي يرويها العمّ (قيس) لـ(كنزة) والأبناء الصغار تحت ظلال نجم (سَهَيْلِ امِيمَانِي) الذي ينثر لُجَيْنَه على الليالي الخريفية التي تعبرُ وادي (خُرَار) من خلال حكايا العم (قيس)..

في البيت العائلي الكبير الراسخ على جبل (امْبَحَث) تتأمَلُ (كنزة) قرون الجبال المحيطة به .. أفنية الوادي..الأدغال.. الأحرش..الأصدار..

بعد تُمدرسها أصبحت لديها كل هذه المناظر مجرد تضاريس تُرسم على خريطة أسفلها مفتاح يرمز لكل منها بلون ومصطلح ، بخط وبشكل هندسي، بعدما كانت هذه الأوساط الطبيعية تكوّن لها في طفولتها الأولى عالما سحريا سرمديا محاطا بالغيبيات والأساطير التي تحفها العجائب والغرائب، وعالما سديميا يملأ زمن طفولة الرجال..

كبرت وكبرت ، وبقيت قصص الجبل والسهل والغابة ذكريات لها مخملية بطعم السكاكر..حيوانات تتكلم..أو وحش مفترس يصادق الراعي، وذئبة ترضع طفلا، وعروس تُسحر في ليلة عرسها من الجنّية فتتحول إلى حمامة..

قصص وقصص وموروث حكواتيّ شكل لديها أبداع صور الخيال في ذهنها...

كبرت وكبرت (كنزة)، وتعقلنت بمقاييس العلم والأرقام، وجفت روحها، وتمنطق خيالها، وتجردت من كل هذا الجمال:

جمال حكوات الجدات.. وكثيرا ما شعرت بالحنين إلى ذلك الزمن اللازوردي الذي كانت تصدق فيه حكوات جدتها ببراءتها الطفولية وتحلم بها حين تخلد إلى النوم..

ولكن في رحاب سَطْحِ الحَصْنِ الحجريّ في بيت العمّ (قيس) غاصت (كنزة) في طفولتها من جديد.. عادت إلى الحلم.. عادت إلى أزمنة طفولة الرجال.. عادت طفلة تشع عيناها بريقا، وذلك حين تنتبذ ركنا عند حافة قعادة العمّ (قيس) و(وَمِي فاطمة) بعد العشاء.. تُنصت بشغف إلى حكاياتهما الأسطورية، لكنها ليست أسطورية.. هي كل تفاصيل حياتهم اليومية التي عاشوها جسدا وروحا وأرضا في جبالهم بين القمة والوادي، في تلاحم بين الزرع والحرث والرعي وتسخير الصخر والسيل...

يحتبي العمّ (قيس) بلحافه ، ويستقيم الشاب ذو التسعين ربيعا على (قَعادته) على السطح المطل على شطّانه الزراعية.. يبدأ سرده، ولمزيد من التشويق يمشط لحيته المحناة بأصابع صقلت المنجل والمحراث قرابة قرن من الزمن تهددها أهازيج الأرض التهامية في تلك الليلة الخريفية التي تتوهج بنور (سهيل أميماني) مبددا دجى الليالي العاتية العتمة تهزمها أشعة النجم سهيل ليصنع للجبل ليلا لحكوات الراعي المُعتق يروي قصة أحد أصدقائه في إياذات الرعاة..

يشرح العمّ (قيس) في سرد قصة العمّ (عسيري) الراعي

مع أبي فاطمة:

إذا حل الشتاء وهبت رياح "أمشراقية" على السروات، فيبست المراعي في قرية العمّ (عسيري) قرية (أمعثربان) ، وخيم البرد

الشديد القارس على قممها ، يُتهم العمّ الراعي العسيريّ بقطيعه
يومية فجرا إلى المرعى نحو الصدر والوادي التهامي في عقبة
(ضلع) القريبة من القرية، حيث تخضّر الشُّطّان ، وينبت الزرع
في الصخر والحجر مع إطلالة النجم (سهيل اميماني) الذي يزف
للقرويين مواسم الخير في أرض التهام..

في إحدى الصباحت الندية بعطر الشيح والريحان التهامي يُتهم
كعادته مدججا بجنبيته وفأسه وشفرتة..

أسلحة ملازمة للباس الراعي في استعداد دائم لهجوم أسد أو نمر
مفترس أو حنش وأي حيوان مباحث مؤذ من البيئة..

مشهد وأمر معتاد ومألوف جدا في تلك البيئة الفطرية العذراء..

لقاء مصيريّ في أحد تلك الصباحت التهامية الدافئة.. يتلاشى
برد السروات شيئا فشيئا عن جسد العم (عسيري)..

ينتشي ويردد لازمة أهازيجه في تناغم مع ثغاء غنمه في
سمفونية يردد صداها جبل (نهران) وجبل (صدر ضلع) المحيطة
بمرعاه..

(أبو فاطمة) يباغته..

بفطرة الراعي المتفطن اليقظ يستل (جنبيته) ليواجه هذا الكائن
الخطير.. يقتربان من بعض.. وبعينين منكسرتين مستعطفتين
يحدّق (أبو فاطمة) فيه.. يمدّ إليه يده!! يقترب العم (عسيري)
منه.. يمكث أبو فاطمة مكانه مستسلما مستجيرا برحمة صاحبه
رافعا إليه كفه.. يمدّها لعننا الراعي.. كفه متفطرة متعفنة منتفخة
بالصديد والدم ، وقد اخترقتها قطع من الخشب الجاف..

ينظر أبو فاطمة إلى كفه المتورمة بصبره المعتاد وعينيه
الثاقبتين..

يمسح العم (عسيري) على رأسه الملتهب من الحمى..

يسقيه قطرات من قربته الصغيرة التي يحملها في مرعاه..

يشرع في تنظيف الجرح بما يتوفر لديه من عدة الراعي، ويخرج
بشفرته كل الخشب الذي تعفن بداخلها، ويعصر منها القيح والدم
المتقيح، ويعقم الجرح بما حوله من بعض نباتات.. يمزق قطعة
قماش من (لحافه) ويضمّد كفّ أبي فاطمة ويطعمه من زاده ثم
يغادره إلى الغد..

هكذا كل يوم يغيّر له على جرحه ويسقيه ويغذيه إلى أن استرد
أبو فاطمة عافيته..

طاب (أبو فاطمة)، واستردّ قوته وعنفوانه، ومن الطبيعي أن
يعود إلى فطرته الخطيرة، وبقي العم (عسيري) يرعى غنمه في
نفس المكان الذي يقبع فيه أبوفاطمة، لكن هذا الأخير لم يعتدّ على
القطيع، ولم يهاجم العم عسيري..

في أحد المساءات عند عودة القطيع مع الراعي، أقبل أهل القرية
يشهرون أسلحتهم متربصين عند مشارف الوطن والحصون
الحجرية للقرية.. لم ينتبه العم أن صاحبه (أبا فاطمة) تبعه حين
شعر أنه برئ من جراحه..

استغرب استنفار أهالي القرية..

التفت وراء قطيعه ليرى (أبو فاطمة) خلفه..

أمر الكل بالعزوف عن قتل هذا الرفيق..

عاش أبو فاطمة (النمر العربي) في حوش العمّ (عسيري) فترة من الزمن جارا محببا إلى الكل إلى أن مات، لم يهاجم أحدا، ولم يفترس لا غنما ولا طيوراً من دواجن القرية، ولم يعتد على أحد من أهلها ولم يستغربه ولم يستغربهم..

في قصة العمّ (قيس) هذه الليلة تستقرئ (كنزة) من جديد كل التاريخ الذي قرأته عن شيمة (الأزد) في جزيرة العرب ، تتوجّها

قصة أبي فاطمة (النمر العربي) والعمّ (عسيري) صورة واقعية لحكوات الطفولة وشهادات التاريخ..حكوات الصداقة بين الحيوان المفترس أبي فاطمة هذا النمر العربي في جبال (عسير) نمر يتشيم بخصال الرجال الكريمة في هذه الأرض..نحن نصف الرجل بشيم أبي فاطمة (النمر العربي) الذي يتصف بالحلم والشيمة والحياء، ويعزف عن الهجوم على المرأة الراعية إذا أثبتت له أنها أنثى فيطأ رأسه خجلا وحشمة ويمضي رغم جوعه الشديد..والعم عسيري ينقذ نمرا مفترسا يستغيث به ولا يقتله..

تُحْمَنُ (كنزة):

من الذي اقتبس من سجايا الآخر في الشيمة والرحمة والوفاء ؟ العم عسيري أم النمر العربي أبو فاطمة ؟ العم عسيري من زمن الرجال الذين أشبهتهم جبالهم، فهو لم يكن عضوا في جمعية الرأفة بالحيوانات، ولم يكن يسمع عنها ، ولم يكن يسمع عن شيء اسمه حظيرة طبيعية محمية.. هو إنسان..إنسان فقط، بشيمة الأرض الطيبة التي استُنسخ منها..أنقذ نمرا مفترسا لأن له قلبا تملؤه الرحمة..

العم (عسيري) رجل من أرض أنبتت رجالا من ذلك الدهر الذي صنع معاني الرحمة والرفق للإنسانية جمعا..

العم عسيري رجل من شيم هذه الأرض..

هو القيمة ذاتها التي تحت على (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) ، حتى إن كان ذلك مع حيوان من العجماء يستجد بك فلا تؤذيه ولا ترهبه وتنقذه عندما يستجير بك..

سنة (ومّ الجلود) ودموع (عيدة) ..

قبل ميلادها بعشرين عاما أذف الرحيل..

أذف معراجها نحو أرض (ألمع) ..

كان رحيلها ذات أعقاب ليلة من أواخر خريف (سهل متيجة)
شماليّ الجزائر عند موعد كل الأسحار الآفلة ..

تودع عريش (الليلك) و(مسك الليل) الذي يغطي فناء (اللوتس) le
lotus (فيلا (سيرانو) ..

تودع التينة التي تتخلل أغصان شجرة ورد القطيفة وساق
الياسمينه وجذع شجرة سلطان الغابة العطر المتسلق على سياج
البستان ..

تودع كل ذلك في حي (الأبيار) في أعالي العاصمة (الجزائر) ..
تودع (الفيللا) التي استردها والدها بقوة الدم والنار والسوط من
المعمر الفرنسي (سيرانو) وأسلافه قرنا و ٣٠ عاما من
الاستعمار ..

تحلق عبر هضبة (الأبيار) .. تمتطي منحى مزركشا بألوان الطيف
وريش الطيور التي تكسو (جزيرة النورس) .. ذاك الحبيل الذي
يتوسط خليج (مزغنة) القديمة ...

حلمها المجنون يواكب أعراس (سهيل اميماني)..
 فقبل ميلادها بعشرين عاما حلمت بمواسمه الخضراء عند آفاق
 جنوبية في جبال (الحزّ - الحجاز) في أرض عسير..

إلى هناك تسري وتعرج شرقا.. خلفها (القصبية) المحروسة
 تودعها.. ترفرف وتحلق أعلى وأعلى على شماريخ جبال
 (الخشنة) التي تحزّ أرخبيل الجزائر العاصمة.. يزف معراجها
 أريج غابات الصنوبر والأرز والسنديان والصندل التي تكسو
 غابات الأطلس التلي.. وعبر الصحاري والبحار والقفار والجبال
 تحط على قمة (جبل قيس)..

تُتهم قليلا نحو (امحدب) حصن العم (قيس).. تستقبلها (عيدة)
 و(نالة) و(زلفة) وكل الراعيات بالأحضان تحت ظلال النجم
 (سهيل اميماني) الذي يصنع عرس التهائم وبهجة الراعي
 والفلاح، و ينسج لمجرى وادي (خُرار) ماهيته في احتضان زبد
 السيل..

قبل عقدين من ميلادها حلمت بخريف التهائم.. بأرض (ألمع)
 يصنع أعراسها (هذا النجم).. ينقش كل الكائنات برسوم خرافية
 من وحي نوره الساطع..

قبل الضحى تجدها تصرم وتحشّ عذوق الذرة وجدائل الدخن مع
 العم (قيس) والعم (مرعي) وؤمّي (فاطمة) والراعيات في هذا
 الموسم السخي.. وحين تحين مغارب أرض (ألمع) يطل كل ليلة
 ذلك النجم الجواد ليحيي بهجة القرويين تحت أهازيج الصف
 و(الدمّة) و(الهُود)...

تمضي أيام الخريف في أرض ألمع سريعة كالطيف ولم يحن بعد
 موعد ميلادها.. لكن موسم شتاء ألمع هذا العام أقبل دون تباشير
 ودون حلم في قطرة المطر، وغدت الشيطان تتعري من كسائها
 الأخضر، وجفت الغيول والينابيع، وقست أشجار البن عند ظل
 (أمقطعة) في (ذنب أطل وبقية المزارع)، وأعلن شيبان قرية
 (خرار) سنة (وم الجلود) التي سميت بهذا لأن الناس أكلت فيها
 جلود الحيوانات النافقة..

بعد صلاة العشاء تنزوي (عيدة) وضيقتها (كنزة) إلى زاوية في
 الحجرة الصغيرة من الحصن الحجري.. تصغي (بنت الأطلس) إلى
 حلم (عيدة) وحلم القطيع..

تحلم الصبيتان معا في نوم مفتعل..

تحلمان في أنها لن تطول بهما (الجممة) عند الغدير الذي شح
 فيه الماء في غدير (ماي أمبراء)..

تحلمان معا في صمت الغفوة المهيب بملء القرية وسقي الغنم..
 تحلمان معا بعود أخضر للقطيع..

لم يبق هناك عود أخضر للقطيع في مدرجات (امبلد) ولا في
 الجبال ولا الوادي.. السديم الملؤل يصب رماده الجليدي على (ذنب
 أطل) و(أمكفاء) وفي كل شيطان وشعاب القرية..

كل المدرجات الزراعية في عقر.. كم هي قاحلة سماء القرية تطل
 على الراعي في خجل من أمرها هذا الموسم من أواخر موسم
 جني الجنى (أمجحر)..!!

في أواخر الشتاء العقيم في سنة من القحط والجفاف في أرض
(الْمَع) تقرر (عيدة) أن تخرج بقطيعها إلى جبل (اْمَبْحَث)

أحد جبال القرية.. تتسلل قبل الضحى حتى لا تصر ضيفتها على
مرافقتها، فالطريق إلى هناك عبر ممرات جبلية شاق جدا على
بنت المدينة..

- عيدة... عيدة..وين راك رايحة..

- نامي...نامي..أبره بامغنم وما ألهي علاش...

- آه نو..ah non..نحي معاك ومع لغنم بش نشوف كيفاش
ياكلو..

- لاوه لاوه لا تغدي امبره معش يا عيدة أبرق علاها من امهاجرة
، تعترض (ومي فاطمة)..

- هي تدان ما تجلس في امبيت..ميد تبرة معي امخبله تيه تقيس
انها تحصل هنيه مثل ما في أرضها على امساحل...

تصر (بنت الأطلس) على مرافقة (عيدة)..تسير خلفها جارة أوزار
بنت المدينة متهمة بالمدينة ورفاهيتها..

تتقمص (الأطلسية) شيئا من الراعية (عيدة).. تحترم بـ
(امفشوري) ، وتتوج رأسها بمنديل أصفر، وتتأبط محشاً وفأسا
مثلما تفعل (عيدة)..تسير الراعية المفتعلة خلف (عيدة) عبر
ممرات ترابية ضيقة..تدمي ساقها أغصان السدر الشوكية التي
تساقطت يابسة على جنبات الممرات بين الأعشاب البرية القاسية

على الأرض.. من حين إلى آخر يصعقها صوت القردة بين الشجر القاسي..

تصل الراعيتان إلى فناء الجبل أعلى (أمبُحث) المطل على وادي خرار.. منهكة من قيظ ضحى التهام في موسم شتاء شحيح تستظل بفيء هذا الجبل..

تلاحق جسد (عيدة) النحيف وهي تركض دون أمل هنا وهناك تبحث عن كلاً لقطيعها ، وعن بصيص قطرة ماء فارة من ندى نبتة... القطيع يركض خلف (عيدة).. مشهد الهلع من هذا القحط يرهق عيدة وينهك القطيع الجائع والظمان...

لا نجاة من قبضة الجوع والعطش في هذه السنة الصفراء.. أيقنت الرفيقتان أنّ حلمهما في عود أخضر للقطيع كان سرايا.. اتكأت عيدة إلى جانب بنت الأطلس تبكي من جوع القطيع الذي أحاط بها يلعط وجهها وثيابها ويقضم جدائلها... بكت عيدة وبكت.. لم تجد عيدة ما تطعم به قطيعها..

غفت الصبيّتان من شدة الجوع والعطش والبكاء و جوع القطيع.. حينئذ كان الحلم مشروعاً من جديد، ورحل بالأطلسية إلى البستان في (فيلا اللوتس) تحشُّ ربطةً من سنابل القمح والشعير.. البستان الذي زرعت فيه القمح والشعير والذرة إلى جانب والدها حين قرر حرق كل الدوالي التي زرعتها (مسيو سيرانو) وأسلافه المستعمرون في سهل (متيجة) لصناعة النبيذ..

زرعت مع والدها سنابل ومرعى لقطيع (عيدة)، وأبادت معه كل
الدوالي التي أعدها (سيرانو المعمر) لمخمرته..
عادت بنت الأطلس بحزمة كلاب أخضر لغنم (عيدة) من بستانها في
(سهل متيجة)...

في بيت الشاعر، في غرفتها (بعد عقدين من الزمن لميلادها
وبعد بضعة أشهر من قدومها إلى بيت زوجها - بُو لحاف):
كانه صوت الأذان... فتحت بنت الأطلس عينيها.. عيدة بجوارها
تطل من النافذة على حوش البيت.. تصغي إليها تردد الأذان مع
المؤذن وتحمد الله على نعمه.. تقف (عيدة) أمام النافذة وقد تخطت
العقد الرابع من عمرها.. عمر من سنوات الرعي، وعمر من نعيم
التنمية والرخاء..

كانت هي (عيدة) شقيقة الشاعر، وكانت الأطلسية هي (كنزة)..
تمتد يد عيدة الحنون على كتف زوجة أخيها :

- هههه أنت نمت على سالفتي عن غنمي في مدّة؟
قومي توضّين قد أدن للعصر..

- شكلك يا (عيدة) هربت من سجائر الشاعر في الصالة!!
هو هكذا دائما يلوث أريج البرك والريحان والسكب في حوض
السطح فيمنعه من أن يعطر الصالة..

- أيوة انسدحت على (امقعدة) أسولف معوه فأزعجني بدخان
سجائره وأخبار الحروب التي يتابعها فشردت منه عندش في
غرفتش..

- أيوه ضحكتُ لما شردتِ منه وتمددتِ إلى جوارِي على السرير
ورحتِ في سالفتك مع غنمك فنت على عذوبة صوتك ورحلت
بعيدا..بعيدا أختلس السير خلفك وخلف القطيع في سنة (وَمَّ
الجلود)..

- أيوه الله يسقيها من مدة على الرغم من شقاء تلك الأيام والحمد
لله على نعمة الرخاء والأمن والأمان في أرضنا الطيبة..

البيتُ المضيف.. (رَاكُ غَالِطُ خُويَا)..

"دارنا صَفَّاحٌ..مُقابله لرياح،
والتي تشوفو تقولو ارواح"..
"كُولُ وَفَرَّقُ وَلَا تَاكُلُ وَاتَدَرَّقُ".
"حَقَّ الغايِبُ..".

هذه الأقوال في الجزائر والتي تتبع من قيم راسخة في الأعماق
هي التي تصنع الفارق بين الطبيعة والتطبع، فتصبح طبيعة ثانية

تضع بصمتها بفعل تراكمي في تداخلٍ (أنثروبولوجي) لسلوك الإنسان. وقبل أن تُعرف أنها من مكارم أخلاق الأمة ، فهي - بفعل هذا التراكم- تصير موروثاً جينياً..ثقافة البيت المفتوح المضياف، وحتمية إكرام عابر السبيل أو الضيف المفاجئ ، ما يسمى بـ "حق الغائب". قيم نشأت عليها "كنزة" في بيت أهلها..

حين قدمت إلى أرض الحرمين ، هذه الأرض الطيبة لم تجد أن عليها أن تبذل أي جهد في التكيف

في بيت زوجها الشاعر "بو لحاف" ..

البيت المضياف الكريم ، فعاشت مع الأهل والعائلة الكبرى ذات القيم التي نشأت عليها..

سقاء..

كرم ترسخه (وُمِّي فاطمة) ببسمتها وإشراقها الهادئة.. ويمين مظلة بطهر مهيب ترسخه في بيت ولدها كقمة جبل شامخ..

كرم امتد من جبل (أمرواح) إلى (جبل قيس) في ديار (ألمع)، في سرمدية الغياهب التي شكلت خصوبة وعطاء هذه الأرض..

(وُمِّي فاطمة) سخية بيمينها، سخية بلسانها، تشعُر كل صباح أنها مُلزمة أن تنسج حكاية لزوجها ابْنها من هذا المطر الصامت الذي خيم على واديهها ، تمضي بـ(كنزة) عبر صحراء قاحلة من السكون الذي ملأ فضاءات الأودية إلى فضاءات تملؤها روائح زكية..

الصباح وقت "أمقروغ"

تسترسل فاطمة بصوت مكتظ.. تسكب دفق شِعْرها الشّعبي
كصلوات تتصاعد في تمتات ريحانة وسكب..

تمسك ذات الكف المخضب بيدها اليسرى.. يذها اليمنى المرتجفة
تنشئن إبهامها صوب (جبل قيس) الذي ينهال اخضراراً على سطح
البيت.. ترصف الجبل.. ترسم عليه فسيفساء.. تمنحه ومضات من
الحياة التي غادرت.. في كل رُصافة تغزل له حدثاً له صانعوه..
سيرة.. حكاية حرب.. حكاية حب..

كلّ صبيحة تَعْرُجُ (وَمِي فاطمة) بـ(كنزة) في حديث سخيّ عاليا
عند السحب المتشابهة..

تلتقي (كنزة) بالطبيعة التي تلامس الفؤاد.. كل الأرجاء تُعْتِقها
(فاطمة) من نوم القرية المحاطة بوهم الطفرة.. تلفّ حول قلبها
العراف.. تهددُ بنشوة طاهرة جوارح كنزة.. صوت (وَمِي
فاطمة) المنبلج من عمق الأزمنة.. خطاها المنهكة التي يحملها
ثرى (تهامة) هي عالم يعيد الموت إلى الموت.. موت القرية
والوادي.. تصنع لها كل الحياة فتشعر كنزة بكل هذا المزيج من
الزهو الذي تشكله حسناء الفاطمات بكل الآمال التي يأتي لها بها
الفجر من عرض البحر ، لتصنع لها تلك الأحلام الفسيحة التي
تهتز لها أطياب تهامة..

هذا الصّباح سوف تعرج كنزة من خلال عقبة (امصمّاء) إلى
مدينة (أبها)..

- يا لله يا ابترتي ألهيّنا على " امقروغ" ، وباقي تطلعين
السّراة.. بدّن امهاجرة وحرّ تهامة.. السّراة دُوا في امصيف..

- وانت يا عمّة، علاش ما تُجيشُ معنا اليوم؟
- لاوه ما تزين لي السراة وكتمتها..
- ما اطلع إلا إلى بَدَنِ امْغُبرة امْصداق..
- في مِدَّة كِنَّا نطلع لامْطارْفَه بقراشنا وقت امْغُبرة ..
- يا عمّة والله عَجبتني هذي الأرض.. هي أرض مواسم وترحال
ما بين القمم والأصدار والأودية ، ولكل وقت جماله..
- بالصّح يا عمّة أفقدك وما أقدر أبقي هناك وحدي..
- خذي عوال عمّش مَعش..
- تمام أستأذن عَزيزي "قيس" وأخذهم بالدور..
- استقرت كنزة مع بعض من إخوان الشاعر الصغار في أبها
الجميلة.. أمطار صيفية وبرَد وأجواء ساحرة.. سماء (السراة) في
صباحات صيفها يغمرها الندى حافيا يرنح وريقات
الفجر.. (السودة) المرشوشة بالرمال البيضاء من البرَد، وشجر
العرعر منتصب يصب بلسمه ونسغه مرحبًا بالمصطافين..
- أيام مفعمة بشغف سديم يخطو خطوة السائرين عبر ممرات
الغابات على مدار أزمنة جبل (تَهَلل) حيث يتدفق الأفق بسحب
ساحرة متعبة تسير نحو السماء ، وتلتقي بأزمنة المطر الذي
يروى شماريخ جبال (الحَزّ)..
- صيف (إيفا).. الملاهي وسمرات ومناسبات مع الإخوان
الصغار.. القرويون الصغار ينطلقون كل النهار للعب والمرح خارج
جدران المُسلّح ، فلم يعتادوا الحياة المعبّبة داخل الشقق..

كنزة وحدها تواجه رنين التليفون التابث الذي لا يتوقف عن الرنين، فالبيت بيت الشاعر الشخصية العامة، والصيف صيف أبها، وصيف الفعاليات ومرتع الشعراء..يصبّون أبياتهم ، حيث تمضي ليالي (السروات) لترسم ظل الغسق، فيركض المطر على الأرض، وتنحرف الغيوم على مياه سدّ (أبها الجديدة) :

- تررن .. تررن .. تررن..

- ألو..ويييي(allo oui)

- سلام عليكم.. هذا بيت أبو خليل؟

الأ..راك غَالِطُ خُوِيَا..ما عندناش هنا بوخليل..

طبّق..

- ترن .. ترن ... ترن...

- سلام عليكم.. هذا بيت أبو حسن؟؟

لا لا خويا ما عندناش هنا بو حَسَانْ..راك غلط..

طبّق..

وهكذا استمر الحال والشاعر يواجه مشاكله في ضبط مواعيده مع النادي الأدبي والفعاليات ومع وزارة الثقافة والجرائد ومع زملائه وهكذا..

صار شاعرنا (بولحاف) عاجزا عن المشاركة في صناعة فرح (إيفا) ماقتًا نبوغه!..

- فيه ناس طلبوني على الهاتف؟؟

- لا ما طلبكش حد.. كلّموا برك ناس غلطانين في الرقم..

- سبحان الله.. كل زملائي يقولون طلبوني..

- يمكن أعطتهم رقم غلط..

- هنا ولا واحد حوس عليك..

- طيب سأعطيهم الرقم من جديد..

- داكور (d'accord)

- دغ.. دغ... دغ جرس الباب يدق..

- أشكون؟

من خلف الباب:

- أنا خالتش جمعة، ومعني عمش عاطف..

- ما عرفتكومش..

- هذا بيت بو خليل؟؟؟

- لالا يا خالتي الحاجة ، راكم غالطين ما عندناش هنا بو خليل..

- دغ... دغ..

- أشكون؟

- عمش ذبيان وخالتش عيدة. أنتو غيال بو حسن؟

- لا.. راكم غالطين يا عمّو الحاج..

- يا ولدي والله تعبنا من عقبة أمصماء.. بديننا نحبي علي
 أمحرمة.. يقولون أبو خليل رَوْحُ حرمثوه وميدَ نرحبُ بها..
 - شوف عمّو..

هنا ماكانش بوخليل ولا بوحسن..

بالصَّحْ عالسلامة تفضلوا رِيحُو تَغْدُوا ومن بعد حَوْسُوا على هذا
 الرِّجَالِ بوخليل وبوحسان في الحومة..

استمرت (كنزة) على هذه الحال :

ناس تطلب أبوخليل وأبو حسن على الهاتف من وزارة الثقافة
 والنوادي الأدبية والعشيرة في صيف أبها المشتعل.. ودنيا الشاعر
 تضرب وتقلب مع زوجته التي تغلق السماعة في وجه الكلّ ظانّةً
 أن الكل يريد في الإزعاج...

أما الزوار ومعظمهم من الشيبان الذين يقصدون بيت (بو خليل)
 للترحيب ب(أمحرمة) وقد أنهكهم طلوعهم عبر عقبة (أمصماء)

وكتّم أنفاسهم التهامية انخفاضُ الضغط الجوي على قمم السراة
 ، وأرهق صدورهم المرهفة نقص الأكسجين في الدم.. لتردهم
 (كنزة) على أعقابهم نحو السودة والعقبة :

ماكانش هنا بوخليل..

ماعدناش بو حسان..

ينزل الشيبان بعدما أخفقت رحلة يغذيها واجب الترحيب بعوال (بو
 حسن) متجهين نحو بيت فاطمة..

- قَسَمَ لَا حَرَمَةَ وَلِدِشْ نَشْمِيَّة؟ وَلَا فِيهَا الْعَرَبَةَ مِثْلَ مَا قَلْتِي
وَتَمَدَّحْتِي..رَدَّتْنَا مِنْ أَمْبَابٍ..

- لَا وَاللَّهِ إِنَّ ابْرَةَ أَبُوهَا شَيْمَةَ نَشْمِيَّةَ ، وَتَرْحَبُ بِأَمْضِيفَانٍ وَشَرَهَةٍ
عَلَائِكُمْ تَذَمُّونَهَا.

بقي الوضع على ما هو عليه:

هجوم على كنزة من كل صوب..

دفاع متعنت من (وَمِي فاطمة) عن قيم وشيم كنزة..

واستمرت تدافع عنها دفاعا أصدق من صرخة..

حتى جاء اليوم الذي تبدد فيه كل الغموض..

- دغغغ...دغغغ...

- أشكُون؟

- خالْتشْ فِضَّة..أَقِيسْ أُنُو بَيْتِ أَبُو حَسَنِ..

- لَا لَا..خَالْتُو رَاكِي غَالِطُهُ مَا عِنْدَنَاشْ بُو حَسَانَ..

- لَا وَاللَّهِ يَا وَلَدِي قَدْ بَدَيْتْ لَهُ الْعَامَ أَمُولٍ..هَذَا بَيْتِ (أَبُو

خَلِيل)..افْتَحِي..

- لَا خَالْتُو شُوفِي الْعِمَارَةَ الَّتِي جَنَّبْنَا أَنْتِ غَالِطَةُ فِي "لَدْرِيسْ"

"l'adresse" مَا عِنْدَنَاشْ بُو خَلِيلٍ..

تصر الخالة فضاة وتدق الباب بغضب..

تخرج أخت الشاعر الموشكة على الصبا مستنفرة من نومها:

- واش فيه يا كنزة؟

- ما على باليشن واحد الحاجّة غلطانة في لُدريس مصمّمه بالّي هذي دار (بو خليل) وأنا قلت لها راك غلطانه..

ايوه ايوه.. ما بشن؟

لا تفضحينا وتردين امضيفان من امباب.. هذي ومي (فضّة) طالعة من تهامة ترحب بشن..

تهرع الصبية "علياء" إلى الباب لاستقبال الخالة:

مرحبا ألف يا خالة آسفة حرمة أخي باقي ما تعرف العرب..

كنزة في وشوشة لعلياء:

- واش بك تكذبين عليها وتقولني هذا بيت بو خليل؟

اصه ابصمي.. ابصمي.. يا كنزة بعدين افهمش.. ادخلي رحبي بامحرمة..

تدخل كنزة غير مقتنعة مرتابة.. تسلم على العجوز..

- حيا الله حرمة ابو خليل.. بسم ربي علاش.. ما حالش يا ولدي وما حال أهلش؟

- سافا. سافا (ca va ca va) الحاجّة..

- خذي هذي لشن واعذرنا على القصور.. ألهيينا علاش.. ميد نرحب بش من يوم رحتي بيتش.. لكن كنت وجعة ومنومة في الرياض، وهذي طبخة لشن..

تعطي كنزة كيسا بداخله قشر البن وهيل و ١٠٠ ريال..

- لا لا يا حاجة ما أقدر آخذه..

علياء بدورها تأخذ الهدية (الطبخة):

- كثير خيرش يا خالة ، تكلفت ومبداش يسد..

كنزة مندهشة في زهول:

- ماذا أصاب علياء أخت زوجها الخلق؟ تكذب على العجوز

الغلطانة في البيت

وتسطو على الهدية؟!!

تخرج كنزة من المجلس..تتادي علياء:

- واش بيك هبلتي؟ تكذبين على العجوز وتقول لي خذي

الهدية؟!!

- لا والله هذا بيت أخي أبو خليل أبو حسن..

- غلاش عندك خاوا آخرين مازال مانعرفهومش؟؟؟ ما قال ليش

خوك عليهم؟..ثم هذا بيت زوجي ما قال لي إنه بيت لأخوه!!

- لا لا هو زوجك وهذا اسمه..

باصح ماقاليش عنده ولد اسمه خليل وولد اسمه حسن!!

- ههههه هههههه علياء في هستيريا ضحك..

- واش بيك ما فهمتش والو..من هذا الجنّ اللي ساكنكم دايمًا؟

يقولوا لي حرمة بوخليل حرمة بو حسان تبغون تروحوني للسجن

كأي في تعدد أزواج!!

كنزة تخمن فعلا أنا وقعت في عيلة مجانيين!!؟

انقطع كل الغموض بعد نوبات الضحك، وشرح الزوج أصل هذه التسميات عند العرب بصفة عامة ، وظهرت براءة (كنزة)، وانتصرت (وَمِي فاطمة):

- شفتوا ؟ قد علمتكم إن امبره نشمية وفيها عربة، ومن بيت خير وتكرم الضيف..

هكذا استمرت فاطمة تشدو بخصال كنزة، تحتفظ بحبها كقطرة ماء تحت جفونها..تنقش وجهها بكلمات عبر مجرى السيل على الريح والمطر تنثر حبها لها في سماوات تهامة والسراة و في صباحات جديدة يعبر صداها إلى هناك..إلى الضفاف المغاربية.. فتملأها توهجا حيث يتوقد الموج مع الأرض..

(كنزة) بنت البيت الكبير المضياف ،حفيدة شيخ المشايخ في أعراف المشيخة لدى منطقة (القبائل الكبرى) بالجزائر ، بنت المجاهد والضابط، بنت البيت المهيا للضيوف على مرّ آفاق كل الأزمنة..لا تزال تبعث من فيحاء الزهور عبيرها الخصب..كرمّ يتميز مع كرم فاطمة من خلال مدّ وجزر مياه البحر المتوسط يحاكي زبد موجه سيول التهائم .

كرم بحلة المواسم الخصبة بالقرب من الحقول التي يتولد منها النسيم العليل والريح التي تنثر اللقاح لتخضر الارض..ويظل جود وكرم فاطمة وكنزة كفارس يمر عبر بيت الشاعر بسيطا راسخا كتحية..

صالون (الكوافيرة) ..

استرسلَ صيفُ (أبها) في السروات عذبا على قممها الممطرة ذات
الجو المعتدل الذي تزفه الأفراح والمناسبات ، وحن الوقت أن
ترسخ (أنوثتها) وتصلقها بكل أنواع ألوان الأناقة ..

حان الوقت أن تكون سيدة جميلة دون إيقاف التنفيذ ، وحلت تلك
الليلة الطريفة ..

في رحلة شاقة بحثا عن

صالون الكوافيرة. في (أبها) !

هاهو صيف أبها البهية ، اشتعلت فعالياته ومناسباته، وبدأ
استعدادها كما تفعل كل النساء..لباس وأكسيسوارات
وكوافيرة..فقد أوصاها صبايا العائلة أن "المشطة التهامية" لا
تليق بمناسبات المدينة..كانت

حديثه العهد بالمكان ولا تعرف أي مرافق عامة من محلات
ومراكز تجارية وطبية وصالونات كوافيرات في حي (شمسان)
بمدينة (أبها)..فاستنجدت بجارتها التي أرسلت معها طفلها
ليدلاها..

جارتها قروية من قرى "أمحبيل" في تهامة، تطلع للسراة للصيفيّة فقط.. خرجت ومعها الولدان "مفرح" و"مشبب" قرويان عفويّان.. تجوب حي شمسان طولا وعرضا دون جدوى. وكانا بدورهما أجهل منها بالمكان.. ولم تنتبه للآفتات التي كتب عليها (مشغل).. فالمشغل الذي تعرفه بهذا المعنى هو إما ورشة لحرفة النجارة أو صناعة الخزف أو مخبر التحاليل الطبية..

أخيرا عثرت على ضالتها :

واجهت زجاجية كتب عليها استشوار.. صبغة.. فرد.. قص.. تصفيف شعر، تنظيف بشرة.. تقشير.. و.. و.. من الأمور التي ألفتها في الصالونات النسائية في بلدها الأم.. تتجه نحو الباب مع الطفلين.. يعترض لها الهندي الذي اعتقدته حارسا للمكان..

- "لا ماما ممنوع ما فيه ايدخل هنا حرمة" ..

- "كيف أبغى أسوي شعري"؟

- "لا ممنوع هذا ولد ايدخل سوا سوا أنت يستنى برّا"

- "لكن أنا اللي أبغى أسوي تسريحة ماهو ولد"

- "لا لا ماما مافي ايدخل أنت هذا ايجي مطّوع سوا سوا أنت انا يروح السجن " "هذا مشغل رجال" ..

- "كيف هنا مكتوب.. صبغة.. استشوار فرد... و... و...؟

فصالونات الرجال في الجزائر تشبه تماما محل الجزار أو المسلخ ، يُعلق عليها لافتة فُظّة كُتب عليها حلاق رجال.. وعليها صورة مقص بشع ومشط وباقي صور الأسلحة البيضاء المحظورة من

المنظمة العالمية لحقوق الإنسان والأمن الدولي..ويقف على باب الصالون العم "السِّي قَدور" لابسا "بالطو" أبيض مفتوحا ليترك المجال فسيحا لكرشته التي لا حدود لها..

والعم "سِي قَدور" الحلاق

يقف عند باب الصالون متربصا للمارة منتظرا رزقه ماسكا شفرته التي لا يتوقف عن سنّها في جدار المحل لعل زبونا يلقي حتفه على الكرسي الغليظ مقابلا للمرأة الأزلية المشقوقة التي يتضاعف عندها وجه الزبون، تقابله على الرف قارورة كولونيا عملاقة تتبعث منها رائحة الكحول التي تشعل حريق غابة بأكملها... العم قَدور الحلاق هو أيضا "الحجّام" الذي يختن أطفال الحي "الختان العربي" يعني ختان بالمشرط و الشفرة دون بنج تحت وقع زغاريد لَحرايرٍ" ..

هذا هو صالون الحلاقة الرجالية الذي ألفتّه في الجزائر..

بقِيَتْ على هذه الحال في جدال مع الهندي إلى أن

تَدخُل صاحب المحل المجاور "السوري" وشرح لها الأمور..عادت تجرُّ خيبتها إلى بيتها وحمدت الله على المشطة والمكعس..

مطالبة بحقوق الرجل..

تتسابُ الأيامُ عذبةً سلسبيلاً..

تتحرر (كَنزَة) من كل الأعباء التي اكتشفت في موطنها الجديد
أنها من مسؤوليات الزوج الذي تُسند إليه كل الواجبات..

بدأت تشفق على زوجها وكل رجال العائلة والجيران من وطأة
هذه الأعباء التي يلتزم بها الرجل..

راحت تنتبذ ركناً في زاوية بيتها خشيةً من ثورة نساء العائلة
عليها..

راحت تكتبُ وتنصفُ هذا الرجل، وترسل مقالاتها إلى إحدى
المجلات التي تستكتبها..

تستحضر كل التاريخ وتكتب..

العرب..

بلقيس..

زرقاء اليمامة..

الخنساء..

حليمة السّعدية..

خديجة..

ذات النطاقين (أسماء بنت أبي بكر)..

قيادة في رواية الحديث ومعركة الجمل (عائشة)..

صور أحاطت بنا منذ الطفولة ، وازدهت بها مقررات التعليم ،
وكنا نحلم بأخبارها وأفلامها ومسلسلاتها كما نحلم بأن نرى
المكان الحلم على شكل حج أو عمرة أو زيارة!!

في المقابل :

كان مروّعا ما نراه في الإعلام العالمي المقروء والمنظور
والمسموع عن مأساة المرأة في المملكة ، تارة باسم حقوق
الإنسان وأخرى باسم الإعلام عن اضطهاد المرأة هنا!!

تستكملُ (كنزة) الحديث عن انطباعاتها :

تشاء أقداري أن تحمّلي إلى مهد هذه العروبة التي طالما قرأناها
تاريخيا وحملنا لها - كأمازيغ- حيننا ما حمّلتنا ذات دهر من
رسالة أو شكت على توحيد الإنسانية سياسيا واجتماعيا..

جئت بالذات إلى (ألمع)..

هنا كانت مفاجاتي الأولى : سقوط ما كنت أحمله من هم الاندماج
والتكيف الاجتماعي كما هي قضية كل غريب.

لم أجد (بخلفيتي الثقافية والاجتماعية الأمازيغية المتوسطة) عائقا يستحق الذكر منذ أطلت على الأهل هنا. ولم أجد في الأعراف والعادات والتقاليد ما لا أستطيع استيعابه. وهذا دليل واضح على تناقض الواقع مع تلك الهالة الإعلامية الغربية التي هيكت عن وضع المرأة هنا!!

أما المفاجأة الثانية فهي: تلك المفارقة العجيبة بين أجيال النساء ، بحيث صدقت الأجيال الناشئة تلکم الدعوى دون استبطانٍ لحقيقة العلاقة بين الرجل والمرأة حتى أدى هذا الأمر إلى مشكلة تكاد تكبر، وهي عدم قناعة كثير من الرجال بالمرأة هنا ، وعدم ثقة المرأة بالرجل ، وكلاهما له حجة الآخر المختلف!! فقد عرفتُ تاريخ والدتي زوجي وجيلها كادحاتٍ عاملاتٍ مربياتٍ مسؤولاتٍ عن الحياة مسؤولية الزوج بل وأكثر ، لكن لقيت الكثير من الأجيال الناشئة من بعدهن يشعرن بملال الحياة لمجرد العمل عدة ساعات رغم المواصلات الخاصة المكيفة (زوج-ابن-أب-سائق..) ، متأففات من العمل بالمرتببات المجزية لساعات قليلة ، في نفس الوقت الذي يبحث فيه أمثالهن في العالم الغربي عن أرباع وأخماس فرصهن لهذا العمل لساعات طويلة وجري خلف عقارب الساعة ورواتب أقل بكثير من زميلها الرجل الذي يحمل نفس المؤهل ويؤدي نفس المهام !! وسألت الأهل

والكثيرات عن السبب فقلن لي : إن طفرةً مادية نقدية حدثت يوماً (ما) في البلد زرعت الاتكال الذي تحول إلى تواكل وسلوك غريب على الجيل الذي نشأ كادحا منتجا حيا..

وتكمل كَنزة :

مما وجدته: تصديق المرأة هنا بادعاءات الاضطهاد وتحول ذلك إلى ظاهرة اجتماعية تشكو المرأة فيه مما تسمعه من الإعلام العالمي ، دون أن تكون شكواها من واقع..

مفاجأتي الثالثة (أو معاناتي الأولى في وطني الجديد) : كانت عبارة عن أزمة مررت بها ، وعانيت منها أسابيع حتى لجأت إلى جاراتي وصديقاتي بكل شجاعة وجرأة لإعانتني على حلها..

كنت أجمع البقايا(الزبالة) حتى تحول المنزل إلى مكان غير مريح.. وكنت أحتاج حاجات المرأة الخاصة من الصيدلية أو السوق!! كيف أقول لزوجي : احمل الزبالة؟؟ كيف أقول له : خذ لي حاجة تخص المرأة من الصيدلية ؟

أراحني معشر حواء بأن هذا من شأن الرجل ، فشككت أنهن ما زلن يرينني غير متكيفة ، ويردن أن يهونّ علي بهذا ، غير أنهن أكّدن لي أنه ليس على المرأة سوى أن تجهز الكيس على باب الدار ، وأن تطلب ما تشاء أياً كان ليقوم الزوج بإحضاره!!

مرّت عليّ السنين وأحببت المجتمع وأحبني، وعرفته كثيرا كما عرفني ، فإذا الرّجل مسخّر في أبسط الأمور اليومية من الزوجة إلى الأم إلى الأخت إلى الأبناء ، وإذا المرأة هي الملكة والناحية والآمرة ، وإذا الحياة في المنازل والعمل والإدارات الحكومية والمؤسسات كيفية لاحترام حجابها ودينها وحرمتها التي تقاقل عليها النساء في أكثر البلدان التي تنادي بحرية المرأة وحقوقها ، واكتشفت أن المرأة هنا مثال حيّ منظور لكامل الحقوق والعزة التي تحدّث عنها الإسلام..

وتؤكدُ (كنزة) :

المرأة هنا كما وجدتها وأعيشها حصلت على حقوق كل النساء في العالم ، وقد تتماهى المرأة في التمتع بهذه الحقوق حتى صار الرجل مجرد خادم لها في الحياة بمحسوساتها ومعنوياتها ، مضطهد مستهلك حتى آخر طاقاته بين القرارات المصيرية والهموم في الأسرة والمجتمع وأدنى تفاصيل الحياة اليومية والآنية ، وإذا كان العالم الغربي الذي أعلمه أدلّ المرأة كثيرا يطالب بحقوقها نظريًا ، فإني أقترح هنا أن تتشكّل منظمة للمطالبة بحقوق الرجل وتحريره من الكثير من الأعباء اليومية التي تستهلك آدميته..

هكذا كتبت (كنزة) تنصف الرجل المثقل بالواجبات والقوامة المفرطة..

صفحات²⁸

بأريجٍ عطرهم

حادثة امثلاجة..

وقفات مع ثلاثجة (وُمِّي فاطمة)...

تمضي الشهور الأولى لـ(كَنْزَة) في بيت زوجها سلسبيلًا..

ترفُّلُ المواسم والأعياد ما بين (السَّراة) و(التَّهائم)..

حَبْلٌ وَتَيْدٌ يَتَماسِكُ بَيْنَ (وَمَيِّ فَاطِمَةَ) وَ(كَنْزَةَ) ، لِيصنعا سَوِيًّا كَلَّ
معاني الأعياد وعبقها الممتد بين (الأطلس الكبير) و(عسير)..

ما أجملَ رمضان هذه السنة!!

رمضانُ شتويٌّ في دفاء (التَّهائم) ، تحت ظلال البيت الزوجي..
عصرًا في أول يوم من رمضان ، (وَمَيِّ فَاطِمَةَ) في حركةٍ دوَّوب
، قد أخرجت إلى ركنٍ من السطح مواعينها التي تصنع الملامح
الرَّمضانيَّة :

مِطْحَنَةٌ..

مِهْرَاسٌ خَشْبِيٌّ..

مَغَشٌّ..

قَلَّةٌ..

قَدْرٌ..

صَحْفَةٌ..

مَوَاعِينٌ طِينِيَّةٌ..

كَاسَاتٌ خَشْبِيَّةٌ.. أَطْبَاقٌ..

أَمْرَنْبِيلٌ..

أَمْطَفِشَةٌ (من الخوص للوقاية من الشمس)..

أَمْجَمَرٌ..

كلها كانت هناك في زاوية المطبخ..

موروثها يحكي قصص الزمن العتيدي حين تحضّر فيه أطباقها
البيسطة..

منظر كل هذه الأشياء كان مألوفاً لدى تلك العروس التي صيغت
من بخارٍ قادمةً من الأقاليم، لأنها ألفت رؤية هذه الأشياء لدى
جدّتها في جبال البربر..

هي ذات الأشياء التي تمتاز دوماً بحلم الطفولة المخملي، والتي
تصنع لنا تلك الصورة الخرافية للجدات.

هناك في جبال الأمازيغ: (جُرْجِرة) و(تَكْجِدة) على شمالي
منطقة القبائل الكبرى.

نسجت هذه الموروثات موعداً لها مع الألفة بها هنا في (جبل
قيس من رجال المع - جنوبيّ السعودية)..

فقد استساغت قبلياً مذاق الطعام الذي تحضره كف معمرة من
الأسلاف ليصنع لنا نكهة زكية بمذاق الأرض التي استئسنا
منها..

هناااالك..

هناااالك..

في زاوية السطح منظر مألوف من الحطب الذي رُصّ بعناية ،
لكنّ شيئاً غريباً يشدّ أنظار (كَنْزَة) :

إبريق عجيب ذو منقار ممتد إلى أطوار العروبة الأولى..

- واشنؤ هذا يا عمّا...؟؟؟؟

- هَالهَا اَمْدَلَّة يَا وَلَدِي... -

واش تُدِيرِي بِهَا؟؟؟

- لَامْقَهْوَة... -

- أُولَا لَا يَا عَمَّا مَاشِي كَيْمَا ذِيَالِي.. أَنَا قَهْوَتِي نُدِيرُهَا فِي الضَّغْطِ
الإيطالي (لُكْفُوتِيَاغ)..

- قَسْم لَا دَرِيْت مَاهِي هَرَجَتَشْ يَا وَلَدِي... -

- تِيَّه حَقَّ الْقَهْوَة الْعَرَبِيَّة.. -

- آه دَاكُوعْ ... -

هنا قد تؤدي الأمور إلى الاصطدام الأذلي المعروف بين العمّة
والكنّة، فالقهوة هي مزاج الشعوب، وللعمّة قهوتها، وللكنّة قهوتها
(الإكسبريسو) الإيطالية.. ولكل منهما عُدته، حان وقت المواجهة
بين الدلّة العتيدة للعمّة، وضغط القهوة الإيطالي الوافد مع الكنة..

- ذَا الْحَزَّة يَا وَلَدِي عَيْنِي كَيْفِ أَسَاوِي قَهْوَتِي ، (وَكأنْهَا تُوحي
لزوجَة ولِدْهَا بِأَنْ هَذِهِ الْقَهْوَة قَدْرٌ وَحْتَمِيَّة تَلَازِمُهَا طِيلَة حَيَاتِهَا
مَعَ زَوْجِهَا (بُو لُحَاف) فِي أَرْضِ التَّهَائِم)..

(مِشْهَفَة) عَلَيْهَا حَبَاتٌ مِنَ الْهَيْلِ وَالنَّخْوَة وَالْحَوَارِ وَالْقِرْفِ وَالزَّرِّ
تَضَعُهَا (وَمِي فَاطِمَة) فِي (مِهْرَاسِهَا) الْخَشْبِي..

تَدُقُّهَا بِيَدِ مَرْتَعِشَة مَكَابِرَة وَيَلَاتِ (الْبَارَكِينْسُون)..

إِيْقَاعَاتٌ مِهْرَاسِهَا نَعْمَاتٌ تَسْتَعْطِفُ بِهَا مَنَعْطَفَاتٌ أَرْدَلِ الْعَمْرِ..

بُنَّها الذهبِيّ اللون ليس كبنّ حرمة أمولد..بُنَّها محمّص برفق لم تجرؤ على تحميصه كليا..ترفق ببُنَّها عند (تحميصه) كما ترفق بحرمة أمولد..فهي تشعر أن لها بقيةً من دَور في هذه الحياة كي ترأف بـ(امبره) ، إذ منذُ قديمٍ بها (بُو لحاف) لم تؤمن بعدُ بها كامرأة..فالنساء اللواتي تعرفهن في زمنها يجالذن بالخناجرأبا فاطمة (النمر العربي).. ويلدّن في شطّانهنّ ومع مواشيهنّ في الجبال ، ويصرمنّ ويزرعن ويروّضن الطّور والوادي..

(وَمِي فاطمة) لم تؤمن أبدا بسيدات زمن النفط ، ولا بالأغذية المعلّبة، ولا بخبز البنغاليّ ، فكيف تؤمن بهذه الزوجة كامرأة؟؟!!

إنها تراها فقاعة صابون قد يتلفها نسيم متسلل من شبّاك المطبخ..تراها بعيون المها الثاقبة التي ترسم وجهها وما بقي راسخا فيه من ملامح عربية خطّتها التجاعيد..

تراها دمية صنعت من زجاج لا تقدر على الصمود أمام كل هذه العروبة في بيت الشاعر(بُو لحاف)..

كانت الأم تنزوي بولدها على (قعادة) شعبية..توصيه خيرا بزوجته:

- يا ولدي امبره ضغفة..خذ لها شغالة أبرق علاها..كيف يا ولدي لو اخترقن؟ يتعبرون بنا العرب..امبره أمانة عندنا لو جاها شي كيف نقضي مع أهلها؟؟..

- يبتسم (بُو لحاف) ساخرا:

- يا وّمّا ليس علاها..إنها مبدّلة من الجنّ لا تَبْرَقين علاها..

كان يتكلم من خلفية عاشها هناك في الجزائر.. لكن كيف تستوعب
 (وَمِي فاطمة) أن هذه المرأة التي تقول عنها (كَنَّا قَزَاوُ) أو
 هالة من بخار.. كيف يشرح لها أنها شَبْلَة من أشبال الكشافة
 الإسلامية هناك ، وأدّت خدماتها المدنية، وتدرّبت على الأسلحة ،
 وأخذت دورات في الدفاع المدني.....و.....و...؟؟!!!

المهم بقي الأمر دون نهاية بينه ووالدته..

استمر الودّ والوصال بين الكِنَّة والعمّة إلى يوم حادثة امثلاجة..

كان موعدا اصطدمت فيه كل الأبجديات..

اللغات..

الثقافات..

المسميات..

ألفت كل واحدة رائحة قهوة الأخرى.. وكم كانت العمّة تطرب

لصوت ضغط القهوة الإيطالي !!

وكم كانت الكنة تنتشي لرائحة القهوة العربية وأريجها الذي كان

يأخذها إلى البعيد لعهد (حمير) ومضارب العرب الرحل في

الخبوت والهجر!! ألفت (كنزة) مذاق القهوة العربية في أرض

الأزد تعدها يدٌ عربية.. لقد سمعت عن القهوة البيضاء في

الصحراء الكبرى الجزائرية لدى قبائل الطوارق في (تاغيت)

و(الأهقار) و(الطاسيلي).. لكن لم يسبق لها أن تناولتها.

حان الأوان أن تُسند (وَمِي فاطمة) بعض المهام الأساسية للكِنَّة:

- إذا خَمَدَنِ امقهوة يا ولدي هَبِيها في امثلاجة..

- كيفاش يا عمّة؟

غلاش نُحَطِّها في الثلاجة وهي سخونة؟ خليها حتى تبرد
ونحطها..

- لاوّه لاوّه ما تزين امقّهوة إذا بردن..

- بالصّح لو كان نحطها سخونة في الثلاجة تخسر الثلاجة
وتتسمم القهوة..

شوفي أنا قهوتي نشربها سخونة من (لكافوتياغ)..

كان أول حوار عقيم بين (ومّي فاطمة) و(كَنْزَة)..

اقترب موعد الإفطار..

استسلمت (ومّي فاطمة) لمشقة يوم من الصيام ، وخلدت إلى
(قَعادتها) مسترخيةً في انتظار المغرب..

(كَنْزَة) حازمة عازمة تبرّد دلة القهوة العربية ثم تضعها في
الثلاجة لتزداد برودة..

أذن للإفطار.. تُقبلُ (كَنْزَة) فرحةً مبتهجةً ببرّ أم زوجها..

ثلاث تمرات..

فنجان (ومّي فاطمة) الخشبيّ في يدها..

تتقمص بنت (البربر) شيئاً من عروبة الأرض لتصبّ القهوة
العربية باردةً مثلجةً مع حبات من التمر لعمتها لعلها تحظى
ببركات دعواتها عند الإفطار...

- سَبْعَة..

سبعة..

لمة يا ولدي؟..

اختفى الرفق والتودد!!!

- أنت ميد تاتين حرمة يا ولدي فلا تخربين امقهوة..

امقهوة هي وجه العرب وبيت الحرمة..

- مي نُو أنت اللي قلت حطّيتها في الثلجة!!

أنا حطيتها في الثلجة.. الثلجة يعني ثلج والثلج يعني برد..

- لاوّه لاوّه .. امثلاجه ارقيا تيه.. (مشيرة إلى الترموس)..

- آه هنا ما نتفاهموش يا لالا فاطمة.. هذا ترموس ماشي ثلجة..

لغة القلوب..

تتعاقبُ الصَّبَاحاتُ والمساءات تحتَ السَّقْفِ المُنِيرِ للزَّوجين..

سَقْفٌ تحتَ ظلالِ دَهْرٍ من الأُمومة..

تحيطُ بـ(كَنْزَة) و(بُو خَليل - بو نُحاف)..

حبُّ طالما سمعنا وقرأنا عنه وعن لغة القلوب... نهيم فيها بكل

جوارحنا إلى ملكوت الغزل.. الحب..

نبحر إلى ضفافِ سَرمديّةٍ لنوغلِ إلى ما وراء تآلف الأرواح

والقلوب المولفة ، وتآلف ما تعارف منها..

كل هذا وذاك يكمن في أذهاننا..

يحوم حول شجنِ قصصِ ورواياتِ الحب العذريِّ بين آدم وحواء

منذ الأزل..

أما (كَنْزَة) فعرفت لغة قلوب مختلفة تماما عن أعراف

وأساطير البشر..

الشموس عند لقائها تشع دوما نورا لم ندركه من قبل ، وذلك
حين أرادت الأقدار أن تلتقي شمسان تحت سقف بيتها..

كوكبان مشرقِي ومغربيّ..

اندثرت كل المفاهيم التي صنعتها السياسات وخطوط الطول
والعرض الوهمية والحدود الجغرافية..

بكل بساطة كانتا هنا مختلفتين في لون الجلد والملبس واللسان
والمنشأ..

بينهما عقد من الزمن ، ومسافات مما يألفه البشر هنا وهناك من
نواميس اجتماعية وحياتية بصفة عامة..

كان التلاقي عفويا دون رسميات.. تقاسمتا ذات الطبق ؟ وابتهجتا
لذات الفرحة ، وتألمتا لنفس الأحران ..

كانتا تحملان ذات الاسم ، وكان الأقدار تهدي (كُنْزَة) دوما موعدا
للبرّ مع الفاطمات...

حين يقبل موعدُ قهوة (العصاري) تضربان موعدا مع الحب..
ينبلج من كل رشفة قهوة ترتشفانها..

سردٌ من علوم الأحبّة هنا وهناك من العابرين في حياة كل منهما
من الباقيين ومما سيكون..

كلتاهاما تخبر الأخرى بروايات عالمها الصغير..

بآمالها البسيطة المشروعة :

حسن الخاتمة وستر ذويها..

هذا أقصى ماترجوانه من الله وبكثير من الخجل، لأن من شيم
النجوم ألا تطلب مزيدا من النور، إذ ليس من شيمها اللوم لأن الله
أنعم عليها بالضياء والعمر الطويل..

جلسات القهوة..

جلسات الغداء والعشاء..

سَمَرُتُهُمَا عَلَى طَرَائِفِ التَّلْفَازِ..

مواقيت لتآلف الأفتدة..

تأخذ (كَنْزَةَ) إلى أبعاد الفطرة البشرية التي لم تتخاطب إلا بلغة
القلوب قبل أن ينقم الإنسان على نفسه بمقت العنصرية وما ابتلي
به من اختلاف الألسن ، ويجعل من ذلك مسلكا شقيت به الإنسانية
جمعا..

لكن والدتيها (وَمِي فاطمة) و(يَمَّا فاطمة) كانتا صرّحا لكل (اللّات)
لم تعرفا شيئا عن هذا المقت..

بكل عنفوان تخاطبتا بما أحبّتا بعضهما في الله..

لكنّ (كَنْزَةَ) - بنت اللغات وبنّت المنطقَةَ اللغوية - لم تكن
تستوعب هذا التواصل السهل البسيط بينهما..

إن كل ما تعلمته من علوم في اللغات وفقها وتركيبتها في
العائلة التي تنتمي إليها ، واختلاف اللهجات المنبثقة منها في
الدلالات...و... علوم أثقلت كاهل بني آدم فصرخت بالسؤال:

- (يَرْحَمُ وَالِدَيْكُمْ.. أَنْتُمْ تَجَامَلُوا بَعْضَكُمْ سَنِينَ ، وَلَا وَحْدَهُ مِنْكُمْ

تفهم لُخْرَى !!

- يا (ومِّي فاطمة): لَهَجَتِكَ تَهَامِيَّةٌ عَرَبِيَّةٌ مِنْ زَمَانِ حَمِيرٍ..
 - وأنت يا (يَمَّا) ، يا بنتِ لُمَسِيدِ تَاعِ فَرَنَسَا : هَدَرَتِكَ رُومِيَّةٌ مَخْطُطَةٌ
 أَمَارِيغِي عَلَى شُويَا عَرَبِيَّةً.. كَيْفَاشْ تَفْهَمُوا بَعْضُ ؟؟ رَاكُمُ تَجَامَلُوا
 بَعْضَكُمْ !

بكل بساطة تُجيب (لَا فاطمة):

- والله أفهمها..

أفهمها بقلبي وخاطري..

وردت (ومِّي فاطمه) - والدة (بُو لُحَاف):

- لاوَة يا ابْرَتِي..

ليس يغرنني في هرجتها شيء.. (امقلب) ذا يفهم يا ولدي...
 أدركت (كَنْزَةَ) حينها أن لغة القلوب هي آية الله في خلقه...
 وهي شيء آخر مما يختلف عن لغة القلوب التي عرفت في
 قصص (روميو وجولييت)..

هي بكل بساطة فطرة آدم ولسانه الذي نبع بعبارات نُحِتَتْ في قلبه
 قبل أن تطفو على اللسان..

(بُو لِحَافٌ)..الراهبة بُرُتي (burthey) والشيخ (التيجاني)..

- نداءُ القلم..

تعودُ (كَنزَة) إلى ماهية قلمها شيئاً فشيئاً..

بإصرارٍ تقررُ سكبَ ذلك البوح المتراكم في نسغ القلم..

تستحضرُ تلك الأيام التي تلت وفاة والدها المجاهد

حين مضت نحو صباها تهزيمٌ وطأة اليُتم ، فلن تكونَ أبداً

مستضعفة.. تمضي دوماً على الدروب التي ترسخُ فيها قوة

المُجاهد ، وتصلُ الفارسَ الذي أوجده (سي عبد القادر) في

كينونتها حاضرةً في كل ميادين الكشافة الإسلامية واتحاد الشبيبة

الجزائرية وكلّ الممثليّات المدنيّة التي تصنع منها المرأة
الجزائرية الحرّة.. يَدْعُمُها في ذلك أساتذتها في مراحل الدراسة
والتمهّن :

صفات ذهنية عليا (haute qualités de réflexion) ...

أيتها الطفلة الضالة لا تندي قلمك..

يا عروس الخطابات.. لا تؤذي قلمك بمنطقتك..

أيتها الصبية المنزوية في آخر المدرج أعتقي خيالك من قيود
منهجيتك العلمية..

هكذا كانت ملاحظات أساتذة (كَنزَة) عبر مراحل دراستها..

السيدة برّتي (Burthy) الراهبة الكاثوليكية أستاذة الأدب
الفرنسي التي درستّها في المرحلة الثانوية (ثانوية عمارة رشيد)
في (ابن عَكُون) في الجزائر العاصمة، وصقلت قدراتها في هذه
اللغة بكل ما تتضمنه من قواعد ونحو وصرف، وإلى أبعد من ذلك
في لغة متخصصة بمجالات الأدب والفلسفة والعلوم الإنسانية
بصفة عامة، وأسس التحليل والنقد والبناء..

الراهبة (برّتي) أساتذتها الفرنسية كانت أول من دفعها إلى كتابة
المقالات الجدلية الفلسفية التي كانت تُسهم بها في مجلة
الثانوية، وكانت ملاحظاتها دوما صفاتٍ ذهنيةً عليا..

- الشيخ (التّيجاني - شيخ المَسِينِد ، أي: المدرسة) معلمها في
المرحلة الابتدائية والشاعر المتصوف من الزاوية التيجانية..

لا زالت تذكر ملاحظاته على مواضيع التعبير الكتابي : الفقرة، ثم الإنشاء:

موضوع شيق.. تسلسل في الأفكار.. لكن أيتها الطفلة لا تأسري قلمك.. دعيه يحيا على الصفحات.. لست أكثر صوفية مني، وأنا معلمك الشاعر الصوفي أعتق قلمي في ملكوت الجمال، فكوني مثل معلمك أيتها الشقية..

- الشيخ (باكير الإباضي) ، أستاذ اللغة العربية في المرحلة الثانوية:

أرهقت قلمك بالمنطقية والمنهجية يا عروس الخطابات ، أعتقي خيالك من جفاف المصطلح ، دعي كلماتك الجميلة ربانا يبحر على القرطاس لتتحت على صفحات الموج أجمل المعاني والصور..

- الشيخ (الزياني) سليل الأشراف (بني زيان) :

هذه المسطرة الصفراء ستحطم مقاييس التلخيص واختزال الكلمات التي تحصرين فيها خيالك..

- هذه الباقة من المعلمين من أزمنة المعلم المزهر حررت فكر (كنزة) من يرقته إلى فراشة تهيم على صفحات المجالات الجدارية في المرحلتين المتوسطة والثانوية ، وبدأت تنشر مقالات في المجالات التعليمية، وتصوغ الخطابات المنمقة لاتحاد الطلبة الجزائريين..

تباشير ومؤشرات مشروع كاتبة، رغم ازدواج لغة فكرها وتفكيرها..

كل الأساتذة من حول أبناء المدرسة البومدينية - آنذاك - كانوا ممن يعتبر هذه الازدواجية بين الفرنسية والعربية في صياغة الفكرة ذهنيا هي غنيمة حرب وليست غزوا فكريا..

هؤلاء المعلمون المشرقون منهم الأزهرى ومنهم المتصوف، ومنهم المرابط ، ومنهم من كان من قدامى شيوخ (جمعية العلماء المسلمين) من شيوخ المسيد (أي: المعلم)..

كانوا كلهم يعتبرون اللغة وسيلة تواصل لا نمطية فكر..
فالفراנקوفوني ليس بالضرورة متعنّتا للفرنسية هجين الثقافة ،
والمعرب كذلك ليس بالضرورة متطرفا أو متزمّتا في فكره...

ازدواجية لغة التعليم في المدرسة (البومدينية) نجحت في أن تصوغ لدى الطالب فكرا وثقافة متوسطة تتداخل فيه مقوماته الثقافية (الأمازيغية والعربية) متمازجة باللغة الفرنسية، لتعززها اللغة الإنجليزية في المرحلة المتوسطة ، ولغة أخرى في المرحلة الثانوية..

من هذا المنطلق كان على باقة أساتذتها أن يقموها في الكتابة في ظل ازدواجية لغة فكرها ، فليس مَهْمًا بأية لغة تولد الفكرة..
بدايات كتاباتها..

خطواتها في الكتابة في بداية الثمانينات كطالبة بين المتوسط والثانوي..

دعم أساتذتها..

ومنهم الأستاذ الشاعر (بُوْ لُحاف) من جزيرة العرب، أستاذها في الأدب العربي في المعهد العالي لتكوين الأساتذة في (بو زريعة - الجزائر العاصمة) ..

دفع ودعم :

- أنت مشروع كاتبة فلا تُوذِيْ ملكتكِ الأدبية بآليات (البيداغوجيا) وقيود الترجمة العلمية التي تتوجهين إليها ..

الشاعر (بُوْ لُحاف) - الراهبة الكاثوليكية (بُرتي) - الشيخ الصوفي التيجاني - الشيخ (باكير الإباضي) - الشيخ الزياني من بني زِيَّان .. كلهم .. أقرُّوا وعزموا على أن تكونَ (كَنْزَة) كاتبة ..
خطوات أولى واثقة، تُروِّضُ فيها قلمها، ويروضُها خيالها ..
تنساب كلماتها على الصفحات منتشية ..

تباشير ربيع أدبي يعدها ..

حراك ثقافي يرى نوره متأججا في المنابر الشعرية والأدبية في الجزائر ، يوازيه إرهاب شعبيّ ، فغليانُ وانشقاقُ الشارع الجزائري :

مظاهرات خريف 5 أكتوبر 1988 ..

أعمال شغب وعنف ..

اختلاط الحابل بالنابل ..

نهاية الثمانينات مقدمات مقيتة متوعدة بغسق القبور المفتوحة إلى السماء تتقن كل فنون نحت أسماء الضحايا على شواهدها ..

الإرهاب..

الإرهاب..

عتبات المسّ من الموت الغادر..

الأحداث المهووسة بابتلاع أشلاء الضحايا العابرين على أرصفة
المنيّة..

سلسلة القتل الجماعي وطلقات الرصاص العشوائية على المارة..
جماعة (الهجرة والتكفير) على عروش الأحكام بالحدّ على الفكر
وعلى العلم..

أقلام في يد أديب وشاعر كطفل ضال يخشى الريح والذئب
والعاصفة..

جؤ مريب للكاتب والأديب والصحفي :

أنت شيوعي..

أصولي..

علماني..

أنت تكتب..

أنت جبهة - ما - ضد تيار - ما - ..

عليك أن تكون عدوا لفئة - ما - ..

عليك أن تتناسى حلمك .. رسالتك .. أن تنسى إلى الأبد ذلك الزمن
الذي كان فيه الرجال أطفالا ..

مجازر واغتيالات ..

اغتيالات دون هوية ..

دون ماهية ..

اغتيال رجال الدين ..

اغتيال الراهبات والرهبان ..

اغتيال السيدة (بُرتي) وهي تصلي في الكنيسة الكاثوليكية
(كنيسة السيدة الأفريقية) في أصدار جبل (بوزريعة - العاصمة) ..

اغتيال الشيخ (التَّيجاني) وهو يوم المصلين في محرابه ..

اختطاف الشيخ (الباكير) من المدرج وهو يلقي محاضرة الفقه
واللغة والتكبير به أمام الطلاب ..

اغتيال (جَمال شَمَلا) ابن خالة (كَنْزَة) الضابط وهو يستعد
لزفافه ..

اغتيال الأمن والأمان ..

اغتيال الفكر والكلمة والعلم ..

اغتيال الصحفي (إسماعيل بن يَفْصح) والكاتب (طاهر جاووت)،
وطعن الكاتب الحقوقي (محفوظ بوسبسي) - بطعنة الموت - أمام
ابنته عند عتبة بيته في حيّ (تَلِيمَلِي) ..

اغتيال العلم والمعرفة باغتيال الباحث والعالم ووزير التعليم
العالي (جِيلَالِي الْيَابِس)..

بالذبح والنحر وطلقات النار اغتيال أصابع الطباشير ترسم على
فضاءات السبورات دروبا صلبة للتلاميذ..

اغتيال معلمات (سَيِّدِي بَلْعَبَاس)..

اغتيال الجزائر كلها مع آخر نفس للرئيس (بو ضياف) على منبر
كلمات الأمل التي امتزجت بدمه واحتضاره في (عَنَابَة)..

جفت كل الأقلام أمام هذه الأوجاع التي تتشقّ من الجحيم..

أقلام باهتة في رقصة "فالس" حول جثث تتحول إلى مومياءات
تحاول الكلام.. تترقب من يبرر لها سفك دمانها.. جثث تتحول إلى
أصنام تأبى دخول القبور لتشهد للتاريخ كيف تُغتال الأوطان..

وفي تسارع (أرض الشهيد) في سباقها نحو الخراب:

خطى أقدام مذعورة وعيون من زمن آخر باكية..

دموغ محصورة في انحناء متجّل يصقله موت غادر بيد سفاح
يغرق أمانى بنت انتظرتها أمها ٢٠ عاما..

والدتها تمد إليها يدها تأمرها بواد قلمها ، والكل يشيع (رشيدة
حمّادي صديقتها الصحفية المغتالة :

(عَرَضْتُ لكَ وَجَهَ رَبِّي مَاذَرْدِيشُ تَكْتَبِي كَلِمَةً.. أَعْطِينِي عَاهِدَ رَبِّي
مَاتَكْتَبِيشُ حَتَّى نَمُوتُ)..

وهي عاهدت والدتها أن لا تكتب بعد ذلك اليوم.. وجفّ قلم (كَنْزَة) ،
وتعثرت حروفها في أغوار المحابر التي يختلط حبرها بالدم
الصمغيّ العالق بأشلاء ضحايا تفجير مطار (هوارى بومدين)
وضحايا (شارع عميروش) ومجزرة (قرى بن طلحة)..

حبرها صمغيّ كذلك الدم الذي يصرّ على لزوجته حتى لا يجف
ليبقى محتضرا مع روح صاحبه العالقة في حنجرته.. تتمم
متوسلةً تسأل جلاها :

بأي ذنب جعلتني قربانا عند اقتراب شهر رمضان؟..

بأي ذنب قتلت؟

بأي ذنب قتلت؟

عاهدت والدتها..

أخرست حروفها..

وفي (خليج الجزائر) من أعلى قمة في أعالي العاصمة سكبت
مخبرتها، ومعها سكبت كل الدماء التي تنزف من جراح ذراعها
المصاب في تفجير إرهابي في سوق (الأبيار) حيها العتيق..

وحين عودتها من تشييع جنازة (رشيدة) سكبت مخبرتها في
(خليج الجزائر العاصمة)..

بين الفاطمتين..

بين الفاطمتين كانت (كَنْزَة) تعيش كل المفارقات..

وعدها لوالدتها بالإقلاع عن الكتابة ، وإخفاءها لما تكتبه خلسةً ،
وتستُر (وَمِي فاطمة) عليها حين يصيبها مسٌّ من بوح القلم،
فتخذ (كَنْزَة) إلى زاوية من غرفة والدتها زوجها ، لتسقط أحزانها
أنقاضاً على الصفحات..

كانت (كَنْزَة) تخشى أن تُغضب والدتها وتنقض ذلك الوعد..

كان موعداً شرساً يوم اغتيال صديقتها الصحفية والكاتبة (
رشيدة حمادي) ..

يومها ارتقت الأرض إلى السماء لتفلت من قبضة الجلاد الذي كان
يتربص بالمارة على حافة الطريق.. وكانت أسوار المدينة فظةً
تكشّر عن قبحها ، ودروب الغدر فيها بليدة تعبت بالأرواح في يوم
اغتيال (رشيدة)..

بعد الجنازة صلت (كَنْزَة) العصر مع والدتها في مسجد (الخلفاء
الراشدين) بحيها العتيق (الأبيار- أعالي العاصمة الجزائر).

بعد الصلاة تناولت والدتها المصحف وطلبت منها أن تعدها ألا
تكتب أبداً:

- عَرَضْتُ لَكَ وَتَشَّنَّ رَجَبِي لَوْ كَانَ تُزِيدِي تَكْتُبِي كَلِمَةً ..

فَفَعَلْتُ ..

وَأَيْدِي كُلِّ الْأَقْلَامِ ..

تواصلت الاغتيالات، وسبقتها اغتيالات أخرى ..

في ذلك اليوم المشؤوم يوم اغتالت يد الإرهاب صديقتها الصحفية والكاتبة (رشيدة حمادي) جَفَّتْ بقية الأقلام، وانطوت كل الصفحات .. ومضتْ (كَنْزَةَ) مع رفاقها في موكب يشيِّعون جنازة (رشيدة) ويُشيِّعون معها كل أحلام أبناء الاستقلال ..

همسات أحرف كانت منهكة ، لكنها فسيحة تتدفق على النهر وعلى البحر المؤدي إلى مقبرة (العالية - مقبرة الشهداء) لتتمرد على الجلاء ..

قَدِمَتْ (كَنْزَةَ) إلى بيت زوجها (بُو لحاف) في أرض الحرمين وعلى عاتقها وعد ثقيل لوالدتها، تضمّ معه شتات صفحاتها إلى صدرها، وشتات ذراعها المحترق من تفجيرٍ مروّع في سوق الحي الذي تقطن فيه .. تتشبَّثُ بشتات أوراقها وصفحاتها المأسورة بين أدرج ممتدة من (الأطلس الكبير) إلى جبال (الحَزِّ) في (السروات) ..

تلك الأوراق التي كانت - رغم وعدها - تعبر كل اللَّيَالِي دون غَدٍ صنعها الإرهاب لا غَد لها ولا سند .. لكنْ ما كان يواسيها هو ذلك الضياء المنساب إليها من الدَّفءِ بين أسطرها ..

رَحَلْتُ (كَنْزَةَ) بَعِيدًا عَنِ لَحْدِ (رَشِيدَةَ) ، وَأَرْضَ الشَّهِيدِ بَارِدَةً تَقْفُ
عِنْدَ كُلِّ الْعَتَبَاتِ ، فَتَنَامُ كُلَّ مَسَاعِدَاتِ (مَرْغَنَةَ) عَلَى الْجَفُونِ
الْفَسِيحَةِ الْمَفْتُوحَةِ عَلَى نَهْمِ الْقُبُورِ..

قُبُورِ مَفْتُوحَةٍ لِلسَّمَاءِ تَتَرَقَّبُ مَزِيدًا مِنَ الضَّحَايَا..

أَرْضِ الْحَرَمِينَ..

أَرْضِ الْحَرَمِينَ..

كَانَتْ ذَلِكَ الْمَهْدُ الَّذِي أَعَادَهَا إِلَى زَمَنِ الطَّفُولَةِ الْمَمْتَزِجَةِ بِطَعْمِ
السَّكَائِرِ..

عُودَةٌ إِلَى تِلْكَ السَّكِينَةِ الْقَبْلِيَّةِ الَّتِي تَرْتَقِي بِهَا كُلَّمَا اتَّجَهْتَ مِنْ
مَغَارِبِ الشَّمْسِ شَرْقًا لِلصَّلَاةِ إِلَى الْقَبْلَةِ.. عَادَتْ تَسْكُبُ دَمْعَهَا
الْقَاحِلَ عَلَى حُرُوفِهَا الْمَهْجُورَةِ ، يَغْسِلُهَا دَمْعُ يَهُوِيٍّ مَتَرْنَحًا مِنْ
غَيْمَةٍ عَطْرَةٍ أَعْلَى جَبَلِ (تَهْلَلْ - فِي دِيَارِ عَسِيرِ) فَيُوقِظُ كَلِمَاتِهَا
عِنْدَ أَفْنِيَةِ غَابَاتِ (الْعَرَعَرِ) الْمُنْتَظَرَةِ عِنْدَ الْحِصُونِ الْحَجْرِيَّةِ لِقَرَى
السُّودَةِ..

عَادَتْ (كَنْزَةَ) إِلَى مَا هَيْتَهَا ، وَتَجَرَّدَتْ مِنْ هَلَعِ أَزْمَنَةِ السُّوَادِ ،
وَرَاحَ قَلَمُهَا الْمَحْتَضِرُ يَسْتَشْعِرُ نَسْعَهُ مِنَ الدَّمِ اللَّزِجِ الَّذِي جَمَدَ
فِي شَرَايِينِهَا مِنْ شِدَّةِ الرَّعْبِ .. عَادَ مِنْ جَدِيدٍ يَتَرَدَّدُ مَوْجًا مَذْعُورًا
مُسْتَفْزَأً عِنْدَ ضَفَّةِ كُلِّ خَاطِرَةٍ.. لَكِنْ وَالدَّتْهَا كَانَتْ هُنَا مَعَهَا..

أَقْنَعْتُ وَالدَّتْهَا بِالْعُودَةِ إِلَى عَمَلِهَا الْأَصْلِيِّ فِي التَّرْجُمَةِ لَا لِلْكِتَابَةِ ،
لَكِنَّهَا حَاصِرَتْهَا مِنْ جَدِيدٍ أَنْ تَعْمَلَ تَحْتَ اسْمِ مُسْتَعَارٍ..

كَانَتْ تَرَاعِي دَائِمًا هَوْلَ أُمَّ انْتِظَرْتَهَا عَشْرِينَ عَامًا..

عادت (كنزة) إلى عملها كمتريجة تعمل من بيتها..
 كان عملها عبر الهاتف والجوال والإيميل والرسائل النصية..
 حان وقت العمل في الغرفة الفسيحة ذات النافذة التي أعادت إليها
 سياقها..

نافذة كبيرة مفتوحة على الشرفة وعلى صيف (أبها) الممطر..
 تعيدُ كل مقومات الكتابة التي تلهمها وتجعلها تركز..

صوت محركات المركبات في الشارع..

شيء من ضوضاء المدينة..

صيحاحات بعض الأطفال الذين لم يتخلوا عن طفولتهم يلعبون كرة
 حزينة في الشارع الذي يكاد أن يكون خاويا في النهار الذي
 ينتظر استيقاظ النائمين..

بعض شيبانِ الحيّ من الوافدين الذين لا زالوا يمارسون فطرتهم
 في طقوس الجيرة..

تحاول (كَنزَة) أن تفتعل مدينة صاحبة مثل مدينتها المفقودة!!
 تبحثُ عن الضجيج.. عن الصخب..

عن المارة يصنعون حياة الرصيف وحياة الساحات العامة.. تُحرِّك
 (كَنزَة) في أزقة المدينة رفات الظلال.. ظلال المشاة التي تتراقص
 عند العدم عند أفياء المباني الصامتة..

لعلها تجدُ شيئا من نبوغ لسان (الغال) الذي تُترجم إليه ملحقات
 أزمنة (حمير) وسيرة الأزدي في أرض (الْمَع)..

تجلس على طرّاحة (وَمِي فاطمة)..

تلتفّ من حولها الكتب في فوضى..

هناك في الزاوية مكتبها المهجور الذي تنبذه لأنها لا تستسيغ
السطور التي تولد فوق الخشب الصلب المتجمد..

سطورها مولود يولد من حضنها على مخدّة تتأرجح بين حجرها
والأرض..

تصمّم والدتها على أن تجلس إلى جوارها في غرفة المخاض،
وتجلس إلى ركن في الشرفة (وَمِي فاطمة) التي تمقت كل
الجدران التي تحجب عنها السماء، وتحجب عنها ليل الصيف
السرويّ الذي يشتد غسق دجاء عند اختراق النجوم..

(وَمِي فاطمة) كانت دليلها ومنارتها في ترجماتها عن ثقافة
المكان، حيث كانت (كنزة) تكتب التاريخ الذي تترجمه من وحي
ذاكرة أمّ زوجها الشفاهية..

أما والدتها فكان دورها دور المَحْرَم..

تعرض على كل الأصوات الرجالية التي تتحاور معها في العمل..

كانت (وَمِي فاطمة) هي اللسان الناطق لسطور ما تترجمه
(كنزة)..

كان الحوار بينها يسترسل إلى وقت طويل من الليل..

كان خصام والدتها شرسا عندما تكلم زميلا عبر الهاتف..

- يا عمّة.. أنت تذكّرين يوم بيعة آل سعود ؟

- ايوه يا ولدي.. بَرَّهْنَا بِالْفَالِ مِنْ (امْرَواخ) مع خالتي وريناهم
ثُمَّ فِي سَوْقِ (الاحد)..

- كم كان عمرك؟

- والله لا دريت عن عمري..الواحدة منّا في مدّة لا تعرف عمرها..

- كيفاش يا للاً فاطمة ما تعرفيشن عمرك؟

- سُونِبَا نُوْرَمَال

(Ce n'est pas normal)

تضيف والدة (كَنْزَة) بالفرنسية..

- ما ادري..

وصلنا (سوق الأحد) وبايعنا مع العرب ورحنا نحو جبلنا، وفي
امطريق جاني شي ما قد ضريت بوه، وحسيت بغرق في سروالي،
ويوم علمت خالتي قالن: خلاص قدش حرمة..

هكذا كانت (ومي فاطمة) تستنطق كل كتب التاريخ التي تترجمها
(كنزة) ، فتحيا المترجمة مع كل الذين عبروا (عسير) منذ سالف
العصور..

تحدثها (ومي فاطمة) عن المخلاف السليماني وحكم الإدريسي،
وحكم السيد (مصطفى) في (الشعبين) ، وعن قري (المتع)
وقبائلها ، وعن قرية (رُجال) وحضارتها..

تحدثها عن منازل النجوم والفصول ومواسم السيل والزرع
والحصاد في تهامة والسراة..

تحدثها كثيرا عن ميلاد (المملكة العربية السعودية)..

كانت والدة زوجها (وَمِي فاطمة) تبني الحادثة التاريخية في

عسير..

تعبُرُ من خلال جسدها النحيف عبْرَ معالمٍ ومنعطفاتٍ زمنية في
تحولات ذلك الجسد الأسمر الفارع الطول لتستنطق كل التاريخ
في ترجمات (كنزة) إلى لغة الغال..

- في الغرفة بين فاطمتيها، كان دهر الأمومة يتراءى لـ(كَنْزَة)
عتيدا، وزمن الحداد أزليا..

حزن (وَمِي فاطمة) كان نبيلًا صامتا قاحلا من الدمع على رحيل
أبنائها في زمن السَّقْمِ (الملاريا)..

وكان هلع والدة (كنزة) ورعبها من يد التطرف والإرهاب على
ابنة ضالة بيدها قلم متمرد ، كان رعبها مدويا ، وكان سقف
الحجرة سماويا يلوح بريقه متوهجا عند ابتسامه كَلَّتِي
الوالدين..

ابتسامه تتبادل فيها روحاهما الطاهرتان نظرات المباركة للكاتبة
مع النجم والبدر المضيء..

مباركة..

سكينة..

حزن يلفه ليل تمرد في سُمْكِهِ..

جَرَفِ امْسَقْمِ (الملاريا) السبعة الأبناء لـ(وَمِي فاطمة) ، وروّع
الإرهاب والدة (كنزة) على بنت انتظرتها عشرين عاما..

بين فاطمتيها كان دهر الأمومة عتيدا وزمن الحزن ممتدا، وكانت
تستشف من ذلك الدهر العتيد كل الأمومة التي غابت عنها ،
وكانت تعيد ذلك الابن الذي لم يأتِ يحتبي في سمردية السموات
إلى جوار الملائكة عبر أمومتها لها..

تَلدُهُ أحرفا على صفحاتها..

كانت الغرفة كلها مخاضا للأمهات اللاتي كنّ ، والأمهات اللاتي لم
يكنّ..

حوارات تلهمها، وجدال يعرُجُ بها إلى ملكوت الأمومة التي لم
تلقها..

- يا طفلة كيفاش تَهْدَرِي مع الرجال في التلفون؟!!

- يَمَّا هذي خِدْمَتِي معاهم ، ولازم نديرها..

- عيب يا طفلة رايك في رَقْبَةُ راجلٍ.. ما تَهْدَرِيش مع الرجال ..

- قَسَمِ اَيُّ مَا فَهَمْتِ هَرَجْتَهَا.. لِمَهْ تُخَاصِمَشْ؟!!

- يا عمَّة أمِّي تُخَاصِمْنِي تقول لا تُهَرِّجِي اَمْرِجَالِ..

تلتفتُ (وَمِي فاطمة) لوالدة (كنزة) تحاول إقناعها :

- لَيْسَ علاها ، كلهم غوالنا..

- الأ يا (للأ فاطمة) كل شي في بِلَاصْتُو (مكانه) ، هَدِي رَاهِي فِي
حُرْمَةِ راجلٍ.. كِتَهْدَرُ مع الرجال رَاهِي تَكْسِرُ الحُرْمَ تاغها وتَطِيحُ
بَقَدْرُ راجلها..

حينئذ يتحول عمل (كَنْزَة) من ترجمة الكتب إلى مترجمٍ مُحَلِّفٍ بين
أم الزوج وأمّها بكل صداقية...

تلتفت (وَمِي فاطمة) إلى والدة المترجمة بكل عفوياتها القروية:

- لَيْسَ عَلاهَا..

لَيْسَ عَلاهَا..

قَدْ تَهَرَّجْنَا فِي مِدَّةٍ وَلَوْ مَعَ امْجُنُونٍ.. الواحدة تَهَرَّجٌ فِي امْسُوقٍ
وَفِي امْجَبَلٍ وَهِيَ تَحْطَبٌ ، وَفِي الْبِلَادِ وَهِيَ تَصْرَمُ ، وَعَلَى امَّايِّ

وَهِيَ تَسْتَقِي ، وَمَا اَدَمَّا شَيْءٌ...

هكذا كانت تستمر الحوارات عقيمة بين الوالدين.. بين الأم بنت
المدينة وبنت المدرسة الفرنسية وكل تلك المفارقات في ثقافة
(عَيْبٌ.. عَيْبٌ.. كُلُّ شَيْءٍ عَيْبٌ يَا طَفْلَةَ) ، وثقافة (وَمِي فاطمة)
التَّهَامِيَّة القروية العفوية الواثقة من شخصيتها..

- لَيْسَ عَلاهَا...

وهي بينهما تنتشي من حنانهما، وهناك في زاوية السماء كان
الأفق مُدَانًا لأمومتها بتاجٍ من عَرَقِ اللؤلؤ.. قسماتهما أحرف،
وحديثهما دفق سلسبيل على الأرض، وحزنهما بركان خامد..

كل المعاني لديهما تلد قمما من العدم ، لتمضي في صمتٍ كلُّ
الأحزان، ويعود الحدادُ إلى الأزل تاركا أريجا ممتدا هو

عطرهما...

كانت (كنزة) ترتشف حُبًا حاك إيلياذة التآلف والود بين (أرض
الشهيد) و(أرض الحرمين) حبا وسهرا عليها كل واحدة بفطرتها
وعنفوانها..

استغفري الله يا والدته..

كان لسقف البيت باب مفتوح إلى السماء ، تتصاعد من خلاله دعوات الوالدتين.. دعوات تتصاعد إلى السماء وترفل في كل أرجائه تبارك (كَنزَة) و(بُو لحاف)..

تكاد (كنزة) لا تفارق أبدا (وَمِي فاطمة) التي تخطت المائة عام..

جسدها كان يشد خطواته الضعيفة متراجعا إلى عهد طفولته الأولى.. بشرتها الحنطية تعود إلى أطوار أجنحة اليرقات.. تستعطف خطوات متواهنة متعثرة بين حُجرتها والشرفة ، لعلها تلحق بعضا من مشاهد العالم الذي جرف أزمنة كل التحولات إلى عينيها المغمورتين بالماء الأبيض..

كانت تستحضر كل لمسات الرقة واللين حين تمسح (كنزة) بكفها جسدها كي لا توجع ما تبقى من جلد رقيق يكسو عظامها الهشة المتآكلة نحو آية أرذل العمر..

تلك الطفلة الصغيرة المعمرة التي يتشبث بها العقل والحكمة والذاكرة التي ما زالت تزخر بها ناصيتها إلى حين احتضارها وهي في غيبوبة..

في سكرات الموت تمسك بإبهام زوجة الابن.. تضغط عليه كمولود يمسك بطرف الحياة التي قدم إليها، لتطمئن أنها وهي في غيبوبتها تحس بها حين توشوشها :

- يا عمّة.. يا عمّة.. أنت تسمعيني؟ اضغطي على اصبعي.. فتفعل..

جبهتها.. وجهها الأزدي المنطفيء ما زال يتوهج عند حواف منديلها الأصفر الملتهب..

تلك (الشَّيْلة) المقلّمة بكل الألوان ما زالت تُتّوج رأسها ألوانا
يَسْتَشْفُها القماش من مرعاها وسمائها وزبد السيل الراغي في
واديها في أرض التهائم والسراة..

ألوانٌ هي لم تفارقها أبدا حتى حين طغى اللون الأسود على معشر
الأنوثة في الجبال..

كانت دوما تعافر السماء وتقول للجلاد دعني أكن أنا..

دعني أحيا بألوان جبالي..

جسد منك مستلقٍ على منحى يتأرجح به نحو آخر المطاف
مرتجفا..

تخفي - في عزّة

واستحياء - ذلك التأرجح وذلك الأرق الذي يلازمها طيلة الليل..

أرقٌ ورجفة (الباركينسون).. لم تعد تلاقي النوم..

تغفو.. تستشعر (كَنْزَة) حين تتردد عليها ليلا فتتقمص ملامح النائم

المهيب المستغرقة في أحلام الطيور حتى تطمئن زوجة

الولد.. تُصغي إلى لازمة تمتماتها..

تمتمات دون نهاية..

تمتمات لا تفصح بها حروفها المرتجفة عند عتبات شفيتها

المرتعشة..

تمتمات..

تمتمات..

هي دعوات ومباركات لـ(كنزة) بالستر والعافية..

(وَمِي فاطمة) لم تعد عيناها شرفاً تطل على الحياة ، فقد غمرها
الماء الأبيض.. أجريت لها العملية بنجاح..

وعادت عيون المها شيئا فشيئا إلى الارتياح..

كان يكفيها أن تكون فقط صورُ أحببها في سياق تلك العيون التي
كانت تغوص في الزمن العتيد إلى عمق جفنيها فيغتسل فيهما
سيل وادي (خُرار) والسديم الذي يلف الثريا والجوزاء في سماء
جبل (تَهْلَل)..

جرعات من المُسكّنات... (كورس) دقيق من جرعات
(الكورتيزون) من القطرة والمراهم والأقراص في أوقات محددة
محفورة بجداول على صفحات (كنزة)..

هكذا كانت الكنّة الأطلسية تسترجع معها بعضا من زمن عينيها..
في إحدى ليالي صيف أبها التي تزخر بالأعراس، كان عليها أن
تحضر مناسبة عائلية مع كل سيدات العائلة، ولم يكن لها أي
اختيار إلا أن تسلّم مهامها إلى "بولحاف".. تسجل له كل الجرعات
ووقتها الدقيق بدقة متناهية :

- بِالْكَ تَغْلَطُ..

بالك بشويّه عليها..

بالك توجّعها كتقعدّها باش تحط لها لقطرة..

بالك تُشدّ راسها بقوّة..

وصايا..

وصايا..

وهي تغادر البيت لساعتين..

- لَيْسَ عَلَيَّ..

ليس علي..

استريحِي..

عادت إلى بيتها وصيحات (وَمَي فاطمة) تستنجد بها:

- لا عادَ تَسْرِينِ وَتُخَلِّينِي لِهَذَا الْإِدْمِي ، فَقَعَّ عَيْونِي وَاغْرَقَ

وَجْهِي بِأَمْقَطْرَةٍ ، وَاغْرَقَ فُرَاشِي مَائِي..

أَرْقِي ثُوبِي وَفِرَاشِي كُلَّهَا غَرَقِنُ..

قَسَمَ لا عادَ اَهَبَ لِي شَيْءٍ مِنْ أَمْعَلِجَاتِ فِلا عادَ تَتَّكِلِينَ عَلَافُوهُ...

هكذا أوقعت (وَمَي فاطمة) الحدَّ على ابنها الوحيد ، ولم تعدْ تقبل

به ولا بأبي أحدٍ يقترب من جسدها الضعيف..

أخذتْ (كنزة) بتعليماتها، ووضعتْ خطأً أحمرَ لـ(بولحاف) في

غرفتها لا يتعداه حتى لا يُعَنَّفها بعطفه الخشن وجلافة لمساته..

وضعت له حول سريرها حدوداً إقليمية لا يتخطاها..

جسد منهك إلى نهاية المطاف.. يتغلغل في هيكله رماد المائة

عام..

قرن من الديمومة تعيدها إلى الطفولة الأولى..

يدها الضعيفة تتشبث بيد (كنزة) ..

تخلقها أمًا للطفلة الصغيرة التي أعادها قرن من الزمن إلى
جسدها النحيف ..

صارت (كنزة) أما لطفلة عمرها مائة عام!!

طفلة معمرة يضيق نفسها ..

يؤلّمها صدرها ..

تحتبس أنفاسها الضعيفة ..

استنفار وذهاب وإياب إلى طوارئ المستشفى....

- إلى طوارئ المستشفى..قاعة انتظار السيدات ..

كل السيدات مستترات باللون الأسود ، وكل العجائز (التهاميات)
المحكوم عليهن بالصيفية في (السّراة) في عرف الأبناء ..

في القاعة العجائز التهاميات كلهن هنا مختنقات تحت وطأة اللون
الأسود وقلّة الأكسجين في المرتفعات..كن يختنقن ..

من حينٍ لآخر كانت إحداهن تصرخ من الكتمة، فتسرع الممرضة
الفلبينية بالأكسجين وتصرّ العجوز على غطوتها:

- ماما هذا غطا شيل برّه أنا في ركب أكسجين ..

هذا هنا كلو كلو حُرمة ما في رجال ..

- لاوه... لاوه..امولّد برّا يخاصم ..

تتبادل (كنزة) الحديث مع الممرضات.. تشرح لهن حالة (وَمِي فاطمة) المُستعجلة..

تقع من جديد في طرائف العجائز :

- امكّهلة تِيه ما معها العوال؟

- عانّدها ولانّدها..

- الله يهّبّ علاهم لِمَه يَرَجْمُون بها في الطّواري وَيَفْلحون ؟

الله يسعدش قاعده معها من الصّبْح..

- يا والده هذي للاً.. هذي يمات مولا بيتي.. قصدي عمّتي عمّتي..

يستنطق (كنزة) سيدات من هناك.. أصوات تنهال عليها :

وين شغالتها؟؟..

وين شغالتها تكفّيش!!!؟؟؟

- ما عندها شغالة ولا عندي شغالة...

- كيف.. كيف.. كيف.. لِمَه.. لِمَه.. لِمَه...؟؟؟؟!!!

وابل من التعجبات والأسئلة انصبّ على الكنّة وهي تحاول أن تشرح لهنّ وهن من جيلها عن ثقافة عاملة البيت، وعن المرافقة الوافدة..

تلك الثقافة التي لم ترتق إليها بعد، ف(كنزة) لن تقبل يدا غريبة تواسي آلام أحبّتها..

سخرن كلهن منها.. ثقافة الكنة الأطلسية هي ذات الثقافة التي
تقاسمتها مع (وَمِي فاطمة) وبينهما 65 عاما من أجيال
وأجيال.. وستة آلاف كيل من المسافة..

في خضم كل ذلك ، كان كل العجائز في القاعة يباركنها
ويستجوبنّها بتلك الطرائف من الحوارات التي تلازمها مع عجائز
(عسير) في كل لقاء..

أما هناك في الزاوية ، فكانت سيدة تتربصُ بنظراتها (وَمِي
فاطمة)..

نظرات اتّهام وتوعد..

خلال ذلك كانت (كنزة) تخرج لـ(بو لحاف) في الخارج يختلس
التدخين في حديقة المستشفى لتستعجله في إسعاف والدته ،
وتعود إليها في القاعة..

عادت وإذا بتلك السيدة المتوعدة منكبة على (وَمِي فاطمة) تصيح

:

- استغفري الله..

استغفري الله..

استغفري الله يا والدته..

صاحت (كنزة) :

يا عمّة..

لا يا عمّة مادريهاش ما تخلينيش..

انهمرت دموعها..

لا لا تموتي يا عمّة..

والمرأة لا تزال منكبةً عليها تصيح : استغفري الله..

يدُ (وَمِي فاطمة) المرتجفة تتحرك.. تحسبها الكنة ترفع يدها
للتشهد ، فهذا هو الثبات عند الموت.. كل مراسيم الاحتضار كانت
تجري أمام عيني (كنزة)..

تبكي..

تكلم زوجها على الجوال..

تتحب..

تجري في الرواق..

تستجد بالمرضات:

- سِسْتَرْ... سِسْتَرْ..

أكسجين أكسجين..

ماما خلاص ماما خلاص في موت..

تعود إلى القاعة حيث (وَمِي فاطمة) تلفظ أنفاسها الأخيرة..

تقتلع (وَمِي فاطمة) الصبية التي لا تزال تسكن جسدها المنهك..
تقف صرّحا تدفع السيدة المتمردة بيدها.. تصيح في وجهها:

أَنْقَلِ عَنِّي سَبْعَةَ..

دَقَّاقِنْ دَقَّاقِنْ هَالسَّعْلَاهُ..

وَجْهِي لَيْسَ عَوْرَةَ يَا سَيِّحِينَ...

- استغفري الله يا والدة..

اتَّقِي الله يا والدة..

تَغَطِّي تَغَطِّي..

- لِمَ تُطَلِّعِينَ عَمَّتَشْ كَاشِفَهُ؟

- مَي تِيي فُلْ دُو كُوا جُو مُو مَال... (mais tu es folle de)

quoi je me mêle

(أنت مجنونة ما دخلك) ؟

فقدت (كنزة) صوابها، وهي ترى المرأة تهاجم (وَمَي فاطمة)..
تبعد (وَمَي فاطمة) (كنزة) عن تلك السيدة ، وتصرخ في السيدة
بعدها استحضرت كل أكسجين التهام إلى أوردتها:

ما بِشْ هَالْمَخْلُوقَهُ عَلَى امْبِرَهُ؟؟

تتدخلُ (كنزة) :

- واشْ دَارْتْ لَكْ يَاعَمَهُ؟؟

- المَلْعُونَةُ تِدَانْ أَنْ تَغَطِّي وَجْهِي بِشِيلْتِي..

والله لولا الحيا ان نُنشِرْ عَلَاهَا وان نَدِقْ لَحْيَهَا ما يَبْقَى لَهَا سِنُو..

هكذا كانت (وَمَي فاطمة) تقود المعركة..

إلى جانبها (كنزة) التي استحضرت تلك اللبوة الأطلسية التي
فُطِرَتْ عَلَيْهَا.. تهاجم السيدة الواعظة وتخاصمها بكل لغات
الإفرنجية والإنجليز وخليط من لهجة (حمير) التهامية في شجارٍ

جماعي بمساندة عجائز تهامة والتفاف الممرضات اللواتي كنَّ
يهدئن الجميع..

معركة استحضرت فيها (كنزة) اللبوة الأطلسية التي تسكنها
، واستحضرت معها (ومّي فاطمة)
(أبا فاطمة) - النمر العربي الذي استنسخت منه عند وتد جبل
(امرواخ) - ..

في صحاح تقول فيها سيدة (عسيريّة تهامية):

دعوني أمت وأنا أنا..

لا تسلبوني حجابي الأزلي..

لا تسلبوني إيماني العفوي بالله..

لا تهجنوا ديني..

أطعت الله وأنا أرى غمي..

صليت لله وأنا أزرع وأحصد وأحمد على نعمه..

دعوني أحب الله الذي يحبني..

دعوني إلى حجابي..

دعوني أحب الله الذي وعد المؤمنين الصادقين بالجنة..

دعوا إليّ حجابي الأزلي..

يصل (بؤلحاف) بعد تدخلات ووساطات من كل المعارف
للاستعجال بحالة (ومّي فاطمة) وتنويمها في العناية المركزة..

يدخل القاعة مع (الكنسيلتو) الطبي وطقم العناية المركزة..

يسأله الاستشاري الذي لا يزال يلبس لباس غرفة العمليات:

أين الحالة؟

أين المريضة؟

تشير (كنزة) له إلى (وَمِي فاطمة) التي تتأبطُ وِزْرَتِهَا متصدرةً

معركةً الوغى تصفع المرأة الواعظة بيدها المرتعشة..

يلتفتُ الطاقمُ الطَّبِّيُّ المُسْتَنفِرُ إلى (بُو لحاف) وعلى وجوه الكلِّ

علامات الاستفهام.....

أشياءٌ بعطر يديها..

بين فاطمتيها تحيا (كنزة) فطرة الحياة ونواميسها وسننها وحكمة
بني آدم..

تحيا سرمدية الأمم التي بقيت في السماء ولم تلقها..

لكنها تعبرُ إليها من خلالِ نوافذِ نائمة تفتحها الوالدتان بسكبي من
الحنان ينسابُ من قلبِ أنبلجٍ من مشرقِ الشمسِ وآخر يقتبسُ
دفعه من أشعة كلِّ الشموسِ المشرقية الآفلة في سباقها إلى أرض
المغرب.. فلن تغيب أبدا عن (كنزة) بعد وفاة والدتين ما زالت

روحاهما تظللان بيتها بتلك المعالم في زوايا البيت تَكْنِزُ ذكرى
عبورهما من الحياة إلى ملكوت البرزخ..

تدخلُ (كنزة) غرفةً والدتها..

ما زال عطر (للأ فاطمة) وكل مقتنياتها من (الجزائر) هنا..

تستحضرُ طيفَ والدتها يرْفُلُ في (حايكٍ لِمَرَمَّةٍ)..

حين يقترب موعد رحلتها.. رحلة الجزائر - جدة - أبها.. تمتطي
"حايكٍ لِمَرَمَّةٍ" الذي تعود إلى رحابه كلما نزلت إلى الجزائر
للإجازة ، فهي لم تتخلَّ عنه منذ أن حجَّ بها والدها سي / "محمد
الشيخ" في سن التاسعة كما كان الحال لكل بنات (القصبة) في
العاصمة..

وكم كان صعبا عليها أن تتركه لتلبس لباس المعتمرات حين
قدمت للعمرة.. تعود إليه كلما حطت الطائرة في (مطار هواري
بومدين) ، فلم يفارق حقيبتها اليدوية حين تصعد إلى الطائرة
طول إقامتها ٢٠ سنة في المملكة..

وهكذا ختمت وفاءها لحجاب أبيها (الْحَايِكُ وَلَعْجَارُ) أثناء رحلتها
الأخيرة نحو مسقط رأسها في رحلة الوفاة..

تستعد لرحلتها..

تزدان بِالْحَايِكِ الذي يلفها بدفء كفّ والدها وستره مع إحدى
صبايا العائلة نحو (القصبة السفلى).. نحو (لُقَواسٍ) لشارع (باب
عزون) و(زَنْقَةُ لَعْرَايسٍ) في عمق الأحياء الشعبية لـ (القصبة
المحروسة)..

كانت من بين القلائل من المسنات اللواتي لا زلن يرفلن في ظلال
الحايك...

تجوب هذه الأحياء العبة في (الجزائر العاصمة) نحو دكاكين
الحرفيين من " بني مزاب" ..محلات النحاس العاصمي..نحاس
(عرداية)..نحاس (تلمسان)..نحو ورشات الفضة لحرفيي " بني
يئي" ..ومعارض الخزف والفخار...مرش...محبس
النحاس..الفؤارة..السني..فرخ السني..تبسي عشاوات..بقلات
الحناء..شمعدان النحاس..طاسة حمام لعروسة...طقم (الكسكس)
من الفخار والخزف..و..و.. سترمبيات الجلد الطبيعي..زهرة
الرمال..ضغط القهوة (الكحلة)..مقتنيات ضاربة في عمق
ثقافتها...

والدة (كنزة) هداياها من عمق زمن (مسينيسا) تعبر بها إليها
مرفرفة بهذا الموروث عبر الصحاري والبحار نحو المملكة في
عمق (رجال ألمع)..

والدتها لا يقل لديها معدن النحاس قيمة عن قيمة الذهب، فهو
مثل الذهب يصنع فرحة العروس، وهو مفتاح عبورها إلى الحياة
الزوجية.. هو جزء مهم من جهاز العروس العاصمية، يرافق
موكب جهازها بزفة (الزونة) القصابوية.. يصنع أجواء يوم
(الشورة)، وأمسية (حمام لعروسة)، و(ليلة الحناء) و(صباح
الخوارة)..

تقتنيها..تفرش حقيبتها الأزلية بقطعة قطيفة تلفها في قطع شاش
مقصوص بعناية..تلفها مرة أخرى بقطع كبيرة من القطن، وبخرق
من قطع الكتان ثم في مناشف سميكة..

ترصها بعناية با(لشطرطن)..تحكم شدها مع بعض داخل الحقيبة
وتضع فوقها ومن جوانبها البلاستيك المَهْوَى..تقفلها،وتحط
ملصقات (fragile) سريع الكسر. وهي مع مرافقيها من
الأسرة تشحن أمتعتها في المطار..ترجّ أرجاء ما حولها أمام
(كاونتر) الشحن:

- (بالك يا وليدي!! يُعَيْشَكَ يا وليدي بالك على نحاس الطفلة)..
وتعيد نفس الطقوس في مطار الملك عبد العزيز في جدة.. الكل
في مطار جدة عليه أن يعتني بنحاس الطفلة!!!
زمنٌ من نحاس الطفلة تأتي به والدتها من الجزائر..
تعتني به عدة مرات في السنة، ولها طقوس لتبييض النحاس:
تحضر الخل والليمون والملح..تفركه قبل رمضان..المواسم،
وترتبه من جديد..توصي به (كَنْزَة) خيرا:

- (يا طفلة بالك على النحاس.. بالك تخليه يَحَال..بالك
ترميه)..

تحتبسُ كل دموعِ الفقدِ في عيني كَنْزَة :

- الله يَرْحَمِك يا يَمَّة

تحدّق في صورتها المعلقة على الجدار..

تخاطبها:

رِختِ يا يَمَّا.. ما زال نحاسك وخزفك وتحفك التقليدية هنا في
غرفتك..

تختقُ كلمات (كنزة) وتصمت.. تتأملُ كلَّ قطعة وتخمّن :

نحاس أمي ما يزال يكنز عطرها.. يديها التي كانت تهدده
 ..أريجها.. عطرها (سوار دو باريس). (soir de paris)
 الممتزج برائحة العنبر التي تفوح بها أصابعها.. عطر أمي.. طيب
 أنفاسها.. هنا في حجرتها.. أشياء أسكنتها غرفتها.. غرفتها اليوم
 هنا تتنفس نحاسها مع العَلم الذي تُهدينيه في كل عودة تعود فيها
 إليّ من الجزائر...

نحاس أمي في غرفتها الرحبة التي كانت تتسع لكل العائلة في
 سمراتها مع الكل.. قهقهات الأطفال والشباب على لغتها العربية
 المكسرة بلكنة فرنسية.. كل سمرات صيف أبها العذبة.. اليوم
 نحاسها يطلق طيب الأمهات.. أريج العنبر والمسك.. كل شيء ما
 زال هنا في غرفتها..
 كل شيء.. كل شيء..

كل شيء إلا سريرها الفسيح الذي كان يسع كل أطفال العائلة من
 حولها..

سرير أمي الدافئ الفسيح لم يعد هنا..

صباحاتٌ من الزمن الجميل..

(سهيل أميماني) يتأهب للرحيل ليصنع مساءاته المخملية على
 آفاق غربيّة..

الشمس المحتشمة تكاد تطل بخجل على الوادي العتيق..
من هناالك..

من تحت ظلال سدرة يداعبها شذى صوت (للاً فاطمة)
والراعيات، في دعوة لتناول رشقات من القهوة العربية وكسرة
من خبز الذرة.. شدّت كنزة خصرها بـ(الفشوري) - الوزرة) التي
أهدتها (وُمي فاطمة) عند مقدمها إلى هذه الديار..

طوّقت رأسها بمنديلها الأصفر.. امتطت حمارها

في بطن الوادي تزفنها طروق العمّ (قيس) الذي قطع شوطا كبيرا
من الحرث في شطّانه..

تباشير الصباح الطفولي النديّ بدأت تعزف أنغام الحياة
المسترسلة على القرية الحاملة..

القهوة التي تنساب في حنجرتها مذاقا لطعم الفطرة تعدها (للاً)
فاطمة من شجر أرضها.

تعطرها بأنفاسها القروية، وتطهوها على حطب شجرها..

(وُمي حصّة) تقدم ربطة علف لحمار كنزة رمز سخاء.

(وُمي حصّة وُومي نالة وُومي راعية) وغيرهن

سيدات من زمن الفطرة..

ما زلن عربيات :

بشرتهن الحنطية السمراء.. عيون المها..

استنساخ وتناغم مع تربة أرضهن..

يَتَقَنَّ لُغَةَ شَطَائِنَهُنَّ وَرَفِيفَ عُرُوجِهِنَّ وَثَغَاءَ غَنَمِهِنَّ..

هِنَّ امْتِدَادَ لِحْيَاةِ أَرْضِهِنَّ وَلِكُلِّ الذِّينِ مَرَوْا مِنْ هُنَا..

سِيدَاتٍ لَمْ يَعَاصِرْنَ بَعْدُ عَصَرَ الصَّمْتِ وَالتَّخْفِي فِي وَادِيِهِنَّ..

فِي هَذَا الصَّبَاحِ :

أَبْنَاءَ العَمُومَةِ يَمَارِسُونَ مَعَ (كَنْزَةِ) شِيمَةَ الضِّيَافَةِ وَآدَابِ

السُّؤَالِ..

ثَلَاثَةٌ مِنَ الشَّبَابِ المَشْرِقِ يَلْتَفُونَ حَوْلَهَا يَنْسُجُونَ - فِي وَقَارِ قَدَرِ

الْعَمَّةِ..

صَوْتٍ مِنَ حَشَاشَةِ الأَرْضِ يَدْعُوهَا لِتَعْرِفَ مَعَهُ شَطْرًا مِنْ أُنْشُودَةِ

القَطْفِ :

أَبِي (مَرِيْعٍ) يَهْدِيهَا حَفْنَةً مِنَ التَّمْرِ..

الْيَدِ الَّتِي تَمْتَدُ نَحْوَهَا هِيَ ذَاتُ الأَرْضِ الَّتِي تَصَرُّ عَلَى ضَمِّهَا..

عَلَى الرُّوَابِيِّ وَالتَّلَالِ المَمْتَدَةِ مِنْذِ الأَزْلِ قُرُوبِيَاتٍ فِي مَوْكَبٍ مِنْ

الألْوَانِ يَلْفُهُ سَدِيمٌ مِنَ السَّحَابِ وَالمَطَرِ اعْتَلَيْنِ صَدْرَ الجَبَلِ نَحْوِ

السُّوقِ الأَسْبُوعِيَّةِ لِلكَسْبِ وَالرِّزْقِ..

حَزِيمَاتٍ مِنَ الحَطْبِ.. بَعْضٌ خَيْرٌ مِمَّا تَجُودُ بِهِ أَرْضُهُمْ:

غَنَمٌ.. إِبِلٌ.. بَقَرَتَسَعَى عَلَى الأَرْضِ.. وَفِي أَنْفَةِ وَعَنْفَوَانِ تَخْطُو

مَعَهَا الرَّرَاعِيَاتِ..

وُمِّي (رِيْعَةٌ) - وَقَدْ حَنَى قَامَتَهَا الدَّهْرُ - مَا زَالَتْ تَمَارِسُ مَرَاثِمَ

البَقَاءِ مَقْبَلَةً بِقَدْحٍ مِنْ حَلِيبِ عَنزَتِهَا لِتَسْقِيَهَا لِبْنَا سَائِغًا..

هي لا تفقه لغة كَنزَة كغيرها من الأخریات ، ولكنها - مثلهن -
 بارعة في حياكة لغة الحب والعشرة وروابط الإنسانية..
 تحدثها بلغة الأمومة.. أمومة الأرض الثرية التي تجمعهن..
 تستوعب حب كنزة لها وللأخریات..
 انتهى وقت القهوة..

انطلقت كنزة مع (لَلا) فاطمة نحو (أمبَند)..

أمبَند هي الأرض التي تحيا عليها (لَلا فاطمة) منها وفيها..
 انحناءاتها على (التُّوم) تخطها بفأسها البدائي الصغير هي وترّ
 يخط في ذات الوهلة عَلاقة هي إلى الأبد رباط بينها وبين السنبلَة
 وعذق الذرة وجدائل الدخن..

في هذه القرية الصامدة ما زال الأطفال- كواديهم - يحلمون
 بالمطر والحقول الخضراء .. يداعبون عروج السدر.. يشاكسون
 حمار العم (ذيبان) الذي لا يغضب من شقاوتهم..
 الأطفال هنا ما زالوا يمتطون الحمير..

يجنون الثمار..

يطاردون العصافير في جنبات الوادي..

ما زال الصغار هنا يلعبون .. يغنون.. يضحكون.. يكون..

يصرون على طفولتهم..

ما زالوا مثل واديهم يحلمون بمواسم الخصب وبيادر الذرة
 والدخن والشعير..

كأنه الضحى !!

صوت فظ غليظ يرجّ الأرض تحت قدميها !!

يطير فنجان القهوة السوداء من يدها !

تفتح كَنزَةً عينيها..

أمامها الجبل الساكن العاتي جامدا، والوادي المهجور من طيوره

، وزمن من النفط !!

محرك سيارة صهريج الماء (الوايت) يدوي في حَوْش البيت..

(للأ فاطمة) آفلة مع كلّ الفاطمات..

(كانونها) الطينيّ في الزاوية يئنّ لتحيب الأرض ،

يروى مواسم رحيل النجوم..

الغربان المصرية على البقاء تنعى رحيل الزمن الجميل..

ريفٌ يمقت الراعيات !!

لم يعد للقرية مكان في القرية !!

(للأ فاطمة) آخرُ الشموس البرية الراحلة عن الوادي..

ولّت سيدة الكلمة التي تشع حديثًا وزمنا عذبا مِنْ لحدّها..

مضتْ..

وهاهي كنزَةٌ - مع فنجان القهوة - يُثقلُ الحزنُ كاهلها..

تحمل وزر بنت الأزقة والشارع الصاخب والمدينة المفقودة !!

مضت (وَمِي فاطمة) و(يَمَّا فاطمة) ومضى العمُّ (قيس)..
قدرها أن تبكي والدين في المغرب ووالدين في المشرق !!

حين تستعطفك الجدران..

سيدة وقورٌ تحبني عند أنحدارِ (جبل الصَّفِيح) في حيِّ (شمسان) ،
أحد الأحياء الجديدة التي تمرت على الأوطان الطينية آنذاك في
(أبها)..

سيدةٌ لم تكن تعلم أن سلطان الزمن سيجرفها إلى ملكوته، ولن
تبقى دوماً فتية التقاسيم في حيها الذي بدوره يشيخ مع السنين
ليصبح قديماً...

سيدة تباهت كثيراً بوجهها في أزمنة الصبا ، لكنها لم تحظ -
كسيدات الأعوام التي تلت ميلادها - بكل الموضات الوافدة من
كندا تارة، ومن تركيا ومصر والمغرب وآسيا تارة أخرى..

فالمألوف عند الأنثى التباهي دوماً بـ(اللوك) الجديد..

سيدةٌ أقل حظاً من أترابها في الحي واللواتي كنّ يتغيرن مع كل
(لوك) جديد ، لأن صاحبها لا يهتم بهذه التفاصيل..

ظلمت السيدة وهي صامدة شهدت كل خطوات التنمية والتطور
العمراني في المدينة..

طوّقت بحزامٍ ، ولم يعد جبلُ (الصفیح) مملكتها لوحدها..

عروشٌ من سيدات أجمل وأكثر صبا ، بوجوه فتية يانعة التصقت
بها، فشحب وجهها لدى المارة، وبهت لونها ، ومثلها طوّق حيها
بحزام حاصره وحكم عليه بالقدم، لتدخل كل السيدات داخله في

سن اليأس ، ويشهد ما بقي خارج هذا الحزام سيداتٍ بوجوهٍ
جديدة شابة في رونق من كل المواضع الوافدة..

السيدة الوقور هي بيت (كنزة) و(بُو نحاف) عند منبت جبل
(الصفيح).. تتشبتُ (كنزة) بالبيت القديم.. تأبى مغادرته إلى بيت
جديد في أحياء حديثة.. تجوبُ الحجرات تخاطبُها :

أيتها الغالية بغلاء كل الأعراف الذين عاشوا في رحابك.. كنت أعي
حين قدمتُ إليك ، وقررت العيش في ظلالك أنك لست مثل أخواتك
في الأحياء الجديدة في (أبها).. لست معماراً حظي بزخرفات
حضارات (البترو دولار) ورفاهية طفرة النفط، لكنني أحببتك كما
أنت بحب من عشتُ معهم تحت سقفك.. لحجراتك رائحة والدٍ
ووالدةٍ وعمٍّ وعمّةٍ..

أعراف معمرين سعدوا معي بين جدرانك المتواضعة..

حجراتك تكتنز برائحة الأحياء.. تحفظ آثارهم..

تكتسي بلون بشرتهم..

تتنفس أريج طيبهم وبخورهم..

حجرات ترسم ملامحهم على عتباتها..

يتردد فيها صدى رواياتهم.. أفراحهم.. تراتيل العمّ (قيس) للآيات
في الأسفار في صيف أبها..

دعوات (وَمِي فاطمة) قبل الإفطار في مغارب رمضان.. رائحة
قهوة أمي (للأ فطومة).. قهقهاتها مع الإخوان الصغار وهي -
دون جدوى- تحاول تعليمهم الفرنسية..

ذكرى وروح نُحِتت على جدرانك القديمة التي استشفت شقوقها
من ملامحي ، ومن سحناتهم قساماتها..

جدرانك أيتها السيدة العتيدة تشبههم وتشبهني..

تستعطفني أن لا أتخلى عنك..

أن لا أبيعك جارية منهكة في سوق الرقيق أمام وابل الاحتجاجات
التي نواجهها من الأهل والأصدقاء.. صدى احتجاجاتهم يتردد
لكنزة :

- (ما أنتو مَيِّدَ بهذي الخرابه وبهذا الحي القديم)؟..

- بيع...بيع...بيع...

- خذ لك فيلا بمسبح ..ب...ب...ب...

- لِمَ تبقين في هذه العمارة القديمة وأنت بنت الفيلا الفرنسية،
وبنت الحي الراقي في أعالي العاصمة؟!!

تردُّ عليهم (كنزة) دوما:

لأنني بنت الفيلا الفرنسية التي كنت أبحث فيها دوما عن وجهي
وملامحي فلم أجدها فيها ..

كنت أجد ذاتي.. فكري.. ثقافتي.. حين أضيعُ منِّي كثيرا لأجدني في
بيت أقاربي في القصبة العتيقة..

تواجه كنزة كل هذا .. تتشبَّثُ بإيمانها أنّ البيوت ليست مجرد
جدران ، وتقرر مع (بُو لحاف) ترميم بيتها ليعتقا فيه أنفاس
الأحبة الراحلين..

عَثَبَاتٌ

مَنْ الزُّمَانِ

بِتَوْفِيتِ:

(الجزائر - العالم العربي)

بتوقيت الجزائر

(كَنْزَة) تحلمُ بعودةِ جدها..

تنسابُ الشهورُ والأعوام..

تتصهرُ (كنزة) مع تربة الأرض .. تتجذّرُ فيها إلى أبعد ذرّة طين
وصخر.. تشكّلُ مهدَ هذا الصّدر الرّحب الذي احتضنها ، ووهبَ
لها وطنا وأهلا وصلّة رَحِم اتّسعتْ من أرض الجزائر إلى
السعودية.. ينبضُ قلبها المحوريّ لولبيّا فراشةً تحلّقُ في سماءِ
تظللُ فضاءات امتدّت ما بين (أرض الشّهيد وأرض الحرمين)..
قلبها المحوريّ بين المشرق والمغرب يأبى إلا أن تبقى دقّاته على
توقيتِ (الجزائر)..

اليومَ كلُّ شاشاتِ البيتِ أَحْكَمَتْها على قنواتِ الجزائر الفضائية..

اليومَ سيتحقّقُ حلمُها.. ستلقى جدّها وتكتب :

- كنت أحلم بعودة جدّي..

وكان جدي يحلم بلّخد..

وكنا نحلم بإقامة عزائه..

كنا نحلم ونحلم بذلك منذ أن نكّل العدو بأسلافنا من الثوار،
واستعرض رؤوسهم في الساحات العمومية يعود بها المستبدون
إلى باريس غنيمة حرب..

رؤوس اجتثها العدو الفرنسي عن أجسادها الطاهرة، يعبث بها
هواة جمع الأشياء الرخيصة كجمعهم للطوايع البريدية، ثم إذا
أفضوا من هواياتهم الدنيئة سلموها بحقارة إلى (متحف الإنسان)
بباريس لتصبح تحت وطأة مشرط عالم دون أخلاق يعبث بها في
مخبره زاعما بهذا خدمة الإنسانية!!!

رؤوسُ وجماجم العظماء من أسلافي الثوار وضعها العدو
الفرنسي في أقبية فولاذية داخل علب بليدة محاولا كتم أصوات
تتعالى لأموات أحياء عند ربهم يرزقون..

أسلافي وأسلاف 44 مليون جزائري، أرواحهم تخرق أبواب تلك
الخزائن الفولاذية.. تتنادينا من تلك الغرف الجلدية في متحف
باريس الذي يدّعي الإنسانية بالإنسان من تلك الدواليب المقيتة
المدعورة من ظهرهم وخلودهم..

أصواتهم تتنادينا دون نضوب أكثر من قرن ونصف..

كلنا كنا نحلم بإقامة عزائهم.. حُلْمنا عمره 170 عاما من عمر
النار.. من عمر القيود.. من عمر الرصاص..

ظلت أرواحهم تعرج إلى (أرض الشهيد) ، تتحرر لوهلة من
أسرها، من سجن حاوياتها، من أغوار جماجم تحاول دوما المشي
لتؤانس أجسادها التائهة التي بترتها يد المستبد.. يد تلقي بحرمانات
الموتى إلى الهاوية..

من (متحف باريس) البشع تتحرر لوهلة..

تحوم ظاهرةً في الفضاءات المهيبية لمقابر الشهداء في أرض
الشهيد...

شهداء أحياء خالدون حُرِموا من حياة البرزخ، وحرمانا جيلا بعد
جيل من الحداد والسلوى والسكينة وإقامة العزاء...

نحن - أطفال الجزائر- جيلا بعد جيل لم نصغ إلى الحكايات الخرافية للجدات التي تصنع العوالم السرمدية للطفولة في غسق المساءات الشتوية..

منذ 150 عاما لم ترو لنا الجدات قصص (ساندريلا) قبل النوم.. لم نعرف قصص (ألف ليلة وليلة).. فطمنا على سيرة جد خامس ورابع وثالث وثنان نكل به الاستعمار لأنه رفضه ورفض الذل.. نكل به ولم يمنحه حق الثرى..

جدّ بطل مغوار موعود بالشهادة انضم إلى مقاومة الشيخ (بوغلة) في منطقة (القبائل الكبرى)، وآخر انضم إلى مقاومة (الشيخ بوزيان) في منطقة (الزعاشة)، وغيرهم الكثير ممن انضموا إلى المقاومة الشعبية في سائر الجزائر..

جدّ انضم إلى ثورة الشيخ (الحداد) والشيخ (المقراني) والشيخ (بوعمامة)، وجد التحق وخاض ثورات (أولاد سيدي الشيخ)..

أجداد وجدات انضموا إلى ثورة (للا نسومر)، وجدّ ورفاقه انضموا إلى ثورة الأمير (عبد القادر)، وأسلاف عبر أجيال وأجيال تصدوا للاستعمار الفرنسي وفُقدوا وذُبحوا وعلقت رؤوسهم في الساحات العامة.. ومنهم الكثير نُفوا إلى سجون (كالدونيا) الجديدة ولم يعودوا أبدا..

نحن - أجيال وأجيال الجزائر- بعمر الاحتلال الفرنسي وعمر سنوات الاستقلال لم تُرو لنا قصص (المكتبة الخضراء)، وحتى لم نحظّ بقليل من أساطير أمنا (الغولة)..

نحن- أطفال الجزائر- بعمر الحديد وعمر الدم.. منذ أكثر من قرن ونصف شربنا جرم فرنسا، وأدركنا كيف تنتقم حتى من

الأموات، فأقسمنا بدماء طاهرات زاكيات.. بدماء الشهداء، ألا نحلم
أبدا بأحلام الطفولة.. ولا بأحلام الصبا المخملية..

أقسمنا أن نحلم دوما باسترجاع رفاتهم من أقبية الصقيع الفولاذي
منذ أن اكتشفنا ذلك..

170 عاما بيد ملطخة بالعار أمام ملا البشرية جمعاء دون
استحياء وبوقاحة عارية..

صنعت فرنسا لجماجم الشهداء حاويات من علب كرتون ، في
خزائن من صقيع داخل متحف مزعوم للإنسان، ماهيته نخاسة
لجماجم مهيبة للشهداء، ونحاسون لأرواح طاهرة في ذمة الله
أكثر حياةً من ساجنيها..

هذه حضارة فرنسا، وهذه إنسانيتها ، وهذا (متحف الإنسان)
الشهير!!!

مثلي ومثل كل طفل جزائري بعمر الحديد والنار، لم تكف أذناي
عن الإصغاء إلى صوت جدي وجدّ جدي وجدّ أبي وأسلافي!!!

من هناك (صوتهم من الأقبية الفولاذية ينادينا).. أرواحهم
الطاهرة لم ترتخ حتى اليوم الذي تحطّ فيه الطائرة حاملة رفاتهم
على أرض الجزائر...

بالجزائر العاصمة ، حلمت مع أهلي.. مع 44 مليون جزائري
يعيشون وجع منفي ومقتل أسلافهم من الشهداء..

ترتجف يدُ (كنزة).. تسكب دموعها على الصفحات.. يتعثر
قلمها.. يتمازج حبره مع حموضة دمع عتته 170 عاما..

اليوم فقط تمنح دمعها شرعية البكاء..

تحقق - عبر الشاشة - في النعوش.. تكتب من جديد تخاطب
أسلافها :

- هذا جدِّي ، وهذا جدُّ جدِّي، وفي هذا الصندوق رفات جدِّ أبي.. شهداء المقاومة الشعبية عادوا وضمّتهم مقبرة الشهداء، وتحقق حلمي وحلم كل الأحفاد ، وسكنت أرواحنا.. التقينا بعزائنا المرتقب منذ 170 عاما.. عزاء عمره عمر الاحتلال الفرنسي.. وعمر الاستقلال..

رحم الله الشهداء..

تخطُّ (كنزة) هامشا.. توثق شهادتها للتاريخ :

- شكرا للباحث الجزائري (علي فريد بالقاضي) الذي اكتشف وجودهم في متحف الإنسان سنة 2011..

- شكرا للحقوقي والمحامي (إبراهيم السنوسي)، ولكل من سعى معهما بالمطالبة باسترجاع رفات شهدائنا..

شكرا لمن سعى من رؤساء الجمهورية إلى استرجاعهم منذ 2011..

بفضل عزيمة كل هؤلاء رجالا ونساء رُدّت إلينا أرواحنا وأرواحهم العالقة..

هذا اليوم عاشت (كنزة) ذكرى إحياء ذكرى عيد الاستقلال (5 جويلية) عيداً متفرداً في ماهية الانتصار..

ماتت وهي تبحثُ عن فتوى...

شهر (جويليه).. عيدُ الاستقلال..

الشهداء يعودون هذا الأسبوع إلى بيتها..

ضمَّ ثرى الجزائر جماجم الأسلاف من شهداء المقاومة الشعبية التي أسيرت في (متحف الإنسان بباريس)..

سكنتُ روحُ (كنزة).. روحها العالقة بذلك الصندوق الذي يختصرُ مقوماتٍ بسيطةٍ لكنها بعظمة ثورة المليون شهيد..

موروثٌ في صندوقٍ قدمتُ به من الجزائر تمسكتُ به ، وحفظته للتاريخ ، فيه علمُ الجزائر ، وُعدَّةٌ والدتها البسيطة التي كانت تمرّضُ بها المجاهدين المصابين ، و(الحايكُ ولِعجارُ) ولباسُ العُمرة ، وبعضُ أشياء تنطقُ بشهاداتٍ لجهادِ والدِ (كنزة) (السي عبد القادر)..

تمسكُ (كنزة) لباسِ عمرة والدتها وترحلُ إلى بيت الله مع والدتها..

تطوف (يمًا فاطمة) حول البيت.. تصلي خلف مقام سيدنا إبراهيم..

تقبل الحجر الأسود باكية.. تذرف الدموع متشوقة.. تزور
الروضة الشريفة..

تبكي بجوار قبر النبي..

يُخيل إليها أنها تحمل وزرا.. مُهووسة بأنها اقترفت كبيرة وخانت
خيانة عظمى حين تتجنب مع (كنزة) أجهزة تلفونات الإفتاء..
تتوسل إليها :

- (سَقْصِي لِي لُفْقِيهِ عَلَي هَدِيكَ لَحْكَايَةِ)..

تتظاهر ابنتها بالاتصال ثم تخبرها بأن لا أحد يرد...

بحثها المتعنت عن فتوى تريحها من ذلك الإثم الذي كانت تعتقد
أنها اقترفته.. هو بعمر سنوات ثورة التحرير وسنوات
الاستقلال.. منذ تلك الليلة الشتوية لسنة ١٩٥٨ في ذلك الحي
الذي يقطنه المستوطنون الفرنسيون.. كانت هي وزوجها (السّي
عبد القادر) والقليل من الجزائريين المجندين من جبهة التحرير
الوطني كمسبّلين وكفدائين اختارهم القادة وأقحموهم في أحياء
(الجزائر العاصمة) المخصصة للفرنسين لتقصي أخبار القيادات
الفرنسية.. حيث قسم الاستعمار آنذاك أحياء العاصمة إلى (حوم
عرب وحوم نصارى) ، واي جزائري يجرو على التجوال في
أحياء الفرنسيين يطلق عليه وابل من الرصاص مباشرة.. سحنتها
هي وزوجها القريبة من السحنة الأوروبية وإتقانهما للغة
الفرنسية أهلها إلى أداء مهامها الثورية دون أن يشك فيهما
العسكر الفرنسي كغيرهم ممن جُند معهما..

أُقِمَّ (السّي عبد القادر) في البريد في حي (الأبيار) الراقى في
أعالي العاصمة حيث وظيفته كساعي بريد تسمح له بدخول ثكنة

(Fort L'empreur و Garde mobyle) بحي (الثَّغْرِيين) (Tagarins) ودخول قصور الجنرالات في حي (Poirsson) في بلدية الابيار)، فيتجسس وينقل كل الأخبار لقادة الجبهة.. أما هي فلخبرتها في التمريض كُفِّت بتمريض الفدائيين المصابين الذين كانوا يندسون في تلك الأحياء ليلا للقيام بالعمليات الفدائية والتنكيل بعسكر الدوريات الفرنسية..

وفي تلك الليلة الشتوية من سنة ١٩٥٨ حيث كان زوجها غائبا في إحدى مهامه.. كانت برفقة والدتها ومسبلة أخرى من كبار المجاهدات ، طُرق البابُ وإذا بصوت يئن خلفه.. (manan)maman

(ouvres ils vont me tuer

- ماما افتحي سيقتلونني..

أدركت أنه ليس فدائيا مصابا. لكنه صوت جندي فرنسي مصاب من الفدائيين .. يستغيث وهو متأكد أن كل من يسكن الحي فرنسيون فطلب النجدة ..

فتحت الباب .. فتح عينيه.. أدرك أنها ليست فرنسية، وأنه في قبضة العدو، وراح يتوسل إليها مستعظفا رحمتها وإنسانيتها :
(دعيني أذهب.. لا تسلميني (للفلّاقة - المجاهدين).. لي أمّ مثلك تنتظرني.. ولي خطيبة تحبني، ونحلم سويا بأسرة.. لم آت إلى هنا بإرادتي.. أنا مجنّد فقط في الخدمة العسكرية الإجبارية.. لا أحب الحرب.. لا أحب قتل الجزائريين..

رقّ قلبها وأدخلته خفية عن من كانتا معها في البيت ، وأخفته في
الدھليز المخصص كمخبأ للفدائيين الذين كانت تمرضهم..

وبالأدوات البسيطة التي كانت تمرّض بها المجاهدين: (سكين
تعقمه بالنار والكحول..مقص..خرق) أسعفته وأخرجت
الرصاصات التي اخترقت كتفه ، وأطعمته.. وبعد يومين استرد
شيئا من عافيته ، فتركته يذهب لسبيله لالتحاق بقيادته بالثكنة..

منذ تلك الليلة الشتوية من سنوات ثورة التحرير وقعت (يمًا
فاطمة - والدة كنزة) الملقبة من الكل (بنت موخ الشيخ) بين ذلك
الخيار الصعب (واجبها الثوري) وفطرة السلوك الإنساني..هل
تسعف جريحا يستجد بها أم تدعه يهلك؟ أوتسلمه للمجاهدين؟

أخفت سرها بعد تلك الليلة ، وعاشت وهي تعتقد أنها خانت وأنها
تحمل وزر الخيانة..عاشت ٥٩ سنة تحمل ثقل هذا الريب وهذا
الشعور المميت، ومهما حاول الكل من عائلتها تحريرها من ذلك
الهوس لأنها كمسعفة ما كان عليها إلا أن تنقذ روحا حتى لو كان
عدوا فرنسا فلم يوفّقوا إلى إقناعها..وهكذا استمرت المجاهدة
تبحث عن فتوى..

ماتت وهي تبحث عن فتوى تريحها من هوس الخيانة...

كل التحدي في ملعقة والدها...

حالة تأهبِ قصوى في بيت (بُو نحاف)..

استنفار..

فرقات..

درَبكات..

دوي..

أشياء تهوي من الأعلى وتتكسر، وترج البيت..

يَجْتُثُّهَا الدَّوِيُّ من عمق نومها عَصْرِيَّةً صَيْفٍ سَرَوِيٍّ.. تَفْتَحُ
عَيْنِيهَا فَرْعَةً ، تُخَمِّنُ : لَعَلَّهَا عاصفة رعدية ، فالصيفُ صيفُ
(أبها) الممطر..

تهرعُ إلى النافذة.. تحدّق في السماء:

الجوّ مشمس!!

ينتابها خوف شديد.. تتمتمُ :

لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله..

أکید بأنه صاروخ ، فالزمنُ زمن حرب ، ونحن على الحدّ الجنوبي ،
والحوثيون يتربصون بنا..

يستمرُّ هول الدّوي منبعثًا من المطبخ..

تسرع (كنزة) باتجاهه ، وإذا بـ(بُو لحاف) قد نثرَ وكسّرَ كلَّ
مواعين المطبخ :

- (كنزة) :

واش صار لك؟ واش بيك؟ خلعتني!

- أدور على ملعقة عمي (السي عبد الفادر)..

- هاك خونها.. راهي قدامك.. على بالك نديرها لك في
بلاصتها (مكانها)..

- يأخذُ الملعقة منها مطأطأ رأسه صامتا متفاديا عصبيتها
على ما أحدثه في المطبخ والذي سوف تستسلم (كنزة) رغم
غضبها وترتبه من جديد..

تتمتم من جديد :

- يا هاد مغيرفة بابا اللي يرهقني عليها دائما مؤلى البيت!!

هي ملعقة (السّي عبد القادر)..ملعقة عمرها عمر الاستعمار الفرنسي في الجزائر..كان نوعا من الانتقام يقوم به أبناء المستعمرات الذين أُلزموا بالتجنيد الإجباري في الجيش الفرنسي ، حيث كانت فرنسا تعتبر الجزائريين فرنسيين مسلمين من الدرجة الثانية وتسميهم (Indigènes -أنديجينا) وسنّت قانون (الأنديجينا) . ومن استبداد هذا القانون أنها كانت تزج بأبناء المستعمرات في الصفوف الأولى في الحروب ضمن المواجهات الحربية بين الحلفاء ودول المحور وفي مستعمراتها كالهند الصينية ، واعدة إياهم بالحق في تقرير المصير والاستقلال..كان المجاهد (السّي عبد القادر) من بينهم وهو مجند إجباريا في سن ٤ سنة..كان يفعل ذلك كجنود كتيبته.. يسطو على كل شيء في الثكنة.. أشياء جاءت بها فرنسا منذ الاحتلال تحت شعار: نشر الحضارة في شمال أفريقيا ، وهذه الحضارة في مفهومها هي :

أن تعلم الجزائريين الأكل بالشوكة والملعقة..

تمرد(السّي عبد القادر) بالسطو على أدوات حضارتها المزعومة ، ثم حارب بالدم والدرهم خلال حرب التحرير.. راح بعد ذلك طول حياته يستعمل هذه الملاعق وأطقم السفرة الفرنسية (روميوجوليت) المشهورة التي سطا عليها مع رفاقه من قاعة السفرة المرفهة الخاصة بالجنرالات والضباط السامين..يستعملها عنوة في إطعام الكلبة (بلاك) والكلب (ريكس) ، وكل حيوان يصادفه في الحي زيادة في إذلال المستعمر..

كان انتقاما لذيذا في فنون احتقار المستعمر، ويزيد متعة وهو يتناول باعتزاز (الكسكس) بالملعقة الخشبية في قذح الطين

ويغرف بيده اليمنى لقيمات (الرّشّنة) و(الرّفيس..). هكذا كان
 (سيّ عبد القادر) يصر على هويته ويتصدر لكل محاولات طمس
 الشخصية الجزائرية

حتى بعد الاستقلال ..

أخذت (كنزة) بعض هذه الأشياء معها إلى بيتها في ديار (ألمع)
 حتى لا تنسى أن الدفاع عن الكرامة والأرض والهوية لا يكون
 فقط بقوة السلاح..

بتوقيت العالم العربي..

رأسُ السنة أسيرٌ في عينيها..

أزمنةُ الوجعِ نصيب ، في تزامنٍ مع الاستبداد والشُّعوبِ المقهورة
التي تمضي دوما نحو وهجِ الوغى في تحقيق المصير..

الاحتلال..

ثورات التحرير..

الاستقلال وتحقيق السيادة..

المُفسدونَ في الأرضِ في سباقهم نحوَ الخرابِ ، يتلاشونَ
كالسّرّابِ عندَ إرادةِ الشعوبِ الحرّةِ..

هي تلكم (كَنْزَة) التي تشكّلت في التاريخ النضالي..

لم تنفصل أبدا عن هذا النضال ، وعن التصدي لأزمة الإرهاب
في الجزائر..

اليومَ في بيتها في أرض (ألمع) ما زالت (كنزة) تحت وقع أخبارِ
الشاشات اللجينية..

يمضي الوجع في أرض ، ويحلُّ في أرض :

تونس - مصر - اليمن - ليبيا - الإرهاب في السعودية ، لتزيدَ
العالم من قوافل الضحايا والشهداء..

رأس السنة أسير في عيني هالة.. عيناها هذه الليلة تصرخ في
وجه (كنزة) مستجدةً بها..

ما أصعب ليلة رأس السنة هذه ، والتي تقضيها في زيارة أهلها
في الجزائر..

تلتقي ب(هالة) الصغيرة..

كان عمرها خمس 5 سنوات..

ذات العيون الزرق والجداول الذهبية..

مبتهجة وسعيدة برفقة عمها (باسل) الذي تتعلق به جدا ، وتحبه
وزوجته وطفليهما كثيرا.. هي ترافقهم في لجوئهم إلى الجزائر..
لم تكن تعلم أن رحلتها هذه هي تذكرة سفر ذهاب دون عودة..

(هالة) صديقة (كنزة) الصغيرة..

حين قدّمت إلى الجزائر لم تكن تعي بأنها فقدت وطنًا، ولم تكن تعي أن والديها مفقودان إثر قصف قريتها في (حماة)..

خليج (العاصمة الجزائر) كان أول مياه مالحة تعكس زرقة عينيها.. فهي لم تغادر من قبل (حماة) لتستشف لون عينيها من مياه (طرطوس) و(اللاذقية)..

الضيعة كانت العالم الوحيد الذي يكفيها.. تحيا فيها على وقع حفيف الزرع ودفء حنان والديها والعائلة الكبيرة هناك..

حين قُصفت قريتها هلك الأهالي في مجزرة جماعية كان عمها وأسرتة من القليل الناجين من القصف.. العم الحاج (سيد علي) من الجزائريين الذين يحفظون الجميل ، وذلك التاريخ التضامني من الإخوة السوريين مع الأمير/عبد القادر ومن لجأ معه إثر نفيه من الجزائر..

هذا المجاهد الكبير تقاسم مع العم / باسل بيته الصغير المتواضع وآواه مع أسرته كما فعل الكثير من الجزائريين..

تعرفت (كنزة) على هذه الأسرة السورية ، وشدتها تلك الطفلة الجميلة كثيرًا، وصارتا صديقتين حين تلتقي بها في الحي تلعب مع الأطفال تسألها:

- يا خالة أنت تجي من الحج في الطيارة؟

أنت يا خالة شفت بابا وماما في الطيارة؟

خالة خذيني معك في الطيارة عند بابا وماما، إلى ضيعتنا.. خذيني
عند جدي..

عينا (هالة) اللتان تغشاهما طبقة من الدمع الرقراق الذي يزيدا
زرقة ترافق (كنزة) حين تحلق في السماء نحو الجزائر، وحين
تغادرها ، وكم كان يقهرها انتظار (هالة) لها عند باب (الأسانسير)
لتسألها سؤالا عمره عمر الحرب في سوريا :

- خالة جبتي معك بابا وماما؟؟

هالة الصغيرة صارت صبية.. صارت صديقة (كنزة) على
(الفايس) ترسل إليها صور ضيعتها المدمرة وبستانها الذي تحول
إلى مقبرة، وأنقاض بيتها..

تحلم (هالة) بوطن يعمه السلام..

تحلم هالة ببستانها الأخضر..

تحلم هالة بأطفال يحملون الأزهار..

تحلم بقبر يووي رفات والديها..

تحلم أن تعثر على رفاتهما..

تحلم أن تقيم عزاءهما..

تحلم أن تترحم عليهما..

بعد لقائهما ليلة رأس السنة مسحت (كنزة) هذا من (روزنامة)
الزمن الذي لم يكف عن صناعة مآسي الطفولة..

تردُّ في صفحاتها على وسائل التواصل الاجتماعي على كلِّ من
يهنُّها بالسنة الجديدة :

آسفة أيها الأصدقاء على صفحتي وعلى (الواتس)، وعلى كل
وسائل التواصل الاجتماعي.. كل من أرسل إلي تهاني السنة
الجديدة.. من أرسل إلي بحكم الصداقة والود.. ومن أرسل لي
روتينيا.. ومن أرسل إلي مجاملة.. ومن أرسل إلي بدافع موضة
العام الجديد.. كلكم..

أنا آسفة لن أستطيع مبادلتكم هذه التهاني حتى أتحرر من أسر
عيني (هالة) ونظراتها ودموعها التي تحتبس تحت الزرقة
كبرياء..

نظراتها التي تأسر ليلة رأس السنة البالية،

حتى لا تطلق السنة الجديدة على أطفال العالم أطفال

الحرب لتزيدهم سنة جديدة من المعاناة ، وتحفر لهم روضات
القبور المكشوفة إلى السماء تحت لظى القصف وويلات الجوع
والتشريد والتهجير..

لن تطلق عينا (هالة) السنة الجديدة على الأرض لتصنع ليالي
خرقاء تمقت قهقهات الأطفال..

لن تطلق عيناها العام الجديد على الأرض ليسلب أوطان
الأطفال.. أطفال سوريا.. أطفال اليمن.. أطفال ليبيا.. أطفال العراق..
أطفال أطفال أطفال الحروب..

آسفة أيها العالم..

لن أبادلك تهاني العام الجديد، لأنني مأسورة مع ليلة رأس السنة
في عيني هالة...

نظرةٌ قاهرةٌ..
(شَعُونُهُ وَعَيْنَا هَالَةٌ)...

تحت وابل كل الأخبار المؤلمة في العالم العربي ، والتي تعيش
(كنزة) كل أوجاعها ، والطفل السوري (ذي السنيتين) الذي ألقته
به أمواج الشاطئ الإيطالي على صقيع الرمال الباردة..

كان والداه يحلمان بالحياة فقط ، حين امتطوا قارباً مطاطياً هرباً
من القصف في سوريا..

صورته هذه الليلة تتصدّر كل الشاشات ، لتعتق دهرًا من مآسي
الإنسانية..

تحقق (كنزة) في قطتها (شعونة).. شعونة التي تستغرق في
دموع (كنزة) ، وكأنها تستقرئها..

(كنزة) تغوص في عيني (شعونة) الخضراوين..

هي ذات النظرة التي قهرتها في زرقه عيون (هالة) - الطفلة
السورية صديقتها اللاجئة في الجزائر..

(كنزة) سوف تأخذ (شعونة) من بيتها إلى المزرعة..

لها تاريخ عريق منذ الطفولة مع القطط امتد معها كقدر جميل إلى
بيتها في (رجال ألمع - السعودية).

الكل يعلم قصتها مع "قطوسة" القطاة الضالة وورطة الحب التي
وقعت فيها.. قطوسة وأجيالها الأربعة.. قطاطيس من بيئة (تهامة)
ليس لها مكان في عالم "موضة" القطط الوافدة إلى (السراة)
و(التهائم):

(السيامي..الفارسي..وكذا..وكذا..من السلالات التي تُشترى بأغلى الأثمان، وتُأكل أغلى أنواع الأكل الخاص بالقطط..
 (قَطُوسَةٌ) وقبيلها لا مكان لهم في عالم القطاطيس المخملي..ولا نصيب في أسماء الدلع التي تسمّى بها قطط العائلة: بوسي.. لوسي ..لولو ..لوجي..

ليس لها إلا ذات الأسماء التي كانت (كنزة) تسمي بها قططها في الجزائر..أسماء متناخمة مع سلوكها، كل واحد منها حسب شخصيته: (قَطُوسَةٌ...جِنِّيَّةٌ...حَنْتِيَّةٌ...كَلُوشَةٌ...بَهْلُولٌ...لَلَاتُ نُبْنَاتٌ...عَوَيْتَقَةٌ) ، وإذا حالفها الحظ أسماها (بُولْحَافٌ - زوجها) بأسماء تهامية (بَثَابُثٌ...صَيْدَةٌ...حُوسَةٌ...كِرْشَانُ)..

قطوسة وقبيلها يرتعون في حوش بيتها في (تهامة)، إذا جاءت تمردوا عليه واحتلوا كل الأسيرة..أجيالها من الإناث:
 جِنِّيَّةٌ...حُوسَةٌ...شَعْنُونَةٌ، أنجب من زوج واحد قط الجيران الأسود "سَتُّوتٌ" . قِطُّ فَظٌّ منافقٌ مكر، يتودّد لهن كلهن، تزوج بهن بالجملة دون مراعاة لصلة القرابة بينهن، تزوج بقطوسة "الجدّة" وبناتها وحفيداتها كلهن ، وكلهن أنجبن قطاطيس سُودا..يلدن ويتوالدن، والأب الأكبر القطوس (سَتُّوتٌ) مُصَرٌّ على الحفاظ على النوع، يتربص بهن في "أمركيب" الملاصق للبيت...والبيئة في البيت محافظة على دورتها الطبيعية، توفر لهم وسطهم الحيوي، وهم بدورهم محافظون على الدائرة الغذائية.ويسمّدون تربة الأحواض والجبل سمادا طبيعيا خاليا من الإضافات الكيماوية، ولا تحتاج (كنزة) إلى هندسة زراعية للنباتات العطرية والبرية في أحواض السطح والحوش..

الكل يسير حسب الفطرة إلا (شَعْنُونَة) بنت قطوسة، طبعاً هنا يُنسب عالم القطط إلى الأم، فالأكيد في نسب (شَعْنُونَة) أنها بنت قطوسة.. شعنونة ترتع في الجبل والحوش والسطح، ولكن حين تشعر برغبة للخلاء تدخل إلى البيت وتجعل من الزرابي والأفرشة حمامها الخاص.. أتعبت صاحبها التي غدت تمضي طوال الوقت في حملة تطهير للبيت كله.. وحين تنتهي تأتي (شعنونة) لتتأكد أن جريمته اختفت، وتنبش البلاط بمخالبها تعاوناً مع سيدتها في التنظيف لتثبت لها حسن نيتها...

أسمتها (شعنونة) لأنها لا تتوقف عن المواء بغنة ولُكنة غريبة.. تموء باستمرار لا لأنها جائعة، هي فقط تحب الدردشة والونس.. تجلس بجوارها وتنظر إليها نظرة بريئة ودودة وتخاطبها :

ميو.. ميو.. أميييو.. وإذا لم تُبادلها أطراف الحديث أبدلت بنغمة أعلى مستعطفة حتى ترد.. صارت (شعنونة) أمًا لثلاثة قطاطيس وهي على نفس الطبيعة..

أتعبتها كثيراً، فقررت أخذها مع صغارها إلى المزرعة.. وهي تحملها في "كرتون" مع صغارها كانت تموء وكأنها تشعر أنها تغادر موطنها..

لحظةً شابَهَتْ لحظة سيدتها يوماً ما وهي على حواف المطار تغادر..

تنظرُ إليها بعيون قاهرة..

تموء..

تحتضن صغارها..

تتمسك بيد مولاتها وتلعظها..

عندما فتحت لها باب السيارة زادت نظراتها عمقا واستعطافا
وضعفا.. هزمتها.. عاشت (كنزة) في عيونها تمزق قلب المهاجر
وتشرد الرحل ، وصمت المنفي الصارخ..

صارت تزورها في المزرعة.. تهرع إليها.. تميمس حول قدميها،
وإذا عادت إلى السيارة قفزت داخلها واندست تحت المقعدة، وإن
أخرجتها بالقوة خاطبتها بمواء ينصهر له قلبها، ونظرت إليها
نظرة استعطاف تقول: رديني إلى بيتي.. إلى مسقط رأسي..

في كل مرة تعيش (كنزة) في عينيها نزيفاً جريح مغلول اللسان..

عيناها الخضراوان المقوستان..

الدمع الذي لا تستطيع العجماء ذرفه..

الكلمات المأسورة في لسان مخلوق لا ينطق..

تعتقها تلك النظرة الممتدة بين عينيها..

نظرة ثاقبة آسرة لكل قلب رحيم تقول :

(دعيني أعش في بيتي..

في موطني.. إلى جوارك...).

عينا (شعونة)..

دمعها المأسور داخل تجاويفهما..

لمعان اخضرار مقلتيها يتمازج مع زرقة عيني (هالة) صديقة
(كنزة)..

حينها يسكنها مسٌّ من طيف (هالة).. صدى صوتها الباكي وهي
تمسك بـ(حقيبتها) وهي مغادرة إلى المطار:

يا خالة يا خالة (خذي معك في الطائرة عند بابا وماما وجدو في
ضيعتنا) جاهلةً مصير أهلها وضيعتها المدمرة بالقصف في
سوريا..

تأسرها نظرة (شَعْنونة) التي تُسكبُ فيها دموعُ مجهولٍ في
أوروبا من أجل لقمة الذلِّ، يعيش هناك تحت اسمٍ مستعارٍ وهوية
مستعارة مجهولا بلا ماهية، تصبّ دموعه ودموع أمه في
عيني(شعنونة)..

أمٌ تنتظر عودته إذ لن يعود أبداً، ولن يلقاها أبداً..

نظرة (شَعْنونة) المنكسرة في عيون "الحرّاقة" يغادرون - في
صمتٍ وسريّة - الضفاف المستترة خلف الصخور في بلدانهم نحو
أوروبا.. رحلة دون عودة..

يستعطفها مواؤها طلباً للعودة معها إلى بيتها.. إلى موطنها.. مواء
امتزج بصيحات الهلع..

بصراخ استنجاد (الحرّاقة في الجزائر) حين تتخلى عنهم القوارب
المطاطية، وتخونهم الرياح ، وتعبث بهم العاصفة في أعالي
البحار..

عينان منهكتان أبديتا الخضرة تسكبان الشكوى في عيني رضيع
سوريّ متصلبتين إلى السماء ، ألقى به عرضُ البحر على ضفة

إيطالية.. نظرة ثاقبة شربت في أغوارها دموع عيون أطفال
(اليمن) المهجرين المشردين..

عينا (شعنونة) أسرئها في عيون أطفال الحروب..

نظرئها الثاقبة تقول في صمت:

رديني إلى بيتي.. إلى موطني..

تجرعت (كنزة) فيهما كل مرارات المشردين والمهجرين في العالم

..مرارات (هيستريا) الديمقراطيات المزيفة التي تصب في البحر

زينة الشباب لتلتهمهم الحيتان، وتحرق في المهاجر والقفار

عيون الأمل، وتصنع لعنة الشعوب..

الإرهابُ وعقود السّواد..

الجلادون يسعون في سياق الهلاك..

ربيعٌ عربيّ يرسمُ المرعى بلون الحِداد.. يصنعُ السنواتِ الصّفراء.. تمتدُّ وتمتدُّ يدُ الجلاد تصنع الحروب في أرض ،
والإرهاب في أخرى..

تمرّ (كنزة) هذه الظهيرة بدوّار (الخالديّة) في مدينة (أبها)..

هذه الظّهيرة التي يبكيها المطرُ تحت تراتيلِ صلاةِ الجنازة على قافلة الشّهداء من الشباب الذين نكّلت بهم يدُ الإرهاب بيدِ عابثٍ انتحاريّ في مسجدٍ مركز قوات الطوارئ في (عسير) - جنوبيّ السعودية..

الإرهابُ هنا في أرض الحرمين..

تعودُ (كنزة) إلى بيتها.. تخرجُ قلمها المتمرد.. وعُذها لوالدتها باللاكتابة خلال سنوات الإرهاب في الجزائر ، ذلك الإرهاب الذي وأد الأقلام، حان الوقتُ لنقض ذلك الوعد..

وراحتُ تكتب :

بريق التلّ الناصع البياض ، المرتمي في حضان خليج متسلل من صدر البحر المتوسط عند أحد رؤوس شواطئ (مزغنة) القديمة .. بياض الثلج على سفوح جبال (الأطلس) التليّ الغائصة في شطآن خليج العاصمة (الجزائر) يعكس بياض جيل الاستقلال ، جيل الحرّية ، جيل التطلّعات والآفاق (بومدينيّة) ، جيل الحلم ، جيل وُلِدَ ليبنى..

يستلم أحفاد الأمير(عبد القادر والعربي بن مهدي وجميلة بو حيرد) ذات صباح مشرقٍ لواء الانتصار ، ليخوضوا ثورة البناء .. تتوالى الثورات التنموية التي كانت تغذيها الحياة المؤسساتية في سياق مُحكم من كل ما كان يُرسي دعائم المجتمع المؤسساتي المدني ، ولكن في توازٍ قدرِيّ حتمي ، بدأت تسود فوضى الأحلام النابعة من (هستيريا) طفرة النفط التي تتجه في ذات المنحى نحو فكر استهلاكي بحت ، والتطلع إلى الحياة المرفهة دون جهد ، لتتقلب السماء على وطن ، ويهطل الضباب ليسكن البصائر ، فتتساوى المفاهيم والمعايير والمقاييس الحضارية ، لتصبّ في بُورِ الالتباس والشبهات ، وتنسى الأمم أن تتساءل كيف تُبنى الأوطان..

وهل يكفي أن نحرّر وطننا ونتجاهل بواذر الأزمات ، وكثيرا ما نعلّقها على أيدٍ خفيّة من الخارج !!؟

تتربّع الأزمة الأمنيّة وتستفحل ، وتنخر القلوب الخضراء في ضجيج من التحليلات السياسية والاجتماعية العجفاء.. دوامة الفتاوى القاحلة تعصف بلغة الحوار..

تبتر الوصال بين أجيال وأجيال..

دويّ التفجيرات يهز سكينه الوطن..

تتوالى التصفيات في موجات دموية من الاغتيالات..

تنتهك الأعراض ، وتُسفك دماء الأطفال فينزف وطن..ينهار..

يهوي..تسقط الشعارات لتموت الكلمة وتجف الأقلام...

عندما يمارسك الموت يوميا ، ويصير جزءا من تفاصيل حياتك..

وعندما ينكسر حلم جيل ليصير همه الوحيد : كيف يموت ؟

عندما يهتز صرح العقول المبدعة لتُجندَ في عمليات الإنقاذ

وحملات الدفن الجماعي لأشلاء الضحايا ، ويصب الخوف وابله

من حاويته الجهنمية ، عندما يحدث كل هذا ، فلا تحلم بأنك

ستلمم قريبا شظايا روحك...

يزيدك كيا جيرانك..أصدقاؤك.. كلما زاد أنينك..

يعزلونك خوفا من العدوى ، وكأنّ هذا الوباء قضية مكان !!

حينئذٍ :

ترفع يديك المبتورتين صوب السماء لتصيح :

إنه الإرهاب !!

الإرهاب اليوم يسكن في أوطاننا جميعا..يتربع أفئدتنا..

الإرهاب اليوم يقر نداءات الجزائر حين صرخت :

إنه سرطان ينهش..لا يفرق بين الأجناس ، ولا يتوقف عند حدود

ما..

الإرهاب اليوم يسكن الأرض العربية جزيرتها ومهاجرها..

يتوغل فيها بأشكاله وأنماطه كلما وجد منفذاً..

والجزائر اليوم تضمُّ جروحها دون أن تتخلص من ثوب الحداد ،
وكيف يكون ذلك والنزيف يغيّر منحاه نحو الأشقاء ؟

فهل من قدر أمتنا جميعا أن تسلك ذات المنهج لتلاقي ذات الأقدار
؟ أهي كبرياء الأمم وعجرفتها تُغشي الأبصار ليعتقد البعض أن
الإرهاب لا يصيب إلا الآخرين ؟؟

نحن شعوب في أمة نتشابه في ثرواتنا وتركيبتنا الاجتماعية قبلية
كانت أم حضرية أم بدوية.. نحن نتاج تربة واحدة لها ذات
الصبغة، وذات الخصوصية ، نتقاطع في ذات المصير ، فما الذي
أودى بنا إلى هذا المستنقع ؟ أما كان يكفي أن يسكن هذا الجرح
أرض (المليون شهيد) حتى ينتبه الأشقاء هنا وهناك ؟

سكن الجرح موطن القلب (الجزائر) ، واليوم يسكن موطن
الروح (أرض الحرمين) وما حولها ، فهل من طاقة الإنسان أن
يكون ذا قلبين : قلب ينزف في المغرب ، وآخر ينزف في المشرق
؟؟

حين يسكننا الرّهابُ من الإرهاب ، فكيف يمكننا أن نكون كي لا
نصير جرحا متعفنا في حنايا عقود دموية سوداء تخيمُ عليها كل
أنماط الإفلاس البشري؟ أو جيلا يعيش خارج دائرة الضوء ،
وخارج حدود الزمن الذي وقف عندما انقلب الحلم على برّك الدّم

؟؟

المملكة العربية السعودية: أرض السكينة والنور..

صمتَ قلمٌ (كنزَة) تحت الوعدِ بقوةِ السّوطِ.. سوطِ الإرهابِ.. فكتبَتْ
في صمتٍ.. في الخفاءِ تحت اسمٍ مستعارٍ حتى لا تنقضَ وعدها
لوالدتها..

حروفُها كانتْ تولدُ من مخاضِ الإرهابِ..

تولدُ لقيطةً عندَ عتباتِ الصفحاتِ دونَ نسبٍ..

تحت وطأةِ الإرهابِ في السعودية تقررُ أنْ تكتبَ بأعلى صوتٍ
..صرخاتٍ .. كلماتٍ.. ذواتٍ نسبٍ وانتماءٍ..

ومهما يحاول الإرهاب في أرض الحرمين العبث بالأمن والأمان
تلقى السكينة والنور خصوصية هذه الأرض..

تكتب (كنزة) باسمها.. تمسك بقلمها الضال الذي لن يصمت أبدا
بعد شهداء (مسجد الطوارئ).. تكتب :

خلسة أخفيت أوراقى فى حقيبتى عن والدتى حين رافقتنى إلى
المطار نحو بيت زوجى فى أرض الحرمين..

فى أعقاب الأسفار يمس ذراعى داخل ادراج تسريحتى حيث
أحتفظ بهذه الأوراق مصفرة أخشى أن تعثر عليها والدتى التى
صارت بعد فترة تقيم معى..

كتابات وكتابات عمرها عمر كل أفراحي وأشجاني وجراحي
وفكري، تطبعها بصمات هذا الفكر المزدوج اللغة..

صفحات مجنونة كتبتها بـ(هستيريا) لغتين..

فقرات بالعربية تتخللها فقرات بالفرنسية..

على الهامش كلمات أمازيغية..

كلمات ومفردات وجمل تتداخل فيما بينها على الصفحة التى
تروي سيرة ما، أو موضوعا ما فيُرْهَق دفتري معربدا إلى أبعد
زاوية فى الدُرْج فى انتظار لحظة ترجمته إلى لغة واحدة فرنسية
أو عربية يجدُ فيها نصي ضالته وهويته..

تبقى نصوصى مكبلةً بذلك الوعدِ القاهر الذى وعدتُ به أمي فى
زمن الإرهاب ألا أكتب ، منذ ذلك اليوم المشؤوم الذى قُتلت فيه
صديقتى الصحفية (رشدة حمّادي) ، ووندتُ معها كل الأقلام..

توفيت والدتي، ولم أجروُ بعدُ على أن أتحرر من ذلك الوعد الذي
قطعته لها..

في ذلك الآن صرتُ في حل من ذلك الوعد، لكن وجود
الشاعر الزوج (بُو لحاف) في حياتي قضاءً وقدر على قلبي،
فكيف تجرؤ تلميذة على الكتابة أمام أستاذها العملاق؟! فزدتُ
أوراقِي سباتا..

تمر الأيام والسنوات في أرض النور أرض الحرمين في المملكة
العربية السعودية حيث يسهر القمر والنجوم على الكتب النائمة..

تصر هذه الأرض الطيبة بكل آلياتها ومؤسساتها (الصحف -
المجلات - النوادي الأدبية - الأمن والأمان - السكنية.. تصر هذه
الأرض على أن توقظ أديبا أو شاعرا من سباته وتحرره من هلعه
مهما حاولتُ يدُ الإرهاب خلخلة أرضية السكنية والأمن..

ورغم الليالي الموحشة التي أسقطها الإرهاب على دفاتري كان
عليّ في ظل هذا الوطن الآمن أن أصنع لها شفقاً وصباحاً..

رفعتُ قلبي إلى السماء :

سأكتبُ .. سأكتب من نظي جحيم التفجيرات ، ومن هلامية الموت
التي تصاغ بيد إرهابية :

اغتيالات..

أحزمة ناسفة..

سيارات مفخخة..

خرابٌ وتخريب..

سأكتبُ

سأكتبُ بدمائي شهداءَ ثورة (المليون شهيد)..

سأكتبُ بدمائي شهداءَ الواجب في إرهاب عقود السواد في
الجزائر..

سأكتبُ بدمائي شهداءَ (مسجد قوات الطواري) في عسير..

سأكتبُ بدمائي للزمنِ كلَّ ضحايا الإرهاب..

حضارة

كُرُونَا

بين حَظَرَيْنِ..

هلَّ العامُ الجديد 2020..

احتفالات رأس السنة تنقلبُ على المستنقعات العَفِنَة..

تستبيحُ الفَنَاءُ..

صيحات الهلع تتصاعدُ إلى السماء:

اللهمَّ ارفعْ عن عبادك هذا البلاء..

تنقلبُ السماء على الكوكب الأخضر..

إنها جائحة (فايروس كورونا) ..

جائحة توازي في عيني (كنزة) زمن المنية خلال أزمة الإرهاب
في (الجزائر) ..

هو ذات المنجل.. منجل الموت الذي يحصد الحياة..

تتمردُ عليها ذاكرتها في تلك الأصوات المذعورة عبر الهواتف
وفي الشوارع والدروب :

توفي.. الحمد لله..

توفي الحمد لله..

مات الحمد لله..

تكررت هذه العبارات خلال العشرية السوداء في الجزائر..وقد
يستغرب الكثير لهذا الحمد لخبر وفاة أحد من الأعمام ، لكن كان
هذا الأمر عاديا جدا خلال تلك العشرية للإرهاب في الجزائر التي
سادتها حالة التأهب القصوى وحالة الطوارئ وحظر فحظر فحظر
للتجوال وللحياة بصفة عامة..

حين أعلن حظر التجوال في المملكة العربية السعودية احترازا
من جائحة (كورونا) انتابت (كنزة) حالة من الذعر، وإسقاط لكل
الرعب الذي عاشته عشريّة من زمن الموت الغادر في الجزائر،
وكان الزمن لم يمض بها ، وكأنها لم تغادر الجزائر منذ أكثر من
ربع قرن.. عادت إلى تلك الحقبة المعتمة القاتمة من تاريخ
الجزائر.. إلى ذلك الزمن بكل رعبه، فهذه الكلمة لا تعني لها معنى
آخر إلا التهيو للموت الغادر:

سبي وتتكيل باقتحام المنازل من الإرهابيين خلال ساعات حظر التجوال.. تفجير لمبانٍ بأكملها.. حصار لأحياء في الليل الدامس من جماعات الهجرة والتكفير، بعد قطع أسلاك الهاتف والكهرباء..
حظر..

حظر يأتي فيه الموت والتكيل، فقد يقتحم باب بيتك رجال بزي الدفاع المدني أو الشرطة وماهم في الواقع إلا أدوات للموت...
إرهابيون..
إرهابيون..

حظر للتجوال ينقضي مع الساعات المحددة له ليبدأ بعد ذلك حظر آخر تفرضه الجماعات الإرهابية..

حظر من الخامسة إلى السابعة صباحا من السلطات الأمنية، لتحل محله منشورات تعلقها تلك الجماعات على الأبواب من السابعة صباحا إلى الخامسة مساء.. ومثل (كنزة) كل الجزائريين في تلك الأيام عليك أن تكون عدوا لأحد الطرفين.. تخرج إلى الدوام فأنت في جبهة الدولة التي حكم عليها بالطاغوتية..

امتنعت عن العمل فستفصل من وظيفتك وأنت ممثّل لأمر الجماعات الإرهابية بالإضراب والعصيان المدني..

في كل الأحوال أنت مستهدف.. تخرج إلى العمل صباحا وأنت متأكد أنك ستستهدف بوابل من الرصاص أو بطعنة خنجر من قبل الإرهابيين لأنك اخترقت حظر التجوال الذي فرضوه..

هكذا كان حظر التجوال خلال العشرية السوداء في الجزائر..

مع أول أيام الحظر (الكُرُونِيّ) هنا التجأت (كنزة) إلى بيتها في الريف الألمعيّ - جنوبيّ المملكة - وحاولت أن تخفي رعبها عن الكل.. عاشت مع هذه الكلمة كل الآلام الماضية في الجزائر.. حاولت أن تستوعبها بكل السّلم الذي تحمله في المملكة..

أيام وأيام وهي تقاوم رائحة الموت التي كانت تتضمنها كلمة (حظر) والتي حتما ستتعى خبر موت الأعراء غدرا ، إذ لم يكن خبر الموت في حد ذاته هو المرعب ، بل كيف مات؟ لذلك سادت العبارة : مات فلان...كيف مات ؟ قتل.. اغتيل؟ أم توفى وفاة طبيعة؟..

الحمد لله مرض وتوفى..

الحمد لله توفى في حادث مرور.

بعد بضعة أيام من حظر التجوال في زمن (كورونا) في المملكة في بيتها حرّرها ذلك الحظر من سوداوية هذه الكلمة، وتحولت رائحة الموت المنبعثة من عبارة (حظر تجوال) إلى أريجٍ يزفُ الحياة والأمن والأمان من هذا الوباء وإلى حظرٍ لذيذ..

امْحَرَمَة فِي الْحَظْرِ..

تعاشت مع هذا المصطلح الذي كثيرا ما أربها لارتباطه بالحروب وانفلات الأمن هناك..

لم يعد بعد مرور بضعة أيام مرعبا وسوداويا كما اعتادته في
عشرية سوداوية من الإرهاب في مسقط رأسها..

هو حظر احترازي من عدوى وباء فيروس غريب..حظر التجوال
في منطقة (عسير) زاد من شغف النزوح إلى تهامة، وكان
فيروس (كورونا) زاد من سحر التهائم وزاد من عشاقها..
الكل شد الرحال من السراة نحو تهامته على امتداد الإقليم،
وعلى عكس ما يحدث عادة في هذا الموسم من بدايات الحرّ في
(تهامة) حيث ينتقل التهاميون إلى السروات اللطيفة
المناخ..(كنزة) مثلهم أتهمت..

حظر التجوال في بيتها الريفي تراءى لها فسيحا:

(جبل قيس) مصرّ على انحداره عند منبت حديقة بيتها..شطّانه
متمردة بأريج يزيد أحواض الطيب والريحان في الحوش عطرا..
جبل (امصّغداء) يطل على سطحها جريئا..

(حصنُ شهران) الذي يتربع على قمّة جبله مخترقا الأفق يوحى
لها بأسطورة الحنّش "شهران" حارسه الأمين..

(وادي خَرار) حلزونيّ ملتوٍ بخجل عند حواف الخط..حفيف
نباتاته البرية توشوش لها سيرة كل السيول التي عبرت مجراه..
ما أعذب هذا الحظروكل التحرر الذي أتى به إلى أرض التهائم!!

حظر مطلق الفضاءات..

في بيتها التهامي تأتي إليها الطبيعة بكل رونقها، ومع حظر
التجوال الكورونيّ تتحرر من الزمن..من الوقت..تتحرر من

الجري وراء عقارب الساعة.. لا مواعيد.. لا استقبال.. لا زيارات..
لن تخرج لأحد..

ولن يأتي أحد..

هي مع الطبيعة في تحرر من جداول التوقيت.. فكم كانت تحلم أن تبقى في البيت يوماً أو يومين دون الاضطرار إلى الخروج والتقييد بالوقت منذ سن الثلاث سنوات ، حيث بدأت حياتها العسكرية مع والدها الضابط الذي لم يستأذنها يوماً ما إن كانت ترغب في الذهاب إلى الروضة أو المدرسة أو الكشافة..

مع حظر التجوال سوف تمارس كل حرياتها المكبوتة ومنها بقاؤها في البيت دون قيد...

مع حلول شهر رمضان تُقرّر أن تحدث ثورة في البيت.. تبدأ ذلك في غرفة النوم:

سوف أضع ستارة غامقة اللون حتى لا تزعجني أشعة الشمس في موعد قهوتي فأشعر بالصداع وأنا صائمة.. لا يهم إن كانت الستارة المقابلة بلون مختلف فلن تأتي أحدهن لتنتقد ذوقي..

أيتها التسريحة سأركنك في الزاوية هناك وأتحرر من تصميمات ديكورات غرف النوم الفرنسية وموضاتها، فلن تأتيني أية جارة لتعلق على ذلك..

أيتها التسريحة سأضع عليك كيس الدقيق والشعير والبر والنخالة والسكر هنا مقابلة لمكيّف الهواء حتى لا تتسوس من الحر، وحتى لا يغزوك النمل كما هو معتاد إذا أقبل حر تهامة واستيقظت

من سباتها كل المخلوقات الصغيرة...ستختفي مرآتك المزعجة..
 لن أحتاجها للتزيّن فلن أزور أحدهن..أنا في حذر تجوال..
 أيتها الحقيبة العملاقة من المساحيق والماكياج، سألقي بك في
 غياهب الأدراج..اقتنيتك من أجلهن دون قناعة ، فكم يتحسس
 وجهي منك!!

أيتها المساحيق سوف ترتاح بشرتي منك وتتعافى كما يتعافى ثقب
 (الأوزون) اليوم في زمن (كورونا) من دخان المصانع، فكم
 أرغمت، أن أصهر وجهي من أجل الكشخة أمامهن!!
 تلتفت نحو الدولاب الضخم المكتظ بالعباءات الفاخرة وفساتين
 السهرة والأكسيسوارات والجزم والشنط المطقمة..هي كثيرا ما
 تساءلت من قبل:

هل أنا واقعة في السفه؟ وهل أحتاج إلى كل هذه الأشياء لولا
 البروتوكولات النسوية الاجتماعية؟؟

هل لو كنت أعيش وحيدة دون تلك البرستيجات الغبية، هل كنت
 سأقتني كل هذه الأشياء!!؟

تأخذ كيسا كبيرا وتضع كل شيء فيه ، وتلقي به في أغوار
 الدولاب..لن أحتاجها، فأنا في حذر تجوال..

سوف أستثني عباءة التراويح..سأصلي بها في البيت حتى أشعر
 بأجواء رمضان، وهذه العباءة الفضفاضة عباءة الطوارئ، وهذا
 (الشبشب) الفسيح..سأعلقها على الشماعة عند الباب ، فقد
 يصيبني شيء من حمى (كورونا) حينها يجد زوجي عباءة
 الطوارئ جاهزة ومعها هذه الشنطة الغليظة وهذا الشبشب اللفظ

الفسيح لكنها ساترة ما يليق بالعناية المركزة لو قدر الله.. تُخْرَجُ
 من دولاب الذكريات قمصان والدتها وأم زوجها الراحلتين..
 قمصانا واسعة فسيحة كقلبيهما.. قمصانا متواضعة فضفاضة من
 الأسواق الشعبية.. سترفل فيها حرة من ضيق تصميم فساتين
 الاستقبال.. فلن تأتي أحداهن.. هي تشعر أنها حرة..

حرة..

حرة..

في وجهها..

في بدنها..

تدخل حجرة المجلس:

سأحوّل المجلس إلى مصلى.. لن أضطر إلى طيّ سجادتي وعباءة
 الصلاة بعد كل فرض ونافلة..

تضع السجادة تجاه القبلة، وعليها المسبحة، والعباءة والمحرم
 على الكنبه، وتجعل من زاوية من المجلس مصلى..

آه في الزاوية المقابلة للنافذة أضع مرتبة حيث أستلقي للاسترخاء
 بعد العصر حين أنتهي من إعداد الفطور في الوقت الذي يغزوني
 فيه الصداع بسبب إدماني على القهوة..

بعد العصر ستتحوّل أشعة الشمس حارة قوية من هذه الجهة من
 البيت.. ستسقط أشعتها على جسمي، ومن الزاوية الأخرى
 ستتعشني برودة المكيف، فأقهر كورونا بأشعة شمس التهائم،

وأقهر هجير التهائم ببرودة المكيف.. سيبقى المجلس هكذا طيلة
الحظر، فلن تأتي إحداهن لتخفق حرיתי في مجلسي..

نحو المطبخ طاولة السفرة الكبيرة في الصالة لا دور لها.. هذا
رمضان.. هي تشعر بكثير من الأسى، فلن يقاسمها أحد من الأهل
الفطور في هذا الرمضان الكوروني، ولن تستوعب بسهولة مائدة
رمضان دون لمة العائلة الكبرى.. لكن الاحتراز الاحتراز، والأخذ
بالأسباب..

وبالتالي لن تُخرج طقم الخزف العملاق من الدولاب، ولن تضطر
لتلميعه كل ليلة، ولن تشعر بالرعب من كسره كلما اقترب منه أحد
الأطفال، فهو هدية غالية من والدتها من هناك في أرض البربر..
لن تحضّر بعض الأطباق الثانوية لأن الكل اعتاد أن يحضّرّها في
رمضان.. سأكتفي ببعض الأكلات.. سأكتفي ببعض المواعين
الطينية اليومية الخاصة بأطباق رمضان: قدح طيني لشربة
(الفريك) ، وآخر (للطاجين لِحْلُو) و(طاجين) من الصلصال لخبز
المطلوع،

وآخر للسلطة (الحميس) الحارة.. قُلة للماء بطعم القطران..
وأخرى لعصير البرتقال بماء الزهر والقرنفل المبخر، و(مشهفة)
لثميرات، وكسرة خمير.. تضعها كلها على طاولة السطح الصغيرة
دون أي بريستيغ..

هي فقط غير قادرة على التحرر من حق "الغايب" رغم أنها
متأكدة أنه لن يأتي أحد من الأهل للفطور ليخترق حظر
التجوال.. فحق "الغايب" من قيمها ولن يستطيع الحظر أن
يحررها منه كما حررها من كل القيود الأخرى.. لكن حتى لا تشعر

بالتبذير والإسراف ستوزع حق "الغايب" قليلا منه لقطط الحديقة
والبعض منه للطير عل السطح...

هي حرة..

حرة..

في تحرر مع الحظر..هي..هي..

كل البشر هي..

حرَّ حظرُ التجوال كلَّ البشرِ من بعض البروتوكولات
والبرستيجات التي يلتزمون بها رغما عنهم من أجل الآخرين في
تفاصيل حياتهم وداخل بيوتهم ، وكل ما يلتزم به الإنسان لا
لقناعته.. أشياء يشتريها..سلوكيات يسلكها..مصاريق وقروض
أرهقته من أجل الآخرين..هل هو فعلا يرغب فيها؟

هل فعلا يقوم بها لأجل نفسه ؟

كم يرهق الإنسان نفسه وعمره القصير من أجل أشياء لا يرغبها
في قرارة نفس !!

(بُو مَنْقُود) و(كُورُونَا)..

جَعَلْتُ مِنْ بَيْتِهَا مَسْرَحًا لِحَرِيَّتِهَا..

لا (موضات) وافدة تفرض عليها (ديكورات) جديدة في بيتها ،
ولا تتقيّد بأيّ التّزامات (بريستيجيّة) اجتماعية تشغل الصائم عن
ماهية هذه العبادة..

تشعرُ أنّ هذا الرّمضان (الكرونيّ) هو لله ولها فقط ، تقضيه بين
صيامٍ وقيامٍ وختم الكتاب ، وتحضير ما تيسّر للفطور والسحور..

رمضان الجائحة بين الاحتراز والحظر له وقّع خاصّ في
تحرّرها..

صفاء ذهنيّ وروحي..

تشغلُ (اليوتيوب) وهي تحضّر الفطور في المطبخ ، تردد مع
القارئ ، وتخطبُ (كنزة) من حينٍ لآخر نفسها:

- خلّصت أنبوبة الغاز..

الحمد لله انتهيت من إعداد الفطور..

تُسرع إلى (بُو لَحَاف) الذي ينام طول النهار في رمضان، فهو
مدخن شرس..بعصبية توقظه من نوم يشبه الغيبوبة :

- قم..قم... أنت أمام خيارين..يفزع ويسرح بخياله..

- آهاه... لقد اكتشفت أنني جاملتُ إحداهن على (الفيس)..

- طبعا هو من صناع الكلام الجميل..

تكمل بعصبيتها :

إما أن تقوم تلهبُ وإما أن تخرج لتأخذ أنبوبة غاز..

- طيب اطبخي على الكهرباء..

- أنت تدري أنني لا أحب طبخ الكهرباء.. والحين وين أسوي قهوتي وما بقي إلا نصف ساعة على الحظر؟ كيف تجيب غاز؟
تطمأن وتنفّس الصعداء:

- آها الحمد لله.. لم تطلع على آخر تعليق علّفته على الشاعرة
"عطر الليل" ..

بعد ربع ساعة توقفت شاحنة ممتلئة بأنابيب غاز في حوش البيت
:

- هاه تبغين غاز.. هذا الغاز جا عندك..

هذا تطبيق (توصيل)..

نظرت إلى السماء:

الحمد لله ولا في الخيال..

صداع رهيب يشق رأسها بعد عصر كل يوم في رمضان، حيث ينتهي مفعول آخر جرعة من القهوة تأخذها قبل الإمساك، لكن صور "بو منقوذ" هذا اليوم طغت على الصداع في حادثة الأنبوبة

وتطبيق (توصيل)..

استحضرتُ صور "بُو مَنْقُود" ..

هي دائما على موعد معه في المولات.. في الأسواق.. في العيادات.. في المطارات.. في البنوك.. عند الصرافات.. دائم الحضور هنا وهناك أينما حلت..

يرددُ دائما شاكيا باكيا:

- الله لا يسقي ذا المولات ما بقت لنا قرش.. ونفرت بحريمنا وعوالنا.. ما عاد ألزموا في البيوت..

الله لا يسقي ذا الزحمة.. ما عاد واحد يحصل حتى مواقف في الأسواق.. الناس كَنَّهُم حوت ما بقي واحد في بيته!!
في المستشفيات عند (الأسانسير)..

- أتعبتُنا الزيارات والمجاملات ، يقف الواحد ساعة عند (الأسانسير) في الطابور..

في المطارات فتَّحوا عيون عوالنا على الأسفار والإجازات الله لا يسقيها من مدة..

يواصل (بُو مَنْقُود) وهو في الحرم:

- واش هذي الزحمة ما عاد الواحد يعتمر براحته ولا يقدر يصلي في المطاف كل وقت مليون؟!!

وإن دخل الروضة الشريفة:

الله المستعان الروضة دائما مليانة ما عاد دخلنا بيسر..

وشن بالناس على طول برّا ما يجلسون في بيوتهم لا في نهار ولا
في ليل؟!!

تحقق (كنزة) في سقف غرفتها.. تسترسل في التفكير رغم
الصداع.. تفكر في طبع الإنسان المتناقض :

- هذا هو صاحبنا "بو منقود" .. يشتكي على طول الخط..
يلعن كظيم الوجه.. لا يعجبه شيء..

حلّ (كورونا) وحلّت معه كل الاحترازاات وحظر التجوال و(بو
منقود) دوما على مواعده معها...

أمام المول يحاول اقتحام إحدى البوابات المقفلة:

- الله يلعن ذا (الكورونا)، قفلوا علينا المولات، ما عاد يحصل
أحد فين يمشي عواله.. العوال ميد الملاهي والمطاعم.. انسجنوا
في ذا البيوت..

في المستشفى:

- أعوذ بالله ما عاد زرنا مريض ولا تجمنا ، حرمونا من
واجب زيارة المريض..

في الأسواق:

- الله يلعن ذا الكذاب.. مسافة متر بين الزباين.. ويقيسون حرارتك،
كأنك مجدور، ويعطونك تعقيم وقفازات!!!

في المطارات:

- سبحان الله!! ما عاد طائرة طارت ولا هبطت!! الله المستعان،
ميدَ نمشي عوالنا...

في الحرمين:

- لا حول ولا قوة إلا بالله اللهم أطف بأمتك.. لا طائف ولا
زاير..

الله المستعان قتلونا بهذا الحجر..

(بُومَنقُود) وراءها.. وراءها دوما... (كَنْزَة) ترحمه، لأنه لم يعرف
طعم الاستمتاع بالنعمة، لا في أيام السراء ولا في

أيام الضراء..

سمع "بُومَنقُود" في الأخبار أن الحظر سيرفع تدريجياً:

- آهآه ما أسرعهم على رفع الحظر يبغون نُنْعِدِي ونمرض بذأ
الْكَوروننا!!!

مع شدة الصّداع تُتَمِّمُ (كنزة) :

(بُومَنقُود) يشتكي من حياته التي لم تكن تعجبه قبل (كوروننا)..

واليوم يدعو الله أن تعود الحياة إلى ما كانت عليه بزحمتها
ومصاريفها وكل تفاصيلها قبل الوباء!!

تنهضُ لتحضير طاولة الإفطار.. تخاطبُ صورتها في المرآة
المقابلة:

(بُومَنقُود) مرآتنا.. في أعماق كل واحد منا شيء من (أبي
منقود).. لا ندرك النعمة ولا نعيشها.. نطالب دائماً بالمزيد.. بأشياء

بعيدة المنال نعتقد أن سعادتنا فيها، ونتجاهل ما نملكه وهو كفيل
 بإسعادنا ، ولم نعرف أبدا كيف نَسْعِد ونظْمِنّ حتى خلال هذه
 الجائحة ، ممّا نعيشه هنا في المملكة من تدابير واحترازات
 وتنظيم محكم، وكأن شيئا لم يكن من هذه الجائحة مقارنة بدول
 عظمى وثرية انهارت تماما..معظمنا هكذا حين نفقد نعمنا بسبب
 نوازل الدنيا..

ترفع يديها إلى السماء..

اللهمّ أعد لنا الحياة التي كُنّا الكلّ نتذمّرُ منها قبلَ البلاء..

حَظْرُ الْمَنَازِلِ..

بيتوتية في رمضان..

زادت بيتوتيتها في هذا الرمضان (الكروني)..

تخرج للضرورة فقط..

كل ما أطلت مركبتها من نفق بلدة (الشعبيين) - مقر محافظة رجال
المع - انتابها حنين إلى الحرم المكي عند مجسم الساعة في ذلك
الدوار..

لكن هذا اليوم من ظهيرة رمضان الجائحة يغمرها شعور من
الاندهاش..

جموع من الناس في اكتظاظ وزحام حول الساعة وعلى الطرقات
التي تحيط بالدوار.. لا تكاد (كثرة) تلمح شبرا من الأرض
والحدائق والمساحات الخضراء..

ما حول الدوار تغطيه أجسام بشرية ورؤوس قد أهبها هجير
التهايم تحاول - دون جدوى- البحث عن فيء تستظل به قليلا من
لظى أشعة شمس الظهيرة..

تحاول (كنزة) أن تسلك الطريق للعودة إلى بيتها، لكن دون نجاح.. كل الطرقات مكتظة بالناس وعند كل البيوت عساكر يمنعون الناس من الدخول إلى بيوتهم..

بصعوبة ومشقة تسألُ بمركبها إلى عقبة (امصمَاء)..

قرويون يفترشون الطريق تحت الشمس..

أطفال.. عجائز.. رضع..

رجال هنا وهناك يحاولون الابتعاد عن جموع الحريم حتى يأخذن قليلا من حریتهن..

ما الذي حدث؟؟

تتساءلُ (كنزة)..

لا أحد يردّ عليها..

كلّما تقدمت نحو مدينة (أبها) ازداد الزحام..

جبل (تَهْلَل)..(السُّودَة)..جبل (امشَرَقِي)..(الحزام الدائري)..

ساحات أبها.. أزقتها..صخب.. تتزاحم.. لا يجد الناس مكانا

يجلسون فيه ليرتاحوا من الوقوف..

أيادٍ تُرفع إلى السماء للدعاء..تَضْرَعُ إلى الله..

صراخ أطفال..

غضب رجال..

جدال بين العساكر والناس:

- ممنوع الدخول إلى منازلكم إلا للضرورة القصوى..

ابقوا في العراء..

اخرجوا جميعا من المنازل..

هكذا كان العساكر يصيحون..

شاشات إلكترونية على الطريق تنبّه الناس:

- سلامتك في البقاء في الشارع..

- حافظ على صحة أسرتك ، وابق في العراء..

مطرٌ وبرَد ورياح قوية في أبها..

ربيع (أبها) موسم المطر والسيول..

يبحث الكل عن مأوى يحميهم من حبات البرد الصلبة التي تخبط

رؤوسهم.. لكن العساكر يردونهم إلى العراء:

- احم نفسك.. احم أسرتك..

ابق في الشارع..

هناك حظر للدخول إلى المنازل وغرامة وسجن لمن لا يلتزم

بذلك..

- تفضلي يا خالة.. شابٌ عشرينيٌ مُسفرٌ الوجه يوجّه جهاز قياس

الحمى نحو (كَنزَة)..

يُقبلُ نحوها عاملٌ أسوي يرشُّ عربية المقاضي بمعقم.. تلتفتُ

خلفها..

صَفٌّ مِنَ الزَّبَائِنِ بَيْنَ كُلِّ اثْنَيْنِ مِنْهُمْ خَطٌّ أَحْمَرٌ بِمَسَافَةِ مِثْرٍ..
تَدْخُلُ إِلَى السُّوقِ..

شَبَابٌ وَفَتَيَاتٌ مَجْنُدُونَ يَلْبَسُونَ كِمَامَاتٍ وَقَفَازَاتٍ يَنَاطِلُونَهَا مَعْقَمًا
وَقَفَازَاتٍ وَكِمَامَةً..

صَحَّتْ مِنْ هَاجِسِهَا :

شَاشَةٌ إِرْشَادِيَّةٌ عَمَلَاةٌ تَقَابِلُهَا كُتِبَ عَلَيْهَا :

ابْقُوا فِي مَنَازِلِكُمْ.. لَا تَسْهَمُوا فِي نَشْرِ الْعَدْوَى..

حَافِظُوا عَلَى أَسْرِكُمْ..

حَمَدَتِ اللَّهُ..

العمّ قيس و(كورونا)..

شُدَّتِ الرَّاحِلَةُ..

العمّ (قيس).. العمّ (عاطف).. أبي (غالب).. مجموعة من القرويين
والقرويات..

عيون مشرّبة نحو أفق صبيّ السّحر، غائصة في طليعة هذا
الفجر الذي يغادر الخريف بعد (أمّصريم) وحصاد الدّرة الوفير من
(أمّبلد و أمّشطان) أواخر أيام هذا الخريف..

الآن حان وقت "أمّجهمة" .. الكل على قدم وساق يحط (أمّزودة)
على (خيّ) جمل أبي (غالب)..

فجر هذا النهار يرسم إطلالته في خواطر القرويين، ويشق لهم
 دربا جميلا حول تلك النجمة التي تتلاشى شيئا فشيئا مع بزوغ
 الفجر ، وينصهر شهابها في ملا هذا السحر حول أماني الحصاد
 الخصب هناك..

أزف الرحيل.. أزف الرحيل نحو (بيش العيش)..

تباشير شتاء أخضر يعد كل الفلاحين في أرض بيش اليمن..

(وَمِي فاطمة):

- يا الله يا (كنزة).. تزلّمي.. ألهيّنا..

- تمّ يا عمّة..

تهرع (كنزة) إلى الصندوق الخشبي..

تخرج وزرتها ومنديلها وثوبا عسيريًا حصلت عليه كسوة من

العم (قيس) من (سوق الأحد)..

تلتحق بالجماعة في بطن (وادي خرار) وجميعا نحو (ميل

قيس).. (وادي كسان).. (الحبيل).. (وادي ريم العبق) ..

حان وقت الفجر.. يؤذن أبي (غالب) .. يقيم الصلاة.. يوم الجميع..

تُحضّر (المُعزّبات) الفطور على وقد الحطب:

خبزة الذرة والماء وفي تناغم مع تغريد الطير: ترّقن ترّقن

(صوت المهياج) يعد كنزة بنكهة قهوة عربية من أصدار (جبل

قيس)..

تُسْتَأْنَفُ الطَّرِيقَ الَّتِي تَخْطُ مَلَامِحَ جَمَالِهَا.. مَا أَجْمَلُ هَذَا الدَّرْبَ
عَلَى ضَفَافِ (وَادِي رِيمٍ):

ظِلَالُ عُرُوجِ السَّدْرِ وَشَجَرِ السَّمْرِ لَا تَغَادِرُ حَوَافِّ الوَادِي.. تَمْضِي
مَعَ (كَنْزَةِ) نَحْوِ (قَرْنِ العَرِيَانِ)..

نَحْوِ (دَرْبِ بَنِي شَعْبَةَ)..

يَرْتَاحُ الكَلُّ بِجَانِبِ (قَرْنِ العَرِيَانِ) وَقَدْ اخْضَرَّتْ قُلُوبُهُمْ بِبِصْمَاتِ
نَحْتَتِهَا غِصُونِ الشَّجَرِ فِي وَادِي رِيمٍ، وَمَنْ ذَلِكَ (الصَّمْعُ) الَّذِي
يَصْنَعُ زَخْرَفَهُ عَلَى جَذُوعِ شَجَرِهِ.. تَرْنِيمَةٌ تَنَاقِي حَلْمَهُمُ المَمْرُوجِ
بِالحَبِّ وَالْأَمَالِ وَالخَشْيَةِ..

مُوكَبٌّ مِنْ قَوَافٍ دُونَ نَهَائَةٍ تَعْلُو أَشْعَارَهُمْ.. تَلْكُمُ هِيَ (طُرُوقُهُمْ
وَنَوَاحِيهِمْ) الَّتِي تَرْفَهُمْ إِلَى (بَيْشِ العَيْشِ)..

فِي خَطِي وَاثِقَةٍ تَخْطُو (كَنْزَةَ) مَعَ (المَعْرَبَاتِ) إِلَى جَانِبِ الرِّفِيقَاتِ
(هَيْلَةَ - صَيْدَةَ - عَيْدَةَ - حِصَّةً) وَغَيْرَهُنَّ مِنَ الرِّفَاقِ..

تَخْطُو عِبْرَ (رِيمِ امْحَمَّةِ) وَ(رِيمِ امَّجْزَاعِ) وَ(امَّجَاعِرَةَ)..

وَمَنْ بَيْنَ (امَّجَبَلِينَ) - عَلَامَةِ دَرْبِ الجَمَّالِ - يَنْطَلِقُ الرِّفَاقَةَ
إِلَى (دَرْبِ بَنِي شَعْبَةَ).. (وَادِي رَمْلَانَ) (وَادِي بَيْضِ).. (وَادِي
سَمْرَةَ)..

فَلْ وَيَاسْمِينِ وَكَادِي.. عَطُورُ الزَّمَنِ العَتِيدِ.. هَذَا الأَرِيحُ الَّذِي
يَخْتَرِقُ الأَزْمَنَةَ يُهْدِي طَيْبَهُ فَوَاحَا لَلَّيْلِ المَنْجَلِيِّ وَالصَّبْحِ المَشْرِقِ،
وَلحَلْمِ هَذِهِ الأُودِيَةِ الَّتِي تَسْتَبْشِرُ خَيْرًا مِنْ مَنَاصِيهَا مِنْ شَمَارِيخِ

جبال (عسير وخولان وصعدة اليمن) ، فينتشي لها حلم (كنزة)
في تناغمٍ مع أحلام القرويين والفلاحين بحقول خضراء.

مزارع (وادي بيش)..

بيش..(بيش العيش).. سلة جزيرة العرب : (عذوق أمزعر) -
عذوق الذرة الحمراء- تناجي روح (كنزة).. تروي لها سيرة
أنبلجها من غسق رحم الأرض.. تصغي إلى حفيفها لحنا إلهياً
يهددها.. تترشّف نسيم هذا الصبح الدافئ الذي ينسج كل
الإشراقات التي تضيء ألوانها على الشيطان..

(وَمِّي فاطمة) :

- قد ألَهَبتِ يا ولدي انتِ وانتِ وامبَنات؟

كنزة:

- أيوه يا عمّه وقد امدلّه على امجر .

(وَمِّي شريفة):

- ذا الحزّه حزة امقروغ..

تحت ظلال الفيء الكل يتناول امقروغ..

ما أروع هذا التعاون في زمن (العم قيس) والعم (عاطف) و(أبي
غالب)..

لم يكن عيباً على المرأة التعاون مع زوجها وأخيها وأبيها وأبناء
عمومتها!!

لم يكن عيباً في ذلك الزمن الجميل البعيد الذي عرّجت إليه (كنزة)
 أن تخرج المرأة (مُعزّبةً) لأهلها من الرجال الذين يخرجون
 للصريم والحصاد في حقولهم وغيرها.. وكم هو جميل ذلك النظام
 الاقتصادي العُرفي المبني على مقايضة العمل بالقدر الكافي من
 عذوق الذرة وقسمتها بالعدل بين الرجال العاملين وأخواتهم من
 (المُعزّبات)!!

وباء الجدري..

مضت ثلاثة أيام من الكدح والعمل الشاق وآمال الفلاحين في
 شُطّانٍ و(زُهوب) وادي بيش..
 غير أن هذا الصباح مشؤوم..

وباء الجدريّ يصبّ رماده الملول على الأمانى..

هاجس الموت دوما يوهمنا بنُبلٍ عذب يطهرنا من أوزار كل
 الأحلام..

يلتهم الجدريّ جسد (العم عاطف) الصلب القويّ البنية.. لكن هذه
 الأجساد الصلبة تروّض كلّ الأوبئة.. لم تُخلق للاستسلام ، وتستمر
 الحياة أقوى، ويستمر موسم الحصاد..

يقرّر (العم قيس) و(أبي غالب) العودة بالعم (عاطف) المجدور
 إلى الديرة على ظهر جمل (أبي غالب)..

يُرفعُ جسد العم (عاطف) المعلول على (الخيّ) ، وتبدأ رحلة
 النهاية عبر ذات الأودية نحو(المع) ، وتحت هدير الحمى أقدام

حازمة عازمة تشييع العم (عاطف) إلى (وادي خرار)، حيث تروق
المنية عند عتبات مسقط الرأس...

بعد الخروج من بين (أمجبلين) ليلا يهيج جمل (أبي غالب).. يلقي
بالعم (عاطف) أرضا، ليلتحق بقطيع النوق في تلك الخبوت
المظلمة..

(العم قيس وأبي غالب) في خيار مصيري :

يغادر (أبي غالب) مستعينا بأحد بدو (آل حدره) للعثور على
جمله، ويقرر (العم قيس) حمل (ابن عمه) المجدور على
ظهره.. بادية وقفار تغزوها السباع والنمور والثعابين التي حتما
ستجلبها رائحة جروح العم (عاطف) المتعفنة بالجدري.. العم
(قيس) في صلابته ورونق ترويسته المعطرة بالطيب والتعريية
التي التصقت بها جروح ابن عمه يتنازل عن كل أحلام الفلاح في
مأونة السنة من حبوب (وادي بيث)، ليتسع حلمه متمردا يهزم
الموت في تسارعه ليسلم عاطف محتضرا لوالدته..

يرسم غسق الخبوت والأودية عوالم العدم للعابرين، وينثر عليهم
هواجس الوباء نحو الموت الحتمي وغدر قطاع الطرق في حلقة
ليل التهائم.

على غيل (وادي ريم) ، ومن جوف الليل بصيص من الأمل في
إطلالة التاجر (علي ابن الزهر) من قرية (رجال)..

العم قيس (حاملا ابن عمه) :

السلام عليكم..

التاجر: ترحيب ودعوات..

العم قيس : هذا ما صار علانا في (بَيْش)..

التاجر - ومعه جَمَلان متجها إلى الدّرب - يعطي (قيس) رغيفين
من الخبز هما زَوادته للطريق ليلتھمهما قيس فورا..

يعطيه أفضل جَمَلِيه لحمل ابن عمه..

صراعٌ بين (عمي عاطف) المَجْدُور وبين ابن عمه (قيس) الذي
فرح بجملٍ يحمل عنه الحمل الثقيل..

جسم (عمي عاطف) لم يحتمل الركوب على الجمل بسبب الجروح
المنقِيحة..

محاولات لم تصل إلى إقناعه..

- العم قيس :

كثّر الله خيرك يا علي..

أعاد حمل ابن عمه على ظهره متّجها صوب (الّمع)..

يمضي التاجر (علي الزّهر) في مسراه نحو الدرب..

يواصل العم (قيس) طريقه نحو الديار..

وما أغدر الليالي وبطون الأودية !!

وشوشةُ السيل ليلا توحى من بعيد بغرق أكيد، وعَبْرَ الروابي
الصخرية، يشق العم (قيس) صعوده يحمل هذا الجريح المحموم
على ظهره.. يصغي إلى تمتماته.. يستشعر هذيان الحمى التي تلفح
جبين ذلك الموعود إلى قدره..

هذيان مجدور خارج الزمن لا يؤمن بالشيء القليل من الحياة
التي لم تغادره بعد.

هل ما زال موجودا..؟

هل هو هنا؟ هل هو ذاك المرحوم؟ هل هو ذاك الراحل؟ هل هو
ذاكرة الحلم؟ هل هو تلك الروح دون جسد؟ على حافة الحياة
والبرزخ يحمل العم (قيس) حلم والدته (ابن عمه) في تشييع ابنها
إلى مثواه الأخير..

عبرَ (وادي كسان) - جانب سوق السبت) يصلُ العم (قيس) إلى
بيت الشيخ (مَجْحِيرِي) - أحد الوجهاء وصديق العم (عاطف) -
في قرية (مَخْطُوة) وقد أغرقته دماء جروح عاطف المتعفنة
وغمره الصديد الذي ينسكب من الحُفَر التي نخرها الجُدريّ على
جسد ابن عمه..

يستقبله الشيخ مرحبا وحزينا لما رآه.. يقدم له (صَحْفَةً) من
(الثَّرِيف) ومن السمن الساخن.. يزوده بحمار (مصريّ) أبيض ،
ورحلي فاخر..

يسترجع العم قيس شيئا من طاقته بعد هذه الأكلة..

يرفع (عاطف) على الرّحل..

مع بزوغ الفجر يطلّ على واديه (خرار) ليسلمّ العم (عاطف)
محتضرا لوالدته..

لم يمِت العم عاطف.. قضى على الجُدريّ مثل الكثيرين الذين
أصابهم هذا الوباء وأوبئة أخرى فتاكة....

العم (قيس) و(كرونا)..

طرقُ..

طرقُ..

طرقُ...

تفتح (كنزة) عينيها..

تحَدِّقُ في سقف الغرفة إثرَ هذه الرحلة الشاقة إلى (وادي بَيْش) هي غير قادرة على تذكر أي تفاصيل عن الزمن الذي تحيا فيه:

غرفة مخملية..شيئ غريب يرنّ عند رأسها..صندوق بالجدار يطلق نسمات من الهواء البارد المنعش..

تقوم وقد التبست عليها الأزمنة..

تتجه نحو صوت الطَّرْقِ..

ترفع الستارة..

طيرٌ أسود يدق بمنقاره زجاجَ النافذة..

الآن تذكرتُ :

هي منذ أكثر من عقدين تعيش في هذا البيت..في بيت زوجها الشاعر (بولحاف)..وهذا الطير هو (امهيم) الذي يشاكسُ خياله حين يعكسه الزجاج..

تتذكر أن (ومّي فاطمة) حدثتها كثيرا عن (امهيم) الذي يأتي مع بدايات الربيع التهامي..

تتذكر كل شيء..

تسرع إلى السطح..

يطل عليها (جبل قيس) وقورا..

وهناك في صدر الجبل المقبرة التي تضم رفات العمّ (قيس) ويرقد في ثراها بجانبه كل الأعمام الذين عرفتهم ، والذين لم تعرفهم..

تتذكر رحلاتها مع العمّ (قيس) - والد زوجها - والإخوان الصغار في رحلات الحُبّ التي كان العمّ (قيس) يصر عليها :

(نتمشى بأميرة نسلها عن بعد أهلها) ، وفي كل عصريّة حكاية شيم ورواية قيم قوم وأعراف قبيلة يقصها العمّ (قيس) لكنزة .. أدركت أنها كانت في حلم لإحدى قصص العمّ (قيس).. غمرت عينيها دموع الاشتياق والشجن والحزن، ورفعت يديها إلى السماء :

ترحمت على العمّ (قيس) ، وأطلقت كلمتها في الملا :

لم يكن ليهزمك فايروس (كورونا) يا عمّ (قيس) وكلّ النجوم الآفلة في بطن هذا الجبل : قوم يجعلون الشرّ عافية..

(بُو دَشْرَه) و(كورونا)..

كلُّ التخمينات تصولُ وتجولُ في عقلها المتشئت من نقص (الكافيين)..

تتساءلُ عن بني آدم كيف تحرَّرَ في زمن الحظر من كل (البروتوكولات) صامتة لا تقدر على مخاطبة قِطَّتِها المُعْتَرَّة بين ساقيها من شدة الصِّداع..

تلمحُ (بو لحاف) يقف عند عتبة المطبخ متحفِّظاً متلغِّثاً..
لا يجرؤ على الدخول، ف(امْحَرَمَة) شديدة العصبية حين يرتجل الذكور اقتحام المطابخ..

يخاطبها من بعيد:

- تحتاجين شَي من السوق؟

لا تردُّ عليه وقد أوشكتُ جرعة (الكافيين) في دمها على التبخر
وغزاها الصِّداع المعتاد قبل عصر رمضان..

تجيب بكلمة وجيزة:

- لا..

يتوددُ إليها متمنيا أن تطلبه شيئا - ما - من السوق قبل أن يبدأ
حظر التجوال :

- أنت متأكدة ربما تنسين شيئا؟

- قلت لك لا عندي كل شيء ولا ينقصني شيء، وتعلم أنني أقضي
كل ما يلزمي لرمضان مرة واحدة للشهر بأكمله..

- طيب قُرب العيد وأعلنوا أن هناك إغلاقا كاملا..

تردُّ عليه بصعوبة وعصبية وكأنها ترى كل ما حولها في المطبخ
دلالَ ضَغَطٍ إيطالية لقهوتها:

- لا أحتاج لأي شيء للعيد فقد أخذت كل شيء قبل رمضان كما
تعلم..فأنت تدري أنني بيتوتية في رمضان ولا أخرج عادة إلا
للضرورة وهذا قبل زمن (كورونا).

لم ينجح (أبو دشرة) الذي كان يشتكي دوما من كثرة مشاوير
السوق وعدم تنسيق كل الطلبات في طلعة واحدة..

- طيب إذا تذكرت شيئا عادي علميني سوف أطلب إذن خروج..
تبتسم ..و تُحدِّث نفسها:

- أيوه يا (أبو دشرة)..لا أمل لك في أي طلب مني..

- استرخِ على "قعادتك" في حوش البيت وتخاطب مع أبناء
عمومتك من بعيد في أحواشهم..

يغيب قليلا ، ثم يطل عليها مُرهبًا من عصبيتها لفقدائها الكافيين:

- كأن وجهك باهت.. كأنك شاحبة.. كأن بك شيئاً من الهبوط.. آخذك للطوارئ؟

- ممكن هبطانة من قلة (الكافيين) في دمي هذا هو الصيام لكن شاحبة لا أظن هذا..

تُسرعُ إلى المرأة.. تحقّق في وجهها وقد لفحه حر المجرم الذي كانت تخبز عليه خبزة المَطلوع ، وقد احترق من الاحمرار:

ما به؟

كيف يراني شاحبة؟

لا تبالي بكلامه.. تعود إلى المطبخ..

يصر:

- ألا ترغبين في المستشفى في الطوارئ..؟؟؟

- لا.. لا.. لا.. أنا على مايرام..

يفقد (أبو دشرة) الأمل..

يجلس على قَعادته المظلة على الوادي وعلى أحواش بني العم وكل آماله أن تتعب (أمحرمة) بعد الفطور فيطلب إذن الخروج ساعة للطوارئ ليطلب لها مغذياً ويختلس من زمن الحظر شيئاً من الحرية يجوب فيها أودية تهامته بحجة: أمحرمة في الطوارئ عند كل نقطة عسكري...

بعد الإفطار تجوب عيناه الطاولة.. يكتشف حيلة جنونية:

- أنت يومياً تأكلين (الطاجين لِحلو وقلب اللوز والخمير والمطلوع والحلبة والقطبية)..لازم يكون تلخبط ضغطك وسكرك، سأطلب إذنا بعد العشاء آخذك للمستشفى للمراجعة..

- أنا فعلا أدري أن هذه المائدة تمتد من أرض البربر إلى أرض الأزدي في تهامة، وهذه أكالات قد فتكت بالبشرية من المحيط إلى الخليج، لكن تطمان الحمد لله معنا كل أجهزة القياس، فأنا احترازيا أقيس ضغطي وسكري وكل شي تمام...

- يحتال (بُو دَشْرَة) ويخترع حيلة أخرى:

- طيب آخذك حتى تسوي السكر التراكمي؟

لا تبالي بكلامه وتستمر في أخذ لقيمات من (الطاجين لِحلو) تارة وتارة أخرى ترشّف قليلا من (القطبية).

(بُو دَشْرَة) كبير العائلة يوصي الشباب من عائلته:

يا شباب انتبهوا من التجمع..

يا شباب انتبهوا من العومة..انتبهوا لا تجيبون بلية لعوالكم..تروا هناك تنبيه شديد من العدوى لا تطلعون إلا للضرورة..

(بُو دَشْرَة) كبير العائلة..الشخصية الاعتبارية يمثل لتوجيهات منظمة الصحة العالمية، لا يرغب أن يقع في التناقض مع تعليماته للعائلة ومع نفسه..لكن في داخله حلم القروي الفسيح في الفضاء المفتوح في الزمن الممتد الذي لا يقتنه (كورونا) بحظر تجوال أو منع تجمع..حين ينزوي على قعاداته المظلة على الوادي والشعاب يتمنى لأول مرة أن لا يأتيها السيل..يحدّق في السماء..يمقت لأول مرة السحب وجدائل الذرة في مزرعته حسدا إن أتاها السيل في

أزمنة الحظر فلن يلاقيه ولن يستطيع أن يروضه ولن يستطيع أن
يمتطي العقوم لتتشبع جوارحه بنشوى المَرَج ورائحة العشب
الذي يمتزج بزبد السيل وعبق المطر..

على (قعاته) في حوش بيته يسترسل في غسق الوادي الذي
غادرتة كل المركبات في دجى الليل التَّهامي.. تُعَرِّج أمانيه
ودعواته.. تتصاعد شفافاً إلى آفاق العشر المباركة متضرعا أن
ينقضي زمن (كورونا) جارفا وراءه كل أوزاره التي أثقل بها
البشرية وانتهك بأساها حلم الراعي، ليعود إلى حلمه المشروع..
سيلاقي القطيع في كل أزمنة النهار.. سيعود إلى حلمه المتواضع
في انتظار السيل.. سيشم رائحته من بعيد من أصدار الجبال..
وسيصغي إلى هديره حين ينساب مداعبا الأعشاب البرية على
حواف مصبات أودية (تهامة)..

تحت وطأة الصّداع في رأس (كنزة) الصّغير، تتيقن أنّ كلّ البشر
هم (بُو دَشْرَة)

منذ الأزل مهما كانت بيناتهم على سطح هذه الأرض بماهية كل
إنسان: ذلك القرويّ المُعتق.. ذلك البدويّ المعتق.. ابن الموج وابن
الساحل وابن الهجر.. وابن الصحاري.. ذلك الإنسان البدائي المطلق
في الطبيعة المطلقة مهما صنعت يداه عبر حضارات البشرية من
أسوار صنعت مدنا ومعمارا..

الإنسان (بُو دَشْرَة) رجلٌ طليقٌ حرٌّ يدعو في هذه العشر المباركة:
اللهم ارفع عن عبادك هذا البلاء..

لنْ أَقْصَّ شَارِبَكَ!!..!!

يَسْتَمِرُّ الإِغْلَاقُ :

إِغْلَاقٌ عَامٌ..

حَظْرٌ تَجْوَالٌ..

احترافات صارمة للحدّ من انتشار عدوى (فيروس كورونا)..

جائحة لا بدّ من التكيف معها..

صالونات الحلاقة كغيرها من الأنشطة الغير ضرورية حيويًا

أُغْلِقَتْ بِدورها..

طال شعر التهاميّ (بُو خليل)..

أعجبه وراح يستعيد أمام المرأة تقاسيم صبوتته لعله مع الحظر
يتحرر من كل قيد وافد من الألبسة، وخاصة من الأشياء التي
أسرّت رأسه عقوداً من الزمن في العمل والمراسم الرسمية
والمناسبات الاجتماعية، حيث أضاعت منه الكثير من ملامحه
التهامية..

بعد الإغلاق (الثالثة عصراً) من كل يوم يمارس شيئاً من تهايمته
وقرويته:

عصابة..

وزرة..

خنجر..

يعتلي (قعادة) في حديقة بيته على مشارف الوادي ، يترقبُ أذان
الإفطار، ويعود يعود إلى ماهيته..

ولكن..ولكن..

مع طول شعره واسترجاعه للترويسة طال شاربه..

لم يسبق له من قبل أن تجرأ على تصفيفه بنفسه..

راحت أزمة (كورونا) تتفاقم في عينيه حين صار شاربه عائقاً
يحول بينه وبين التمرق والتفنن في ترشّف هذا المرق بلقيمات
عصيدة البر الأسمر..

كان خلسة يسطو على علبة الخياطة العتيقة الوافدة مع (كَنزَة)
(جهاز الطفلة)..

علبة الخياطة هي ذلك الموروث الثقافي والعنصر الأساسي الذي رافق جهاز الطفلة (كَنزَة زوجته) من مغارب الشمس، حيث أصرت والدتها على أن تُقحمها في (حقيبتها) حين رافقت زوجها إلى بيتها في أرض (رجال ألمع في السُّعودية)...

علبة الخياطة لها قداسة خاصة ودور حيوي في تفاصيل الحياة اليومية للعروس الجزائرية.. فهي لكل الطوارىء التي تحصل لثياب (مُولى البيت):

أزرار مفكوكة..

ثقب مفاجيء في ثيابه و..و...

حيث تكون هذه العلبة حاضرة مع حالة التأهب القصوى للزوجة وهي تسهر على لبس زوجها صباحا حسب عرف عجائز (مزغنة القديمة)...

(بُو لِحَاف) كثيرا ما كان يسخر من جلب هذه العلبة من أقاصي أرض البربر، فالأرجاء في ديرة (ألمع) تعج بالخياطين الباكستان ، لكن مع أزمة (كورونا) استوعب دور هذه العلبة الثلاثي الأبعاد..

كان يتخير ويتفنن بكل أحجام المقصات التي بداخلها ليصفف شاربه ويحد من طوله الذي صار منظره شادا..

لكن دون جدوى.. تارة يقصه مائلا وتارة أخرى يقص شفثيه فيلطح كل مقصات (الطفلة) بدمائه..

عجز (مُولى البيت) عن تهذيب شاربه وراح يستنجد بزوجته:

- لازم تقصّي شاربي فأنت ماهرة في التحكم في هذه المقصات..

- واشن بينك يا رجل؟!!!

حشاك وعزك الله نمدّ يدي على شلاعمك..

- لا لا مدي يدش وما علاش.. فكيني من هذا الشبك على لحيي..

خليني أعرف أكل..

- (جامي...جامي..jamais..jamais..) – أبدا أبدا..

تنقص يدي وما نديرهاش!!

يئس (بو لحاف) وراح يتمتم:

متخلفة..

متخلفة..

متحجرة..

ويحسدونني يقولون ثقافتها فرنسية!!

هاهاها..

جمعت (كنزة) مقصّاتها في العلبة ، وأخفتها عنه حتى لا يعبت

مرة أخرى بشاربه..

شاربه الذي يرتسم لها كجناح صقر جارح يلف (جبل قيس) العتي

الذي يظل سطح بيتها التهامي..

راحت تسترسل مستحضرةً مزامير (يمّ كُبيرة) و(مائي) و(للاً

سجّيه وللاً نجّيه)..

كلهن من سيدات رسخن فيها تعاليم ومزامير تُعدّ الطفلة للحياة
والتعامل مع (ناس دارها ومولى البيت) ، فهناك المرأة تعد
المرأة.. ولمس المرأة (شلاغم) الرجل إهانة له، وتتذكر استمرار
قبضة والدتها عليها في بيت زوجها:

- بُوووة يا طفلة كيفاش تعطيه الزبل يرميه؟ هذا تطياح قُدر!

ياطفلة سَوَدتي وجهي!! كِيفاش راجلك يجيب لك حاجات تَع
النساء؟!.. راعي تطيحي في قُدر و!!!

- لا لا عادي عادي هنا.. ماشي كيما عندنا..

- لا يا طفلة ما تكسريش الحرم تع مولى بيتك!!.. الراجل.. راجل..

تغوص (كَنزَة) إلى البعيد في ذكريات الخصام مع والدتها عن
أمر تراها الوالدة إساءة للزوج وعدم اهتمام به..

- يا طفلة كيفاش تعطيه الحوت بلا ما تتحي لُو الشوك؟!..

تنظف والدتها السمك من الشوك لزوج ابنتها، وتقص له لقيمات
الخبز حتى يجدها جاهزة كما هو مفروض في البيت (القصابوي)
في العاصمة..

وتلك المعركة لن تنساها أبدا، حين قررت والدتها الرحيل لأنها
فقط قدمت لزوجها قطع الحَبب دون تنظيفه كاملا من الزريعة..

خلال أكثر من ٢٠ سنة من إقامة والدتها معها في بيتها الزوجي
كانت تؤكد لها دائما تعاليم ومزامير عجائز البربر:

ما تعطيش الراجل إلا قلب (الدّلاع) - الحجب - وتُنْقِيَهُ من
الزَّرِيعة.. وما تعطيهش غير فخذ ادجاج بلا عظم، وقطعي لُو الخبز
لقمات، وحركي لُو السكر في القهوة..

تعاليم وتعاليم بمثابة الفطرة عند البنت هناك ، وإلا فستحظى
بتوبيخ (ماثرَبْتش في دار باباها..)

كان (بُو لحاف) يستنكر كل هذا في جلد البنت الجزائرية، ويظن
أن والدة زوجته مبالغة بسبب حبها له ومكانته في قلبها حتى
تفاجأ بشيخ من شيوخ الجزائر الكبار يردّ على شكوى إحداهن في
برنامج تليفزيوني:

- يا شيخ مولى البيت طلقني لأنني أعطيتو (الدّلاع) - الحجب -
وما نحيّش الزَّرِيعة..

- عندو الحق.. راجل ويحبّ يتسلطن في دارو..

طبعاً لو شكت هذه الزوجة إلى القاضي هذا الطلاق التعسفي لرد
عليها بنفس الرد..

تأكد (بُو لحاف) من صرامة هذه المزامير في أرض البربر، وراح
يتمتم كعادته:

هاهاها..

ويقولون ثقافتهم فرنسية..

مع خضرة (جبل قيس) التي امتزجت غصّة شجنة بتلك
الذكريات، وتلك الصرامة الجالدة لرقّة كل طفلة في البيت

الجزائري، ظنّت (كَنزَة) أنها تخلصت منها شيئاً فشيئاً في أرض
ترأف بالقوارير..

لكنّ كل تخميناتها سقطت حين صرختُ فيها مزامير والدتها:

- لا..لا.. لا..

أبدا لن أقصّ شاربك..

ليلة القدر

تمضي أيام رمضان (الكروني) هادئة.. وبالرغم من كل الاطمئنان
الذي تشعرُ به (كَنزَة) في ظلّ كلّ تلك الاحترافات في البلد ، فهي
هذه الليلة تشعرُ بالأسى..إنها ليلةُ القدر..

عيناها شاخصتان على الكعبة الشريفة..

حزنٌ يملأ صدرها.. حاولت أن تكتب فجفَّ القلم ، وتصلَّبَ
(الكيبورد) من الدم المتجمد في أصابعها..

عجزتْ عن الكتابة ، فجادَ جفناها بدمعتين انتثرتا على (الكيبورد)
قالتُ بهما كلّ شيء:

اللهمَّ رُدِّ إلى بيتك الحرام طائفية..

ذات ليلة سرّوية..

مضت ليلة القدر في زمن الجائحة كئيبه..

تتجه (كَنْزَة) - مع (بُو لحاف) إلى (أبها) في السروات لأقتناء
بعض حاجات العيد.. يسابقان عقارب الساعة قبل حظر التجوال..

كلُّ الوجوه في السوق باهتة حزينة.. تدخلُ بيتها في (أبها)
محبطة..

تُطلُّ عبر تلك النافذة اللّجينيّة مهووسةً بقاء فرحة..

بحثت وبحثت..

تهيمُ عبر رُصافةٍ كُتبتُ في داخلها حروفٌ حين تُشير إليها بيمينها
تخذلها.. تمقتُ شغفها بتلك الفرحة الأولية التي أحبّت أن تستعيرها
من زمن ولى قبل الجائحة..

عبر تلك النافذة اللّجينيّة

تُطلُّ على الكون..

تبحث عن فرحتها الضالة..

عن قهقهة طفل..

عن أهازيج راعية..

عن زرقة جزيرة..

أخبرها ذلك الليل أنها مضت بعيدا..

تلك الليلة كانت المساءات

تصنع غسقا للصبح الذي لن يأتي بنور..

لم يكن دجى تلك الليلة التي أسدلت حلكتها على العالم ليلة
لتخاطب الراحلين من ملكوت البرزخ مع الأعراء..

من مشارف تلك النافذة أطلت على الكون ، وأنصتت إلى بكاء
الأحجار..

إلى نحيب الأرض..

إلى صمت موج تلك الجزيرة التي امتلأت بالمطر العفن حين
قررت البشرية أن تعزف عن طفولتها..

أن تلقي بطفولتها في الرماد..

نافذة فضية براقه عالمها باهت.. بريقها سراب لا يزف إليها
فرحة..

في تلك الليلة السروية (من زمن كرونا) والتي عهدتها (كنزة)
تصنع مواسم الفرح استسلمت لخاطرتها :

- سأصنع بُراقي لأعرج إلى ذلك الزمن الغابر الذي يصنع
فرحته..

سألاقي الدهر الذي صنع أزمنة الفرح..

سألقى الإنسانية في فطرتها الأولى طفولية نقية..

سألقي ذلك الإنسان الأولي الذي اهتدى إلى خالقه واهتدى إلى
التوحيد بفطرته..

سأعود..

سأعود.. إلى ذلك الزمن الأولي..

ومن أعلى طورٍ في تلك الأزمنة سأتممّص شرنقةً تحلّق..
سأطلّ لوهلة على عالم تلك النافذة الخادعة، لألاقي شاعري من
جديد، وأعود به معي فراشةً مكتملة مزركشةً يانعة الألوان..
إلى ذلك الزمن الأولي سنغادرُ الوجع، وزمنا أثقلته أوزاره من
الحروب والمجاعات والعنصرية والجوائح..

سنغادرُ أزمنة تلك النافذة.. أزمنة منهكة بالأوجاع..

ومن قمة أعلى طورٍ في ذلك الزمن الغابر سأحيا إلى جوار
شاعري يعلمني مرة أخرى كيف أمسك القلم..

يكتب لي أشعارا ننحُتها على أزمنة خالية من آلام تلك النافذة
اللجينية.. ويسري صدى صوتنا من هنااالك عابرا كل الأزمنة إلى
هذا الزمن المرهق صارخا:

- لن نندم عليك أيتها النافذة..

تحدّق (كَنزَةً) في الشاشة المعلّقة على جدار الصالة وتخطبها :

- كم وُصِفَتِ بالذكاء أيتها الزجاجاة الفضية!!

لست ذكية وأنت تتعين أخبار الموت والخراب في كل البيوت!!

لن نندم على فراقك أيتها الشاشة المشؤومة..

لست ذكية..

لست ذكية أبدا.. أبدا..

لست ذكية أبدا..

زمان (كورونا)- هل يعود العيد إلى العيد؟ 1

مع فجر ليلة الشكّ ، تُتْهِمُ (كَنْزَرَةُ) مَنْ جَدِيدٍ إِلَى بَيْتِهَا التَّهَامِي فِي الْقَرْيَةِ مَعَ (بُو لِحَاف) ، مَحْمَلَةً بِالْهَدَايَا مَصْرَّةً عَلَى أَنْ تَصْنَعَ فَرِحَةَ لِأَطْفَالِ الْعَائِلَةِ رَغْمَ (جَائِحَةِ كُرُونَا)..

بَعْدَ الْإِفْطَارِ فِي لَيْلَةِ الشَّكِّ هَذِهِ - كَعَادَتِهَا - تَنْتَبِذُ مَكَانًا عَلَى (قَعَادَتِهَا) فِي زَاوِيَةِ (الْبَلْكُونَةِ) الْمَطْلَةِ عَلَى مِيلِ الْوَادِي..

مِنْذُ أَمَدٍ بَعِيدٍ لَمْ تَأْتِهَا تَبَاشِيرُ الْعِيدِ مِنَ الشَّرْقِ..

الشَّرْقُ هُوَ الْوَجْهَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَتَقَنَّ التَّوْجُّهُ إِلَيْهَا..

مِنْهَا يُولَدُ شَغْفُ انْتِظَارِ الْعِيدِ، وَمِنْهَا تَنْبَلِجُ كُلُّ الْأَهْلَةِ الَّتِي تَأْتِي بِالْعِيدِ مِنَ الشَّرْقِ كَمَا كَانَتْ تَعْتَقِدُ الطِّفْلَةَ..

تَلْتَفُّ نَحْوَ الْغَرْبِ.. تَبْحَثُ فِيهِ عَنِ الشَّرْقِ..

تنتظر فيه العيد كما كانت تفعل مع أترابها في البيت الكبير، حيث يتواجد كل الجدات اللاتي يصنعن الأعياد للأحفاد..

بيت (يمًا كبيرة) و(للاً ستي) ،إلى السطح المطل من البيت (العربي) في (القصبه المحروسة) العتيقة المظلة على جزيرة النورس..

في أعالي القصبه مسجد "سيدي محمد الشريف" ، وقد اجتمع فيه (بابا سيدي) و(بابا الشيخ) مع الإمام والمؤذن وأعيان القصبه يترقبون مولد هلال العيد في الأفق الغربي، لكن (كنزة) وأترابها مصرون على أن كل أهلة الأعياد تطل من ناحية الشرق خلف جبل (الخشنه) الذي يحز أرخبيل الجزائر العاصمة..

سيطل هلال العيد من الشرق مثلما تطل شمس يوم العيد..سيأتي من الحجاز..من الكعبة المشرفة..

هكذا كانت تتشكل صورة العيد الهلامية لـ(كنزة) في عالمها الطفولي :

عيد يأتي بأريج كل الموائع العطرة التي تزف هلال العيد من أرض الحجاز..من الكعبة..عبق يغرس في كل أطفال (مزغنة) العتيقة فطرة الصوفية وكل الروحانيات التي ترسخ عقيدتهم وشوقهم إلى بيت الله الحرام..

حين كبرت كان شاقا عليها أن تترقب أهلة الأعياد من الآفاق الغربية..وأن تتجه شمالا للصلاة في بيتها الألمعي ، فاتجاه القبلة كان أول ما رحبت به (ومي فاطمة) بالبنت القادمة من مغارب

الأرض وببدها المرتعشة التسعينيّة سجّادة من سَعَفٍ وسبحة من
نوى (العثم) بعبق المسك ملفوفة بمنديلها الأصفر..

تغوص عينا (كنزة) في غسق الوادي..

لا تزال بعد الإفطار تعيش نشوة تعرج بها إلى الرّيب العذب الذي
يعيشه الصائم يوم التاسع والعشرين من رمضان عند اقتراب
الإفطار، إذ يتساءل هل هي آخر لحظات الصيام من رمضان هذا
العام؟؟ أم يرتقي هذا الريب إلى مفارقة كلها يقين في اليوم
الثلاثين حيث يكتمل الشهر؟

على مشارف الخط الذي يضجّ سكوناً في زمن حَظَرِ التّجوال
تتساءل:

- هل سيردّ زمنُ الحَجَرِ المنزليّ العيدَ إلى العيد؟ إلى البيوت؟..
- فمنذ أن أفلتت كل العجائز اللّاتي كنّ يصنعن لها عيداً في الوادي
رحل عنها العيد بعيداً.. وحين رحلت عنها (ومّي فاطمة) ووالدتها
كانت تحاول دون جدوى استحضارَ روائح العيد لتصنع لأطفال
العائلة عيداً مفتعلاً.. تحضر شيئاً من شجرة حنّاء
الحديقة.. تسحقه.. تعطره بقليل من ماء الزهر كما كانت تفعل
والدتها، وتضيف قرنفلًا كما عودتها (ومّي فاطمة).. تطلق قليلاً
من بخور (الجاوي) ومن مسك وعنبر (غرداية) تأتي به والدتها
من (وادي ميزاب) لتتمازج فيه ذكرى عيد الأعراء..
- تنادي أطفال العائلة لتخضب أيديهم بالحناء لعلها تنسج لهم شيئاً
من عيد الجدات الذي لم تعرفه طفولة أزمنة النفط..

يجاملها الأطفال.. فليس على صفحات كقوفهم سعة للحناء، إذ يسارعون إلى غسلها ليطوّقها (الأيباد والآيفون)..

هل سيعيد زمن (كرونا) العيد للجدات مع أحفادهنّ في البيت الكبير؟..

هل سيعود العيد إلى رحاب البيوت بعد أن صادرت (المولات) الزجاجية عيد الأحفاد بعيدا عنهن حين اعتقد أمهات عصر (الدّيلفري) و(الفاست فود) في زمن النعمة المزعومة، اعتقدن أن البيوت مجرد مرقد، وأن الأعياد والأفراح والحياة تُصنع في (المولات)، تلك المساحات المقيّنة التي سرقت العيد من الطفولة ومن أفنية الطبيعة..ملاه فولاذية..أحداث بصقيع الحديد توهم الطفولة بفرحة عيد مستعارة!! وأكشاك يتسلل منها دخان مذعور لزيوتٍ مستهلكة عفنة تراود شهية الأطفال كغانية مرتزقة..

هل سيعيد زمن (كرونا) وزمن الحجر وحظر التجوال الطفولة إلى العيد؟

هل سيعود العيد إلى العيد ليعيد كل الأحفاد إلى الجدات ؟ إلى رائحة السمن الذي يصنع به فطور العيد؟ إلى رائحة الحناء؟ إلى أرجوحة حديقة البيت؟ فتنصاعد أصوات الأطفال بعيدا عن (السنابات) المنجرفة من المولات إلى الجدات :

- من العائدين..

من الفايزين..

فتصغي كل الجدات إلى تهاني الأحفاد تهاني حقيقية بعيدا عن
تهاني عالم افتراضي.. ذلك العالم الذي علق فيه حبُّ الأحفاد
والجدات حبا مع إيقاف التنفيذ..

زمن (كورونا)2..

- (العيد يعود إلى العيد)..

لحظات تجلُّ في تالي السحر قبل آذان الفجر من يوم عيد الفطر
2020 تعيشها (كنزة)، وهي تستعد في بيتها التهامي..

في القرية كل البيوت لا زالت مضاعة ، إذ يحاول الكل النوم في وقت مبكر من الليل سويعات قليلة قبل الفجر.. لكن عبثا يحاولون ودون جدوى، فيعزف الكل عن ذلك ويكمل آخر استعدادات العيد..
 زمن (كورونا) والحجر وحظر التجوال الكلي.. كيف سيحل علينا العيد في هذه الجائحة؟ تخمّن (كنزة)..

أسحار هذا الفجر عروس تزينت لاستقبال عيد القرية، لكن يبدو أن الأنفاس المنبعثة من البيوت على غير العادة في مثل هذا السحر منتشية متجلية ، لأن صباح هذا العيد (الكوروني) يتراءى كأنه يعدّ القرويين بعيد لا تُعلق فيه فرحة العائلات إلى ما بعد المغرب في الاستراحات، لأن الكلّ مجتمع في البيت..

في هذه الليلة لم تتم القرية.. تتناير في الأحواش والسطوح أضرمت نيرانها بكثافة لظهي أقراص البر.. أريج (أمحصمة) ينبعث من بيت بني العمومة في أسفل (أمركيب) الملاصق للبيت تُعدّ السمن بنكهة كفّ (وَمِي فاطمة) وكل الجدات..

رائحة الحناء تتصاعد من الدور الأول حيث قد خضبت فيه (كنزة) كفوف أطفال العائلة.. شيء يلمع من السطح.. هناك شعاع يسطع في عيني (كنزة).. كأنها مركبات فضائية ترعبها.. حافظات عملاقة قد جهّزتها حماة الكبرى للـ(عصيدة) و(الثريف).. في هذه الأسحار حديقة البيت مستنفرة.. أشياء مفزعة رُصت على طاولة في الزاوية، وكُرسى بمقاس (فري سايز) وُضع بجانبها... شفرات وأمّواس ومقصات حادة وتوصيلات كهربائية..

يا إلهي!! كأنّ أحدهم ينوي التنكيل بأحد أفراد العائلة!! فالعيد
ليس بعيد الأضحى حتى يُحضّر كل هذا السلاح الأبيض تُخَمَّنُ
(كَنَزَة) ..

فجأة طابور الصغار يصطفون وسط الحديقة يتسابقون على
الكرسي.. لقد قرر الأخ الأكبر أن يحول الحديقة إلى صالون حلاقة
، ولم يفلت من هذا القصاص شاعرنا (بولحاف) الذي كان يقف
في الطابور مرتعبا من الشفرة التي كان الحلاق الهاوي يعبث بها
على رأس الصغار، لكن الصالونات الموصدة في عهد (كورونا)
وراء شاعرنا، وشفرة الأخ الحلاق المُرتجل المتعنت أمامه..

كل شيء يبدو جميلا في هذا العيد.. على جنبات الوادي عروج
السدر.. (أمبراية).. شجر الحناء.. شجر الطلح.. الكينا.. الأعشاب
البرية التي تحف المجرى.. كلها تتحول بغتة إلى حوادٍ تزف العيد
إلى عتبات البيوت.. تعيد الأحفاد إلى الجدات.. تطلق العيد على
حجراتهن التي تنزوي قصيا في البيوت المرقّهة التي تهجرها
قهقهة الأحفاد في يوم العيد حين يُشَيِّع عيد الأطفال إلى (المولات)
والملاهي يختلس فرحة عيد جدّة تشتاق إلى بسمة حفيدها.. عيد
زمن (كورونا) يُعْتَق كل جدة وحيدة عاجزة عن الحركة.. يحررها
من قبضة خادمة مرتزقة تمارس عليها واجب البرّ والحُب وقد
غادر أهل البيت كلهم إلى الاستراحة لممارسة عيد مبرمجٍ
مستعار.. الكلّ مجبر روتينيا على الحضور..

ما أجمل هذا العيد!!

الآن يدخل البيوت مجتبيا صفاءه من سجايا هؤلاء الجدات..

ما أجمله وهو يعيدُ الطفولة إلى أرجوحة الحديقة التي كانت هناك
وحيدة مهملة عند منبت السور منذ أن أخذتها (كنزة) للأطفال
البيت الذين أسرتهم الشاشات الرقمية.. عيد زمن الجائحة يخرج
الطفولة إلى أفنية المنازل.. إلى الأرجوحة.. تعرج قهقهاتهم من كل
بيت نحو الفضاء الرحب للقرية، ليصنعوا لهذا العيد عيداً..

ما أدفا هذا العيد!! أطفال العائلة يطوقون الشاعر (بو لحاف)
متلبسين بحبه.. واقع هو في ورطة حبههم.. شاعرنا الأخ الأكبر،
والعم الأكبر، والخال الأكبر، والجد.. واقع في ورطة حب كل
هؤلاء، وواقع في ورطة مؤامرة تحوكها (كنزة) مع الأطفال الذين
تتقن محاكاة طفولتهم :

- العيديّة.. يا خال. يا عم.. يا جد.. من العايدين.. من العايدين..

- طيب.. طيب.. ماشاء الله عيدكم مبارك بارك الله فيكم..

- يكرر الصغار المعايدة التي لم تتوقف..

- خلاص يا عوال عيدكم مبارك..

- وين العيدية يا خال؟ يا عم.. يا جد..

- هااااه.. ليس العيدية.. احتراز احتراز يا عوال.. الدراهم خطيرة

لا يلمسها أحد فيها (كورونا)..

يغيبون قليلاً.. وإذا بأزيز أجنحتهم كالعصافير يتسابقون إلى غرفة

(بو لحاف):

- يا خال..ياعم..ياجد..خذ رقم حساب بابا وحول لنا العيضية من
الجوال واحنا نطلب على النت وتجينا الهدايا بخدمة (توصيل) كل
شي معقم..

يقع شاعرنا في مازق الطفولة الألكترونية :

- طيب...طيب..تم..

الصغار الأكثر كبرا متآمرون مع (كنزة) وقد أخذت لهم كل لوازم
الوقاية:

- يا خال ..ياعم.. ياجد..شف معنا كمادات وقفازات
ومعقمات..أعطنا العيضية وانحم نعقم الدراهم..

- إيبيبويه.. قسم انكم جيل رقمي معولم خطير،ومعكم زعيمكم التي
تنكل بي..الله يحفظكم ويبارك فيكم..

ما أجمل هذا العيد الذي بقي معنا في البيوت في هذا الزمن
(الكوروني)!!!...وربّ ضارة نافعة.والخير في أعقاب الشر..

تخمن (كنزة).

(لَلَّأ زُهَيْرٌ) 1..

الخميس خامس أيام عيد الفطر..فُتِحَ الإغلاق الاحترازي ضد
الوباء طيلة أيام العيد..

في وهج هذه الإشراقة المبشرة من هذا اليوم ذراع (كَنْزَة) الأيمن
تقريبا شبه مكسور إثر معركة ضارية بينها وبين هرّ أسود ضخم
اقتحم البيت من باب السطح متطفلا على صغار هِرَّتِها
(قطوسة)...الكل يتساءل كيف دخل هذا الهر البيت!!

بيتها التهامي ملاصق لجبل اسْمُه "أمصمدة" ..

امصمدة" جبل منذ الأزل، هو الوسط الحيوي الأمثل لكل
الحيوانات المفترسة والبرية: "أبوظاطمة" النمر العربي..ذئاب
وكلاب وقطط برية ضالة..أفاعٍ وحنشان..حيث لا يزال الجبل
"أمصمدة" بكرا وموطنا لأنواع من الحيوانات والطيور وخاصة
القردة التي تعبت بالغسيل..

من (أمصمدة) مباشرة تفاجئها زيارات هذه المخلوقات التي يترك
لها زوجها (بُو لحاف) باب السطح مفتوحا.. هو كما هو معروف لا
تروق له الأبواب المؤصدة..لا يغلق أبواب بيته وخاصة بيته
التهامي..يعشق (تهامة) هيمن بعشقها، يؤمن بها إيمان
العجائز..حبه العذري لتهانمه رسخ فيه كل عقائد الأمن والأمان

فيها.. هو متيقن أن لا (كورونا) يأتي تهائمها، ولا لصّ ولا أذى يلحق بها أبدا...

فجر يوم الخميس حيث يستعد كل القرويين للانتشار مع فتح الإغلاق هو كغيره من المواقب عند السادسة صباحا ينطلق نحو مزرعته تاركا باب السطح مفتوحا ليحدث الهجوم المباغت للهَرّ البري الأسود الضخم الذي اقتحم الكرتون تحت سريرها، حيث تحتضن فيه (قطوسة) صغارها.. فكانت له قطوسة بالمرصاد.. وفي خضم هذه المعركة الطاحنة قامت (كَنْزَة) مفجوعة من النوم حليفةً لـ(قطوسة) في حربها ودفاعها عن صغارها.. لم يكن بجوارها سلاح، وطبعاً لا تملك مخالب قطوسة.. هبّ الهَرّ الشرس تارة يهاجمها وأخرى يهاجم قطوسة، ولم تجد سلاحاً قريباً منها سوى المسّاحة ذات العصا الطويلة التي كانت تعيد بها تشغيل المكيف الفظ الغليظ دون ريموت على يمينها والذي يفصل كلما تذبذب تيار الكهرباء..

هذه الصبيحة توددت لهذا المكيف كثيراً وتأسفت له من كثرة ما كانت تتقزز من منظره البشع وتمسّك (بو لحاف) به وبإخوانه (الأنتيكات) في كل الحجرات..

كانت المسّاحة التي توظفها كـ(ريموت) لهذا المكيف سلاحاً ضد الهَرّ.. كانت تضربه تارة وترحمه أخرى.. وتخبط بذراعها على الجدار.. أصيبت في ذراعها بخبطة قوية، وأصابته الهَرّ على رأسه فسقط على الأرض.. أنقذت (قطوسة) وصغارها حاملة كل الأوزار وهي تقلب الهَرّ

وتبكي وهو ساكن لا يتحرك.. تفتح فمه وتسقيه ماء فلا يستجيب..
تضع على رأسه قليلا من الثلج.. تقلبه..

فجأة يفتح عينه ويموء مستعطفا.. حمدت الله على سلامته وأسقته
وأعطته من أكل (قطوسة)، وشيئا فشيئا قام وغادر من حيث أتى..

حينها أستحضرتُ (كَنْزَةَ) قصة المجاهدة (لأَ زُهَيْر) مع القِرْدَة
(زُؤِينَة) في جبال (جيجل) على شاطئ (الكهوف العجيبة) في
الجزائر..

(لَا زُهَيْرَ) 2- تفاصيل الورود..

توالت الأيام بعد حادثة القط الأسود، ولا يزال ينتاب (كَنْزَةَ) ذعر ورعب؛ كيف لو قتلت ذلك القط؟!.. ذعر ساق ذاكرتها بعيدا إلى حادثة ضاربة في نسيجها الوجداني والعقلي.. حادثة راسخة في ذاكرتها وذاكرة من كانوا معها، مسرحها المخيم الكشفي في شاطئ (الكهوف العجيبة) على سواحل ولاية جيجل بالجزائر..

ذكرى شخصيات بارزة في الذاكرة الجماعية..

كانت آنذاك شبلّة في الكشافة الإسلامية برفقة والدها السيّد (عبد القادر) الذي كان يتطوع في المخيمات الكشفية حتى لا يحرمها من التدريب على أمور ضرورية في الكشافة لمدة ٣ أسابيع مثل ركوب الخيل والغطس والتشجير وأمور أخرى كثيرة..

كان يطبع أجواء هذه المخيمات أولئك السيدات المجاهدات اللواتي لُقِّن ب(خنساوات) الجزائر وبلقب (متطوعات للموت) ، ولا تخلو طفولة أي طفل من أجيال الاستقلال من بصمة نحتها تلك الشخصيات في ماهيته.. متواجداً في الساحات العامة.. في

الأسواق.. في المحطات والمطارات.. يَجُبْنَ كل المرافق العامة
مرتدياتٍ لباسَ الجهاد يعلّقن عليه كل النياشين والميداليات التي
اقتلَعْنَهَا من على أكتاف العسكر والضباط الفرنسيين عند أسرهم،
وعلى صدورهن علم الجزائر.. يجلسن دوماً في مكان محدد في
سائر أحياء الجزائر يروين ملاحم الجهاد لأطفال المدارس
والمراكز الثقافية وفي كل مكان..

(لَلْأَزْهَيْرِ) هي إحدى أولئك المجاهدات..

فدائية كان قد حكم عليها المستعمر بالإعدام وهربها المجاهدون
من سجن (بربروس) بالعاصمة إلى الجبال، حيث تحولت إلى
قنّاصة..

مجاهدة مثل كل المجاهدات اللواتي كنَّ يرافقن آنذاك المخيمات
الكشفية، ويساعدن الأطفال في تعلم لعبة حرب العصابات، ويروين
لهم سيرَ البطولات..

في تلك الأجواء الساحرة لشاطيء (جيجل) الذي تحيط به الجبال
المكسوة بسندس أخضر من غابات الأرز، الصنوبر، والسنديان
المنغمسة في البحر، في تلك الأجواء الفاتنة المحيطة بالمخيمات
كان تواجد القردة من كل الأحجام ينغص على الأطفال
متعتهم، ولكن (لَلْأَزْهَيْرِ) أنهت المشكلة وتصادقت مع قائدة القردة
وأسمتها (زوينة)، وصارت (زوينة) ترافق الأطفال في كل مكان
يتدربون فيه..

بعد أيام أنجبت (زوينة) قردةً صغيرةً أسماها (سي عبد القادر)
(ساسة) تعلقها على ظهرها وتتنطط بها معهم في كل مكان،

وحين يعودون إلى المخيم يتسابقون على ابنة الحارس الحديثة
الولادة لمداعبتها..

تنصرف (زوينة) في زاوية تتأمل في والدة الرضيعة وتقلدها
تماما في رعايتها رضيعتها وتفعل هذه الأخيرة بالمثل مع
صغيرتها (ساسة)..

في أحد الصباحات والكلّ عبر الجسر إلى الشاطئ انفلتت القرودة
الصغيرة من ظهر (زوينة) وأخذت تلاحقنا لكن الحافلة دهست
(ساسة) الصغيرة..

ماتت (ساسة) تحت الكفرات العملاقة، فحزن الكل وحملتها
(للأزهير) ودفنتها عند منبت شجرة الأرز العملاقة التي تتوسط
المخيم، و(زوينة) تصيح حزنا..

مضت الأيام على (زوينة) وعلى (كَنزَة) ورفاقها حزينة، ولم
تفارق (زوينة) بعد ذلك مهد الرضيعة بنت الحارس::

كان الكل يأمن لها ويشفق عليها..

إحدى الصباحات والكل غافل عن الرضيعة انتشلتها (زوينة) من
مهدها ، وراح الكل يصيح ويركض وراءها وهي تركض نحو
مخبئها في عمق الغابة ضامة الرضيعة إلى صدرها..

بفطرة المقاتلة القناصة استولت (للأزهير) على الرشاش من
الحارس وحملته على كتفها المعطوب في الحرب، وفي فناء
الغابة حيث المكان مستو وآمن للرضيعة، صوّبت الرشاش بيد
مرتعشة من ويلات (الباركنسون).. صوبته نحو ساق زوينة لتعجز
على الركض.. لكن القناصة البطلة هذه المرة لم تصب هدفها

وأصاب وابل الرصاص (زوينة) في ظهرها واخترق قلبها
فسقطت على ركبتيها تضم الرضیعة إلى صدرها.. ركضت إليها
(للأزهير) وضمتها إلى صدرها وهي تبكي وتردد:
- سامحني يا خبيبة.. ما كنتش نُقصد نأذك ونقتلك..

منذ تلك اللحظة التي قتلت فيها المجاهدة القناصة (للأزهير)
القردة (زوينة) بالخطأ لتتخذ الرضیعة بنت الحارس، منذ تلك
اللحظة انزوت (للأزهير) في خيمتها واعتصمت عن الأكل.. يتردد
الكلُّ عليها في خيمتها وقد انتبذت القبلة صامتةً سبابتها تشهر
بالشهادة، وقد احتبست في عينيها كل الدموع التي لم تذرفها
كبرياءً أمام الجنرال الفرنسي وهو يقطع رأس ولدها المجاهد
ويرمي به عند قدميها وهي مكبلة لتعترف بمخبا كتيبتها..

بعد بضعة أيام رحلت (للأزهير).. قلبها الصلب الذي كان ينكل
بالعسكر الفرنسي حين تأسرهم مع رفاقها.. قلبها ذاك لم يتحمل
قتل القردة (زوينة)..

ماتت (للأزهير) غبنا وحنينا وحرنا...

(للأزهير) ومثيلاتها من المجاهدات اللواتي عرفتهنَّ (كنزة)
ورودٌ يحملن كل تفاصيل الورود.. عطرهن الذي فاح أريجه في
أنحاء المعمورة بثورة المليون ونصف مليون شهيد، وتفاصيل
ورود في شوكة الذي غرزته في جسد المستعمر الفرنسي فأدمته
ونكلت به..

قلب مرهف كورق الورد لا يتحمل قتل حيوان لا حول له ولا قوة،
فيتوقف عن الحياة غبنا وحرنا وحنينا..

لن تنسى (كنزة) (للأزهير) أبدا أبدا هي وكل أشبال الكشافة
الإسلامية في مخيم شاطئ الكهوف العجيبة بساحل جيجل -
الجزائر - أواخر السبعينات...

عسير

سياحة ومواسم

صيفُ أبها..

هذا الصباح العذب من (صيف أبها) يُرفَعُ حَظْرُ التجوّلِ كَلِّياً..

ما أجمل العودة إلى الحياة ، طبعاً بحذر..

في الغالب الكل مستاء من هذه الزحمة في مصائف السروات في

عسير..

لكن هناك من هم مثل (كَنَزَة) بالتأكيد مبتهجون بهذه

الزحمة. صباحات ومساءات بهيئة متوهجة بأطياف الحياة تعيدُ

المدينة إلى المدينة : الزحمة .. " كلاكس " السيارات .. وعصيبة
العابرين إلى سحائب السروات وضخّات البرد على شماریخ جبال
الحَزِّ.

كل هذه المشاهد المهيبة من الحياة المتوقدة من قيود الحظر الذي
خرجت منه تستلُّ روح (كَنْزَة) بنت المدينة إلى حنين جارف إلى
شوارع (الأبيار) حياها العتيق بأعالي (الجزائر العاصمة) ..

هذا الحي الذي ألفت منظره بذات الزحمة طول اليوم ، وخاصة
عند ساحة (كندي) ومجمع المدارس من حولها .. شعور جميل
انتابها وهي عالقة في هذه الزحمة تحاول التسلل إلى أي منفذ
فرعي يوصلها إلى حارتها بحيّ _ شَمَّسان ..

ما أروع هذا التجلي بين الأمكنة والأزمنة!! هل هذا نابع من
ماهية بنت المدينة المعتقة بداخلها؟؟! ..

شوق وحنين إلى الشوارع والأزقة التي تنبض بالحياة
هناك .. حنين إلى حياة الأرصفة المتحركة بالباعة الجواله .. إلى
حياة الساحات العامة وسط المدينة والمقاهي المستلقية على
حواف الطريق، وذاك الأريج المنساب من مداخنها برائحة
القهوة المعطرة بماء الزهر المُقَطَّر وعبق الشاي الأخضر
المننع ... الزحمة .. الزحمة في الحزام الدائري في مدينة (إيفا)
هي الصورة الحية للحياة المطلقة .. للحياة الأقوى رغم كل شيء ..
تقتبس من ذاكرتها شيئا من أحياء مدينتها المفقودة السابحة في
أرخبيل الجزائر العاصمة ...

على متن الصفحات والسُمسرة..
(عَسْلَامَةُ بِضَيَافِ عَلَى رَبِّي)..

بات تعليق الطيران الدولي احترازا حليفا لصيف (السروات).
فالكل مقبل على صيف (السراة) وجوها الساحرمن كل أرجاء
المملكة..

كانت عمارة الزوجين - بعد الترميم - جاهزة لاستقبال موسم
حافل..لكن أمام إغراء موسم السيول والسقي راح (بُو لحاف)
يمتطي زبد السيل في مزرعته في أرض التهائم، وضرب بعرض
الحائط كل مواسم الاضطياف وأرباحها في أبها، وألقى على
عاتق(كَنْزَة) مهمة السمسرة..

زوجان بأيديهما قلم وصفحات وأشعار وحفنة من بذور البر
والذرة ، يلمان سويا بالمطر والحقول الخضراء..لكنّ معهما
أيضا شققا جاهزة للإيجار.. شقق كقدر محتوم، وقضاء يحدث
فوضى في عالمهما البعيد البعيد جدا عن معايير الدخل القومي
الخام والدخل الفردي الخام.

(بُو لحاف) لا يهमे ذلك، فهو يؤجل كل شيء ليلاقي السيل
والطمي في بطون أودية (الْمَع)..في حين أنها لا تزال تحلم بزمن
الجار السابع. قيمة نشأت عليها في الجزائر (أنبي وصّى على
سابع جار) ، لكنّ المكاتب العقارية لا تأتي لها بهذا الجار..بل
تأتي لها بزبائن لا بجيران،فْتَقَرَّرُ أن تؤجل لبعض الوقت ركوب
الصفحات على متن اللغات اللاتينية وتمتطي متون السمسرة..

تدخل على مواقع الإعلانات العقارية على (الفييس) و(جوجل)
وحراجات العقارات.. تعلن عن شققها..تتية ما بين الطلاب الذين
تشرف على أبحاثهم وبين المستأجرين والمصطافين..ترسل

لطلابها في اسبانيا ومارسيليا والجزائر صوراً لشققها وترسل
 للمستأجرين صفحات من الترجمات والنصوص..
 يصر الزوجان على الإطالة على صفحة كل شخص يستفسر عن
 شقة وكان (بُو لحاف) يخطب لابنه..
 كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للتعرف على من يكون المستأجر
 المحتمل..

جوالها يرن دون توقف.. وإشعارات (الواتس) لا تتوقف.. وهكذا
 يستمر خلط الرسائل بين طلابها والمستأجرين.. ومع كل صوت
 عبر الجوال تطل على عوالم عجيبة:

- ألو معكم شقق للإيجار الصيفي؟؟

- نعم أي خدمة؟

- نبي شقة للصيفية

- إيوه فيه كذا.. بسعر كذا..

تتحول نغمة كلام المتصل عند سماع صوتها ويتحول إلى قناص

- ايببيبيواه ما شاء الله انت مغربية؟؟

- طرَبَقْ...

تقفل الخط..

تكررت حكاية (انت مغربية).. تضحك وتخمن:

- أيه يا وُلاد آدم ، ما تدرون أن صوت من خلف الجوال لكائن
 عتيد مخضرم من القرن الماضي..

كل مقلب..

ترن... ترن.. ترن....

- السلام عليكم..

معكم شقق للإجار الصيفي؟

- نعم حدد طلبك..

- نبغى كذا.. نبغى كذا

- نعم يا أخي سأحاولك على صاحب الشقة..

صوت أنثوي صاعق يصيح من جوال المتصل :

قفّل... قفّل.. قفّل..

مغربية.. مغربية..

مغربية!!! قاعد تكلم مغربية!!!...

طربق..

تُغلق المكالمة في وجهها دون سابق إنذار..

- تضحك مع (بو لحاف).. هذا زوج لا حول له ولا قوة، عزّرتّه أم

العيال..

- الو...

أهلا أختي...

أنحم عايلة وندور شقة مفروشة شهر صيفية في حدود ألف

ومائتين هو حيكم جديد؟ هي عمارتكم جديدة؟

- ما عندنا بهذا السعر يا اختي الله يبسر لكم . دوروا تحصلون
إن شاء الله ..

أما عمارتنا فهي ليست من الأمس لكن ليست أقدم من قصر
فرساي ولا في عمر الجامع الأموي...

- ألوووووو

- نعم ..

- ألو يا قمر..معك أم شذى ، شفنا لكم إعلان عن شقق،نبي
صيفية..

- إيوه نعم عندنا كذا وكذا..

- والله يا بنت الحلال إنا نبي نصيف وما معنا فلوس إلا نهاية
شهر واحد ، واش قولك تعطينا الشقة ونحول لك بعدين؟؟؟

وهكذا توالى الطرائف ما بين العرض والطلب ، منهم من ليس
لديه إمكانية، ويرغب في الاصطياف، ومنهم من يحتال :

- نبي شقة مفروشة بالسنة..

- إيوه متوفرة بالسنة دفع ٦ شهور مقدما، أما بالشهر ففيه سعر
خاص بالموسم يا أخي..

- أها يعني ما يمكن ناخذ سنة وندفع بالشهر؟؟

وهكذا.. ولقد حذرنا الجيران من هذا النوع من الاحتيال : شهر
صيفية بسعر السنة ويتبخر بعد ذلك المستأجر في أعقاب
الأسعار..

صمدت واستمرت في تقمص شخصية السمسار وهي تتساءل هل
الصيفية ضرورة حيوية حتى يحتال الشخص كل هذا الاحتيال أو
يصطاف بالدين مع قلة ذات اليد؟!!!

- ألو. سلام عليكم

- وعليكم السلام يا أختي واشْ طلبك..

- مَيِّد شقة مفروشة في عمارة جديدة ما دخلها أحد..

- نعم يا أختي شكلك غلطانة تبغين شقة تشتريها أو إيجار

- مَيِّد إيجار ٣ أيام وبسعر لا يتعدى ١٠٠ ريال..

- والله يا أختي ما عندنا طلبك شققنا قد دخلها منذ ربع قرن حتى
العفاريت..

- ترن ترن

- ألو تكفين يا أختي عندك شقة مفروشة للإيجار ولو لليلة
واحدة؟؟؟

- إيوه يا أختي لكن نؤجر بالشهر أو بالسنة..

- تكفين تكفين.. يا أختي ما حصلنا شقة ١٤ ساعة واحنا في
الشارع، ومعنا عجوز تعبانة، ورضع، ومثنا برْد، واحنا حريم
لوحدا.. نبي نرتاح ليلة ونعود إلى ديرتنا ما حصلنا سكن..

- والله يا أختي ما نؤجر بالليلة.. لكن طالما أنتن حريم تفضلن
ضيقات عندي..

تستقبل بنت (الشيخ عبد القادر) الضيفات.. تستضيفهن في بيتها.. تحضر لهن العشاء وفطور الصباح.. يتم التعارف.. تدعوهن إلى المبيت ليلة أخرى وليلة أخرى.. يغادرن مصرات على دفع نفقات إقامتهن.

- والله ما أيجيني شي، أنتن ضيف ربّي عندي وبيتي مفتوح لكن في كل وقت..

حين يعود (بو لحاف) من تهائمهِ تروي له تحول تجارتها إلى ماهية أخرى..

- إيه يا بنت هذا هو ربح (راعية أمحّم)..

- واشن راعية أمحّم ؟

- واحدة قررت المتاجرة في الدبّا (القرع) فاشتريته بالوزن ، ثم جفّفته حتى جف وخف وزنه وباعته أيضا بالوزن..

وكان الشاعر يزامن كل هذا من غرفة عمليات في عشته بالمزرعة ، وعبثا كان يفكر في إعلان الاكتتاب بتجارة شاعرٍ وكاتبة ومترجمة خائبين في عالم الاستثمار..

استمر موسم الصيف هكذا وهي تطل على عوالم عجيبة وطريفة بمجرد سماع صوت السمسار والمغربية المزعومة، ينهال عليها وابل من القلوب والورود على (الواتس والماسينجر) لتقوم بالحظر فورا ، وبين مصطفىين مقتحمين بعوائل ضخمة دون حجز سكن.. ومصطافين من المفسدين في الأرض يخلفون دمارا شاملا في الشقق والبيئة ، ومصطافات لم يجذن مأوى لينتهي بهن الأمر في بيتها وضيافاتها..

كانت كل سلواها في كل هذه التجارة أنها تعرفت على سيدات
 طبيبات من مناطق عدة في المملكة.. وما زالت تحلم بجيران من
 زمن الجيرة الطيبة في شققها لا بمستأجرين فقط.. تحاول أن تعيد
 أزمنة الجوار الطيب، وذلك الجار الذي قال عنه النبي صلى الله
 عليه وسلم :

(ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه)..

حالية الخبز..

تستمر (كنزة) في ارتجال تمهن السمسرة ، هاجرة صفحاتها ،
لكنها سرعان ما تشعُر بالملل من تقمص السمسرة ، العالم الذي
لا يشبهها.. تجذبها (عسير) بعالمها السحري السياحي في أرض
المواسم ، فتوحد أبواب شققها المعدة للتأجير، وتُتهم نحو الحياة
إلى الداخل مع المصطافين بين السروات والتّهائم ، لتركب السيل
مع رفيق العمر (بو لحاف) باتجاه أرض التّهائم عبر جبل
(تهلل)..

تلاقي شموسا أزدية لا تعرف الأفول..

وجه مشرق بين تلك الشُّموس في سباقه حول المدار يغزل كل
ألحان التّواجد..

صبيّة أزدية تخرجت من قسم اللغات الأجنبية بتفوق..

انتظرت تعيينها مثل كل المتخرجات..

لم يأت التعيين المأمول..

انتظرت دون أمل يأسرها ولا أمان وهمية مخملية في وظيفة تحت
المكيفات وبراتب تنفقه في كماليات موزات جوالات أو (لوك)
جديد..

انتظارها لم يطل، ولم يكبلها الانتظار بأحلام الفتيات..

هي تعي أن البطالة تغزو العالم، وتعي أن أزمة اقتصادية خيِّمت على معظم الدول الغنية، وهذا حتى قبل جائحة (كورونا)..

كسرت قيود البطالة..

امتطت سديم جبل (تهلّل العظيم)، وراحت تعافر جبل (غسان) في سموخه.. فإذا اعتلت أحد مشارف عقبة (أمصماء) عرج طور (أمشرف) إليها ليقتبس من قامتها وأنفتها سجايا القمم..

قررت وقامت في أعقاب ليلة سديمية من ليالي السروات تسابق الأسحار لتوقظ الصبح..

لهيب نار التّور في حوش بيتها يخترق تماسك السديم على قرى (مصاولي - تيهان - زبنة - طب...) ، وراح أريج لهيب حطب شجر العرعر) يعطر الفجر الخجول الذي يخشى ظلال جمالها العربيّ الذي يعكسه شيء من بقايا ضياء القمر على قذح الماء الذي تُشكّل به خبز البرّ العسيريّ فيشهد نور بقايا النجوم مداعبة العجين كفيّ سيدةٍ عسيريّة أبت أن يكسرها طول انتظار الوظيفة..

سيدة عسيرية جامعيّة، تحمل شهادات عليا في اللغات الأجنبية ، تأبى أن تكون عالة على والدٍ أو أخ أو حتى زوج.. تتصدّر متكأً في قرية (الشرف) في أعالي (عقبة أمصماء) ، ترصُّ أقراص خبزها من البرّ العسيريّ والشعير الذي تجودُ به شيطانُ والدها..

ترصّه بعناية على طاولة متواضعة مع عصيدة.. عريكة... تصابع.. قهوة عربية..

طاولة متواضعة تكتنز ماهية قرى السروات..

في الزاوية الأخرى أنواع من الحلوى ذوات هويات مختلفات من الشامي والمغربي وغير ذلك ، تصنعه بيدها مع سيدات وفتيات عسيريات كسرن صمتَ زمن طفرة النفط الوهمية في أرجاء تلك القرى التي أيقظتها من سباتها، فأعادت لها فجرها وصبحها وديمومة نهارها..

تلكم هي (حالية الخبز) تصنع لكل العابرين بين السراة والتهائم من خلال سديم جبل (تهلل) في أعالي السودة إلى عمق التهائم من خلال تلك العقبة.. تصنع لهم زادا بنكهة زمن الأزدي..(حالية الخبز) السيدة العسيرية الجامعية تحمل بكفّ شهادة عليا في اللغات الأجنبية.. تحطم كل التابوهات.. تشرف على تجارتها المتواضعة.. تصر على أن تكون يدها عليا..

وهناك في الزاوية أعدت لأبنائها مدرستهم الصغيرة لتشرف على متابعتهم دروسهم على منصة الـ(أون لاين)..

بالقرب منها ومن أبنائها هرم احتبى أصالة الأرض صقرا يُشرع شيمته وغريزة الأبوة محلقا بحنانه ويقظته على أسرته الصغيرة، يشرف على كل ذلك من بعيد...

هي (حالية الخبز) ، لم تنتظر وظيفة، ولم ترهق أباهها بطلبات القوارير، ولم تنتظر أن تدعمها جهة متبرعة بالمال ، ولم تصر على أن يكون لها متجر ذو واجهة زجاجية براقّة في أحد (مولات) أبها..

كسرت التابوهات، وعادت إلى الحياة..

اخترقت قوقعة فتياتِ الطفرة، تلكم الطفرة التي صادرت طاقتهنَّ
عشريّاتٍ من زمن السبات..

عادت إلى الحياة تحت دفء الشمس، وسخاء مطر السروات
وبريق بلّورات برَد (السودة)..

عادت إلى الطبيعة..

عادت إلى سخاء النهار..

آمنت بعمقٍ بمبدأ مقدسٍ هو (اليد العليا خير من اليد السفلى)..
حالية الخبز يمامةً على قمة (تَهْلَل) تعطرُّ عبور (كَنْزَة) كلما أتهمتُ
إلى بيتها من (أبها) إلى (رجال ألمع)..

بجوار تلك الطاولة المباركة يأخذ (كنزة) عمق عيون المها التي
تتسلَّل من خلال (غطوتها) إلى ذاكرة السيِّدة الأطلسيَّة ، تَسْتَحْضِر
(كنزة) هنا مجد المرأة العربية..

تتبادل السيِّدتان أطراف الحديث في ما تقرأه من كتبٍ وترجمات
لـ(كنزة).. تتبادلان أطراف الحديث في أطباقهما الشعبية ما بين
موائد (الأمازيغ) و(سُفْر) الضيافة العربية، فتقتبس (كنزة) منها
شعلة نشاطها والحماسَ الشبابيَّ بالأمس، وتختلسُ من هيبتها
وعزمها أنفةً جدتيهما سويًّا.. وتتقمصُ السيِّدة شيئاً من إصرار
الصبيَّة العسيريَّة لتعود إلى شيء منها وإليها..

هي (حالية الخبز) التي التقَّتها (كَنْزَة) في مجلدات كتب التاريخ
الذي درسته.. عرفتُها منذ طفولتها منحوتةً على صفحاتٍ روت لها
سيرة السيدة العربية الأصيلة في جزيرة العرب..

التقّتها في (عسير) في شخص (حالية الخبز) على مشارف عقبة
 (أمصماء)، ومثلها كثيرات هنّ حالات الخبز تصدّرن أمكنة في
 كل ساحة ومعبر وسوق، ليقلن في الملا:

نحن هنا نكسر قبضة البطالة، ونكسر قبضة التابوهات..

نكسرها في كل الميادين:

الوزارات.. المستشفيات..

منابر العلم..

وبائعات للطيبات من الخبز وعبق أطباقنا الأصيلة على مشارف
 الدنيا..

نحن حالات الخبز..

نحن اليد العليا...

بين (الشانزليزية) و(القديد)...

زمن (كورونا).. أعياد (كورونا).. عيد الفطر.. عيد الأضحى..
 زمن (كورونا) يُعيد العيد إلى العيد.. يعيد العيد إلى البيوت..
 وانتهى (القديد) في مكتبة شاعرنا (بو لحاف) في ديار (المع)...
 للقديد وما يتبعه من أمور أخرى في عيد الأضحى رَوَايا ورَوَايا
 لـ(كَنْزَة) في كل مكان وكل زمان.. فقد تشبثت به حين كان يحل
 عليها عيد الأضحى وهي في باريس أو إسبانيا أو بلد من بلدان
 أوروبا بحكم عملها..
 كانت بكل صرامة لا تُفَلِّت لحظة من طقوس هذا العيد التي فُطرت
 عليها في أرض (الأمازيغ)..

تتسلل خلصة عن (بُو لحاف) حين يهيم برفقة لحافه التهامي في
دهاليز متاحف باريس وحدائق قصر فرساي..

تنزح من أحياء باريس (الهاي) إلى الأحياء التي تقطنها الجاليات
المسلمة، حيث تجد في مجازر الحلال كل ما تحتاجه لأكلات عيد
الأضحى..

حين يحل يوم النحر تُخرج مقتنياتهما من الثلجة ، وتشرع في
القدّعة، ثم تعلق القديد في الشرفة المطلة على ساحات
(الشانزليزية)..

تخفيها نوعا ما حتى لا تتهم بتلويث البيئة..

تبدأ بعد ذلك في إعداد طبق (العصبان) من الكرشة المحشية..
تضيف إليها تركيبة عجيبة من الثوم والكرابية والفلفل..

ترصّ القدور على النار..تختلط كل روائح العيد من الكرشة ولحم
(الراس) في إيّاذة عنوانها (شطيحة بوزلوف) و(بكبوكّة)
و(تشرميّة الكبدة)..

تتراقص كل هذه الروائح المستفزة الثلاثية الأبعاد في أرجاء
العمارة جاذبةً جاراتها الفرنسيات اللواتي يتزاحمن على باب
شقتها..

Oh la la c'est quoi cette bonne odeur de)
:(..plats épicés

- يا إلهي ماهذه الروائح الزكية لهذه الأطباق المبهّرة؟؟؟!!!..
تطغى روائح ونكهات أطباقها على عطورهن الفرنسية وماركاتهما
الشهيرة..

تدعوهن لتقاسم عشاء العيد معها.. يُحِبِّبَنَ ذلك.. وسرعان ما
صارت بنات (الغال) ينزلنَ معها إلى المجازر الحلال في أحياء
المسلمين ويُحضرنَ معها هذه الأطباق.. يتجَنَّدنَ في يوم
الأحد.. ينظفَنَ معها الكرشة والراس بالخل والليمون والملح،
ويقدِّدنَ القديد..

يدخل شاعرنا (بو لحاف) عليهن وهن مع زوجته في أوج
المعركة وقد تنكَّرنَ كلهن بجلابيب واسعة، وشدَّدنَ رؤوسهنَّ
بمناديل بربرية أتت بها من أرضها جعلهنَّ على مشارف
الشانزليزيه يتقمصنَ جزائريتها..

يدخل (بو لحاف) يحوصُ ويحومُ كعادته يتمتم:

- هذه (جنّية حنّية) ليست حُرمة، ويقولون إن ثقافتها فرنسية
هاهاها، وقد هجّنت بنات الغال وأبستهم وزرة جداتها ومناديلهن
البربرية وجعلتهن يعضنَ انتحارياتٍ في قدورها.. إنها أكيد لا
شعوريا ما زالت تعيش غريزة الانتقام من الاستعمار، تفرض
ثقافتها في بلاد (الغال)..

- هاهاها يا ذا المقلب يا (بو لحاف).. ويقولون ثقافتها
فرنسية...سبعة...سبعة...

في هذا العيد (الكوروني) في بيتها التهامي يوم عيد ممطر، تعلقُ
كلَّ القديد في مكتبة الشاعر(بو لحاف)..

في المطبخ أكوام من رؤوس الأضاحي وفي الصالة قد افترشت لها سفرة كبيرة.. عدد من (الكروش) في كاسات عملاقة على أرضية المطبخ في بيته الألمعي.. هو لا يستنكر كل هذا فقد اعتاد هذا المنظر في العيد منذ أن قَدِمَتْ من أرضها..

يسترسل مع المطر الذي يزيد (جبل قيس) رونقا.. جبل قيس المطل على سطح بيته.. يعود إلى أكثر من ربع قرن قد خلا حين حَلَّتْ معه بيتها الزوجي..

يتذكر منظرها المفزع أول عيد أضحي لها معه وقد حَوَّلَتْ المطبخ إلى ساحة وُعَى تُحَضَّرُ كل الأسلحة البيضاء:

سكاكين حادة.. سواطير.. مقصات على الطاولة والمجلى .. ملح خشن.. خل.. ليمون.. ثم إضرام النار في السطح.. وهي تلبس لباسا شبيها بلباس (النَّيْنِجَا)، تشد رأسها بخرقٍ عجيبه.. عدد مفزع من كروش الأضاحي والحلوق في المطبخ، ورؤوس داخل التتور تُحْرِقُ وبرها، وجلود لخرفان قد غطتها بالملح الخشن عرَّضَتْهَا لهجير التهائم على السطح لتجف..

هو يتساءل:

- عجا لقد ضحيتُ بتيس واحد فقط، فمن أين لها كل هذا؟؟؟

هل سَطَّتْ على مسلخ؟؟؟

ومع أنه قد اكتشف أنها لا تستوعب جنس الذكور في مطبخها يطل عليها مترددا:

- أنتِ مَيِّدَا عَاوِنِشْ فِي شَيْ؟

تحقق فيه بعصبيةً وببدها سكين وساطور توجهه إليه:

- نو..نو..باديتو..

ميرسيه.. non non pas du tout merci

ايكثر خيرك، روح تريخ وما ثقلقيشن..

يكاد لا يلمح شيئاً من وجهها الذي غطته كل الأشياء التي كانت تتناثر من تقطيعها للكرشة والراس.. ينسحب نحو غرفته يردد كعادته تعويذته :

- إبيبيبييه يا (بُوخليل) قَسَمِ أَنَّكَ بَلَعْتَ مَقْلَبٌ.. معقول هذي هذيك الطالبة الناعمة الهادئة التي كانت تنزوي في آخر المدرج؟ معقول هذه هي التي لفتت نظري بهدونها ورقياها في مدرج قاعة المحاضرات؟؟

يهذي كعرافٍ معربد يقول كلمات مُبْهَمَة:

- قَسَمِ أَنَّكَ يَا (أَبُو خَلِيل) أَخَذْتَ مَقْلَبٌ.. حَتَّى أَسْمَاءُ أَكْلَاتِهَا (عَصْبَان - بَكْبُوكَة - تَشْرَمِيلَه - بَرَقَ عَيْنُوه - شَطِيطَحَه

- بُو زَلُوف - مَذْلُوكَه..و...و....أَسْمَاءُ أَكْلَاتِهَا وَكَأَنَّهَا أَسْمَاءُ
لَأَسْلِحَة دَمَارٍ شَامِلٍ!!

قَسَمِ أَنَّ امْحَرَمَة مَبْدَلَة..جَنِيَة..جَنِيَة..

جَنِيَة..سَبْعَة..

كَرْشَة وَرَاسٍ وَقَدِيدٌ وَسَاطُورٌ وَسَكَكِين!!

يُفِيقُ مِنْ كُلِّ تَخْمِينَاتِهِ تَحْتَ دَوِيِّ السَّاطُورِ الَّذِي تَكْسُرُ بِهِ رُؤُوسَ
التِّيُوسِ أَمَامَهَا:

- أَنَا أَبْغَى أَفْهَمَ مِنْ فَيْنِ لَشْ كُلِّ هَذِي الرُّؤُوسِ وَالْكُرُوشِ
وَأُضْحِيْتِي وَاحِدَةً!؟

- كَالْعَادَةِ أَجْمَعُهَا مِنْ كُلِّ الْعَائِلَةِ لِأَنَّهُمْ يَرْمُوها وَيَقُولُوا مَا
يَحْبُوهَاشْ ، وَكَيْ نَطْبُخُهَا وَنَعَزْمَهُمْ يَقُولُوا لَذِيذَةٌ ، وَيَشْرُوها
بِأَعْلَى الْأَثْمَانِ مِنَ الْمَطَاعِمِ..عَجَبٌ..عَجَبٌ..

كُؤُخُ الْمُهَنْدِسِ / مُحَمَّدِ طَالِعِ
الْأَلْمَعِيِّ..

تنبؤ (كَنْزَة) مهمّة السّمسار التي أقحمها فيها (بُو لحاف) ، وتزجُّ بمفاتيح كلّ الشُّق في غياهب أدراج بيتها.. تشيّد بسحرِ الأمكنة والأطوار التي ترسمُ وجّه السرواتِ والتّهائمِ للعابرين..

ترافقُ أصدقاءها الزائرين للجنوب الزّاخرِ بالحياة إلى الداخل في زمان (جائحة كورونا)..

تُهمُّ بهم إلى الكوخ الألمعيّ..

وعند (شَطِّ امحجّار) حيثُ يتربّع (الكوخ) تعودُ (كَنْزَة) بذاكرتها إلى أكثر من ربع قرن حينَ قدّمتُ إلى بيتِ زوجها..

تتذكّرُ ملامح المهندس/ محمد طالع طفلا يمرح في القرية..

كان مثل كل الأطفال الصغار يطلّون عليها في خجل من خلف الأبواب.. يحدّقون فيها خلسة..

فكم كان صعبا عليهم أن يستوعبوا أنّ هذا الكائن ذا السحنة واللسان الغريبيّن خالة أو عمّة لهم..

لكنّ القرويين الصغار بشيمنتهم وفطرتهم وعفويّتهم مع قليل من فضولهم الطفوليّ يسلمون على يديها وهم يتبادلون ضحكاتهم ويخفون وجوههم بأيديهم الصغيرة حين تزورهم في بيوتهم أو العكس..

صار الطفل/ محمد مهندسا متميزا، وأصر على أن يعيد إلى البيت الألمعيّ ملامحه وهويته ، فراح يجمع - مع شباب القرية - كل مقومات الأرض التي تطبع بصمة هذا البيت

من جذوع الشجر ومواد أولية لينحت ذلك الصرح على أرض
أسلافه في صدر جبل قيس..في شط (أمحجار)..

أطل الكوخ الألمعي الذي استنسخه المهندس/ محمد من وحي
ذاكرة الأجداد..

موروثُ ذاكرةٍ قَبْلِيَّةٍ يردُّ لقرية (خَرَار) عنوانها وسيرة كل
العابرين من خلال النجم (سهيل أميماني) إلى أحاديث الصباح
والمساء الذي أعادَ حكاياتها إلى جنبات الوادي تحت ظلال زمن
المملكة العربية السعودية المعاصرة..

كانت مثل كل سيدات هذه القرية تقتبس من تميّز هذا الشاب فرحةً
دهرٍ من الأمومة لابنٍ لم تتجبه ، فتصرُّ على ضيوفها من
(الجزائر) أن يزوروا الكوخ الألمعي، ويكتشفوا أروع قصائد
التميز والنبوغ والإبداع للشاب محمد طالع..

- ميلادُ الشاعر..

أثناء ما كان الشاب يرحب بزائريه من رفاقها شدَّها هناك في
الزاوية عهدً من زمن ألمع ، فانزوت إليه..

ركنٌ من الكوخ يطلُّ على الشَّطَّان والوادي..استرسلت في عمق
الأرض..

دويُّ طلقٍ ناريٍّ يهزُّ كل الأشجار الأزلية التي كانت هنا ترسخُ
تقاسيمَ وادي (خرار)..

صوتٌ جهوريٌّ يتردد صداه في جبل (أمحدب) وقصبة القرية..

رائحة البارود تترنج مع ترنج طائر(امهيم) على شجر البنّ في
 ظل شط (ذنب أظل) ، ويتأرجح مع كل ذلك صوت العم (علي) من
 قمة جبل (أمرواح) يبشّر العمّ (قيس) بميلاد الشاعر (بُو
 لحاف)..

وضعت (ومّي فاطمة) مولودها..

تصاعدت أنفاس العم (قيس) مبهجة تعانق رذاذ البارود الذي
 كسا زهر شجر البن في (أمبلد)..

ولدت زوجته أخيرا..

إنها ككل الراعيات اللواتي يصنعن المعاني لشماريخ الجبال
 وأهازيج الرعاة..

- يا عمة يا عمة..

تفضلي القهوة والتمر..

تعود (كَنْزَة) قليلا إلى زمن المهندس/ محمد ، الزمن المزهر..

- طيب..طيب..

يا ابني شكرا..

تغوص من جديد إلى ما يقارب عقدين من الزمن من ميلادها
 لتحيا فرحة العم (قيس) بميلاد الصبي الذي انتظره طويلا..

تسترسل في أصوات الراعيات يبشرن أهل القرية بالمولود..

- العم (قيس) قد معوّ ولد..

العمّ جالو ولد..

- في جبل (أمّرواخ)..

يشد الأب رحاله إلى جبل (أمّرواخ) حيث (ومّي فاطمة) نفساء
عند أهلها.

من تلك الزاوية في كوخ المهندس تسير (كَنْزَة) خلف الأب التهامي
عبر شعاب وأصدار جبل قيس إلى جبل (أمّرواخ)..

تسير خلف الحمار (غَبِير) ومعها الكلب (حَجِيل) والقطة (صَيْدَة) ،
وتيسين (عقيقة الولد) في موكب العم قيس إلى بيت أرحامه..

تصل معه إلى عتبة البيت..

هناك على أسرة المدرجات الزراعية كانت الراعيات يتبادلن
التباريك بالمولود ، ويُرددن سالفةً أسطوريةً لذلك الميلاد..

- نَفْسَن بُوَهْ عند عتبة امباب وهي واقفة!!

- (وقفات مع ومّي فاطمة)

تصر (كَنْزَة) أن تبارك لـ(ومّي) فاطمة:

- الحمد لله على سلاكك ، سَمِعْتَهُمْ يَقُولُوا وَلَدْتِي واقفة..

- من انتِ يا ولدي ؟

شكلش لسنتي من ارضنا ، كَنَشْ من فوتّا..

- ايه يا (للا) أنا جيتك من علم الغيب..

أحكي لي كيفاش وَلَدْتِي واقفة ؟

- قمت بالفال وانا مَطْلُوقَةٌ ، و برَّهت لسوق (رجال) آخذ بحبِّي
وسمني وذهانتني بُنن وقشرن وشركه لحمين لنفسي..

- أولاً لا (oh la la) كيفاش ماخفتيش تولدي في السوق ؟

- لاوه ليس علي البهت لو حصنن..

الحرمة في مده إلى جاها امطلق في سوق والأ جبل نفسن ثمة..

- يوه مي نو!!! (mais non)

كيفاش تولد وسط الناس؟؟!!!

- ليس غلاها..امنسوه يخلقون حولها وامرجال يخلقون مقفين
لهم وجيههم نحو امسوق يسترون حلقة امحريم ويولدونها
امنسوه ، وتاتي ضيفتن في بيت امنايب ايلن ييدي رجلها وياتي
امولود سمي لامنايب وينحلوه بأغلي ماعدوه..

- وكيفاش يا(للا) ولذتي واقفة عند عتبة الباب ؟

- رحت من امسوق فاشتد علي امطلق فولدت وأنا قائمه..

- أوو مي سبا بوسبل(oh mais c'est pas)

(possible) هذا)

غير ممكن!!!!)

ماخفتيش ؟ وكيفاش تروحي للسوق وعندك الطلق؟؟

- يا ابرتي الحرمة منا قد ضرين تصرم وتطحن وتحلب امقراش
وهي مَطْلُوقَةٌ وتلد وهي في شغلتها في امبلد والأ امجبل وتسير
ولدها وتروح بوه بيتها..

تعودُ (كَنْزَة) التي لم تولدْ بعدُ إلى جبال (جُرْجُرة) وجبال
(الأوراس)..

تصغي إلى صدى كلمات عجانز (الأمازيغ) هناك حين يُثْنينَ على
امرأة يُقْلَنَ (وَلَدَتْهَا يَمَّاها واقفة...).

سيرة سيدات الجبل في ذلك الزمن هنا في جبال (عسير) وهناك
في أرض (الأمازيغ) تتمازجُ في حتمية قَدْرِها بين قلبٍ في
المشرق وقلبٍ في المغرب.

- الشاب محمد طالع يناديها :

- ياعمّة.. ياعمّة..

- تعالي أفرعي بيننا..

- جدال عذبٍ بين الحاجّة (زهيدة) الجزائرية الزائرة
والمهندس محمد..

تعودُ (كَنْزَة) من عصرٍ ما قبل ميلادها إلى معاصرة زمن الشاب
المبدع.. يشدها إصرارُ الحاجّة (زهيدة) وصوتها المعترض ومن
حولها المهندس محمد مع شباب من أبناء عمومته:

- آه يا وليدي هذي تاغنا..

هذا الحنبل تاغنا كيما تاغ (واد مزاب) و(غرداية)..

وهادي القربة.. وهادي المطحنة.. وهادي القلة تاغنا في الشاوية
في جبال الأوراس.. وهادي الجبّة ماشي عسيري هادي تاغ جبالنا
في بلاد قبائل,, وحتى هادي الفضة من الجزائر..

وتستمرّ في الإصرار على أن كل ما في الكوخ الألمعيّ هو من
الجزائر لشِدّة التشابه بين الموروثين الثقافيين..

- ما عليك يا والدة هذا تشابه..

هكذا يمتصّ الشابّ الخلق قوة اعتراض الحاجة (زهيدة) وهو
يقدم لها عسل (المَجْر) الأبيض من أصدار (جبل قيس) ، يقدمه
لها بكل ماهية الحبّ لأُمَّ قَدِمَتْ من (أرض الشهيد)، ولكلّ ضيوفه
معها..يقدمُ لهم عسلا (مَجْرًا) أبيضَ كِناصيتهِ البيضاء
الشفافة.. عسل ألمعيّ يرصّه على رفّ في زاويةٍ من الكوخ..
يصرّ على أن يعيدَ لوادي (خرار) أسرابَ نَحْلِهِ، ويعيدَ لعروجِ
السّدر فيه كينونتها..

- طفولةُ الشاعر..

على شطّ (أمحجار) في رحاب (الكوخ الألمعيّ) كان الزمن في
أرض (ألمع) وجيزا ، وحلم القرويين ممتدا وكبيرا..
وكانت (كَنْزَة) أكثر إصرارا على اعتقال أزمنة ألمع التي وُلِدَتْ
من جديدٍ عند وتدّ (جبل قيس)..
يعيدها الشاب المهندس/ محمد طالع إلى الطفلة الأطلسية التي
تنزوي في زاوية من الكوخ تواربُ النافذة..تطل على حياة القرية
تنساب عند منبتِ الشطّ..

من غياهب سمرمية من فسحة السماوات تأبى أن تُولّد طفلة قبل
ميلادها بما يقارب عشرين من الزمن.

تصر على أن تنتثر جدائلها من شرفة الكوخ الألمعي لتلهو مع
الغلام في بطن الوادي.. تحب مشاكسته حين ينتبذ ظلّ (أمبرايه)
التي تبارك عطاءات الغيول المناسبة من (أخج أمبراء)..
كان هو ذلك الرجل الصغير.. الطفل الكبير الذي يصر (العمّ قيس)
على أن يكون..

ينزوي إلى جذع (أمبريه)..

يواسي (ترويسته)..

يُعزي شلالا كثيفا من الشّعِرِ يكسو كتفيه..

شلالا كان الدجا ينثر عليه غسقه حين يجهم عند أسحار أرض
المع...

كان الحداد عند الطفل وقورا، وبسمته تشع حزنا حين رحلت عنه
أخته الكبيرة (حصّة)، وكان الدجا لا يكفّ نحيبه على ترويسة
(أمولد) اليتيمة والتي كانت تعني بها.. رحلت (حصّة)..
كانت خطاها نحو المنية قدسية..

كانت دموع القرويين خرساء باردة على فقد الأحبة في زمن
السّقم (المالريا)..

تركت حصّة تلك (الترويسة) إلى يتمّ تشييعه كل الأوراق التي
تجرّفها الرياح..

وعند الصباحات المنسدلة على وادي (خرار) تتخفى الطفلة
الضالة عند تموجات عذوق الذرة في الشط تواسي الغلام
الصغير..

كان هناك في (الحصن الحجري) في وطن (أمحدب) العم (قيس) يخيظ لـ (أمولد) (مخلأ) - محفظة مدرسية من القماش.. ففي الغد ينضم الراعي الصغير مع أطفال القرية ليتدرّس في مدرسة (البتيلة).. كان هو الطفل الصغير جدا من بينهم، فالجاري عند القرويين أن لا يدرّسوا أطفالهم في سنّ مبكرة للاستعانة بهم في الزراعة والرعي، لكن (العم قيس) كان يصر على تعليم الصبي الذي انتظره طويلا.. كان الغلام نحيفا تكسوه (ترويسته) التي تحميه من هجير التهائم، وكانت الممرات الترابية إلى المدرسة شاقة عبر أودية (خرار - أمخورمة - أميل - أمبتيلة) يسلكها مع رفاقه في زمن كان عيبا على الفتى لبس النعل..

كانت خطوات الصبيّة ما بين المدرسة والوادي مهيبة، وكانت كل مواسم العُبرة تستحمّ في عيون القرويين الصغار المفتوحة دون جهد ودون قفل للعلم..

وعلى حوافّ الوادي كان يتوالد ألف حلم...

كل الخطوات كانت ترحل حافيةً وتعود إلى القرية.. إلى الطيور المتشابهة عند النهار الذي لا يزال ينتظر عودة الرعاة الصغار..
يعود الغلام من المدرسة..

يعود إلى عذوق الدّرة اليانعة.. وحين يعود يلتقي بالقطيع، ويعود إلى الراعي الصغير عند صدر الجبل.. يعود إلى الملحمة الفطرية التي استُنسخ منها في هذه الأرض..

إلى الرعي والاحتطاب عند المساءات الفسيحة..

تسهر عليه (الأطلسيّة)..

تبارك خطاه من السماوات التي لم تطلقها بعد على الأرض..
ترفررف..

تحلّق مع كل الطيور التي يقاسمها الراعي الصغير قرص الدُّرة
رغيفه المتواضع...

حين يعود بالقطيع يتكى إلى (امظفِير) الذي يحدُّ (امبَلد) .. على
موعد مع الكتاب يستغرق في تأمل الغلاف..

هو كتاب (القراءة) للفصل الأول الابتدائي..

يرحل بعيدا مع تلك الصورة التي رسمت على إحدى صفحات
الكتاب..

صبيّة ترتدي زيًّا يشبه لباس جدّته ووالدته:

وزرة - عصابة - منديل أصفر.. لكنّها تحمل على كتفها بندقية..

مبهور بها..

يرسّخها في خياله..

في ذاكرته..

تسكن كل جوارحه..

صورة صبية تحمل بندقية ترافقه في مساره الابتدائي ضمن كتاب
القراءة..

هو لم يفقّها بعد.. كان يصغي في الفسحة إلى المعلمين
الفلسطينيين والشّوام بأن هذه صورة لفتاة نُهبت أرضها.. فتاة
تحمل البندقية وتقاتل في الجبال مستبديين سلبوا أرضها..

ما زال الصبيّ يخطو خطواته الأولى في المدرسة..
 أوشتك السنة الأولى الإبتدائية على النهاية، وبدأت أرض
 (التّهائم) تشتدّ قَيْظًا ، وحن الرحيل إلى (السروات)..
 إلى رغد السماء التي تسكب حباتها من البؤور المنعش الذي يحيي
 الأرض..

رسوب الشاعر..

في الكوخ الألمعي كانت تمسك بأطراف الحياة التي يصنعها
 القرويون.. لكن المهندس محمد طالع كان ملّحاً ليردّها إلى زمنه:

- ياعمة واشن رايش في هذا الركن؟

- نعم يا وليدي قصدك ركن العسل.. ماشاء الله عليك حظيت كل
 التفاصيل على كل نوع..

- ياعمة أحببت ترسيخ أن أرض ألمع هي مهد العسل...

تتدخل الحاجة زهيدة الزائرة الجزائرية للكوخ :

- ألا يا وليدي حتى أحنا فالذراير عندنا كل نوع تَع لَعسل..

عندنا أشهدة.. وَعُنْدْنَا عَسَلْ أَصْنُوْبِرْ وَعُنْدْنَا لَعَسَلْ الْمُرْ...و...و...

تنسحب العمّة من المشاكسة اللذيذة للحاجة الزائرة مع الشاب
 محمد الذي يحاول التودد لها والتلطف إليها وهي تصر أنّ كل

مقتنيات كوخه من الجزائر لمدى التشابه بين الموروثين
الثقافيين..

تعود العمّة إلى مايقارب عشرين عاما قبل ميلادها..

توارب من جديد نافذة الكوخ.. تنساب روحها.. تُلْفُ سرمدية
جسد الطفلة.. تنثر الطفلةُ جدائلها الذهبية في تموجات "امغبرة"
التي أخفت عروج السّدر في وادي (خرار)..

تتسلل خلف العمّ (قيس) والقرويين الذين أعدوا رحالهم نحو
السروات..

يعرجون إلى القمم بخطى واثقة يُحاكي وقع أقدامهم ثغاء القطيع
في تلاحم يزيد سمكا صدى جبل "امشرف".

تلهو (كنزة) مع الرجل الصغير خلف الحمار "عُبير" ..

يتبعهم الكلب "حجيل" والقطعة "صيدة" والقطيع ..

طفلة تعدها السماء بالرقىّ دوما إلى القمم..

ترتقي مع القرويين عبرَ جبال "ألمع الشّاقة" ووادي (العُوص)
الطويل نحو "امطارفة - مزارهم في السّروات" ..

ماأجمل هذه الأرض !! أرض المواسم: شتاء تِهاميّ وصيف
سروي. سخاء أرض غير متناهي الأزمنة.. أرض تصر على الكرم
المتجذر في ثرى (التّهائم والسروات).. كرم يصنع للقرويين
كينونتهم..

لن تكفّ أرض (عسير) عن الجود أبدا..

لن تكفَّ الغيمةُ الحُبلي عن كرمها..

تعاقر المواسم الخضراء على الشماريخ السَّروية والأودية
التَّهامية...

في قرية (مصاولي) يحطُّ العم قيس راحلته.. يملأ عينيه برحاب
الأفق الذي يسبح فيه السديم..

يقطف من السماء وعد المطر..

ساعد الرجل الصغير عضدً يشدُّ من عزيمة العم "قيس" الأب
الذي انتظره طويلاً..

(كنزة) تلهو مع (عيدة) والصبي المروّس..

تَلْفُهَم بالخضار قرى (زبنة - أمصاولي - شرمة - ضبوعي -
المسقوي - طبب).

جدائل الشعير والبرّ العسيري والبُسن (العدس) وفاكهة
(امفرسك وامبرشوم وامتفاح والتين)..

عطاءات "الأسرة - مدرجات الزراعة" في صيف السراة..
بسواعد قروية عازمة...

عند فوهة الحاوية السديمية التي تلف سرّ "امباطن - في بلدة
المغوث أو باحة ربيعة" تصمم الغيمة اللجينية على مباركة
كنزة..

تشدُّ صفائر الطفلة الذهبية إلى رحم السماء التي لم تطلقها بعدُ
على الأرض.. تبارك الطفلة التي تلهو مع الصبي، وتسهر عليه
بوميض ملائكيّ حين تُفلت لوهلة من رحم السماء..

الصبيُّ مع شقيقته (عِيْدَة) على حافة البئر، والغيمة تسكب دموع
مهيبة في عيني (كَنْزَة) تظهر بها حزن الصبي الذي يعبثُ السقمُ
بإخوانه..

كم هو كبير هذا الرجل في حلمه!!

كم هو صغير في حزنه!!

جرَفَ السقمُ الأختَ الكبرى "حصّة" .. "السَّقمُ - الملاريا"
الشرس.. ويلتهمُ مرةً أخرى شقيقته الرضيعة "نالة" ..

كان الأخ يداعبها ويضحكها..

قهقهاتُ ترنيمَةٍ ملاك..

تمضى "نالة" إلى هناك.. تلتحق بسرب الملائكة..

يبكي صامتا بحزن نبيلٍ يحمل وزر خاطرته الطفولية..

خاطرة تَهْذي بجوارح طفل.. بهواجسه.. تحمّله وزرَ إضحاكها
حتّى الموت وحبها حتى الموت..

يُحدّث نفسه.. يحدّق في وجهه على صفحة الماء في
بئر "امباطن" :

- ماتت (نالة).. أضحكُتها كثيرا حتى ماتت!!

قتلتها حبا.. يعزّرُ نفسه.. يصرخ في صمت مدوّ..

الغيمة الحبلي تبارك (كنزة).. تُعتّق في حبات البَرْد كل الدموع
التي لم يذرفها العم (قيس) و(وَمِي فاطمة) على فراق أبنائهم
بـ"امسَقَم (الملاريا)" ..

يعدهما بَرْدُ "جبل تهلل":

سيختصرُ وفَدَ الحُزن في قلبيهما.. سيختزلُ نسيْمُ العَصاري كلَّ
الأسى، يعبر به من خلال الزَّهرِ إلى التلاشي.. سيُطْفئه إلى الأبد ..
عند استدارة حلق البئر يسقي الصبي شقيقته (عِيْدَة)..
يواسي روحه الحزينة..

ينزل إلى غور البئر.. يملأ الماء المتلاشي من قَبَعَتِهِ..
يَسْقِيها بالقطرات الشحيحة التي يصل بها إلى حافة البئر اللزجة..
هو لا يبالي بالكائنات الصغيرة المتحركة التي كانت تطفو على
الماء المتبقي في القبعة مع القليل من الدُّهن المتبقي في شَعْرِهِ،
ف(حِصَّة) رحلت وتركت تلك (التَّرْوَيْسَة) التي كانت تنحُ الملامحَ
التهاميةً لوجه الصَّبِيِّ بعصَابَةٍ من الأطياب..

هو أيضا لا يبالي بقدميه الصغيرتين اللتين تغوصان في طَمِي قاع
البئر.. تكادُ لزوجة الطَّمِي ابتلاعه ، فلا يبالي بكل هذا ، فهو
يَسْقِي (عِيْدَة) حتَّى لا تموت.. يحبُّها.. يسقيها كي تحيا بحبِّه ، فقد
قتل حُبُّه (نالَة)..

رحلت (حِصَّة) وبقيت "امترويسة" وحيدةً تحاكي حزنا كبيرا لا
يستوعبه الصبي..

تركت (حِصَّة) "امترويسة" وعليها قليلٌ من الزيت وحشودٌ
تغزوها من الكائنات الصغيرة..

تتعاقبُ المواسم ما بين (السراة والتهايم)..تتلاشى كل الغيوم
السديمية الحُبلى..تتهمر من أصدار (جبل تَهْلَل) في (جبال الحَز)..
تتلاشى وتهوي حبا وشغفا نحو (تَهامة)..

تنهال غيمات..

حاديات تُزفّ النجم (سُهَيْل امِيمَانِي).. تُتَهَم نحو مواسم الخريف
الغضة..تزفّ "سهيل" إلى الأرض المنخفضة حين ينبلج من
الوجهة اليمانية ليصنع أفراح المرعى ووالحقول في الأرض
التهامية..يُبْعَثُ من حلم القرويين..تهيمُ الغيوم (السَّرَوِيَّة)
بـ(سُهَيْل امِيمَانِي)..يشغفها حبا..

مخاضُ الغياهِبِ الكونية يولد منه حلمُ القرويين في المطر
والحقول الخضراء...

العم قيس:

- أمقروع... أمقروع (فطور الصبح)..

يتلاشى السديم شيئا فشيئا مع تباشير الخريف في وادي
(خرار)..

يشدّ العم (قيس) جسده المفتول بلحافه نحو حرث "أمبند" ..

يلاقى أماني المطر تروي قلبه الحزين..تجرف ذكرى عواصف
(امغبرة) التي عبرت التهايم وعبرت قلبه..ستركض أمانيه للغد..
صباحات "أمولد" تولدُ كلَّ أماني الراعي الحزين مع ظلال
(سُهَيْل) وفيء الشجر وهدير السيل..

المطر المتواضع ..المطر النبيل في مواسم الخصب يسكب
تباشيره على الحصون الحجرية في قرية (خرار) ، فيمتلئ قلب
العم (قيس) بسلوى وسكينة أفسح من السموات:

- الله يَطْعَنِي عَيْنُكَ ، خذ كسرة خبز و(مِخْلَاتِكَ - حقيبة قماشية
للكتب) وَبِرَّة (امَّعْلَامَه) مع رفاقَتِكَ...

- تَمْ...تَمْ...يا بَا

وادي خرار- الخورمة - الميْل - مدرسة البتيلة

يصل الصبي (المُرَّوس) مع رفاقه

المدير على المنصة..الطابور..كلُّ رفاق "اموْلُد" ناجحون إلى
فصولهم العليا..

"اموْلُد" راسبٌ يعيدُ الفصلَ الأول..

يبكي ويحتج..

الصَّبِيّ تلميذ مجتهد نجيب متميز متفوق..راسب يعيد السنة..
يبقى في الفناء ويرفض الدخول للفصل مع تلاميذ الفصل الأول..
يبكي..

ينطلق ظهرا مع كل أطفال قريته نحو الحصن الحجري..

تستقبله (وُمِّي فاطمة) والعم (قيس)..

(وُمِّي فاطمة) :

ما بَكَ اللهُ يطعني عَيْنُكَ؟ من أَخَذَ عَلاكَ خَبْرَتِكَ؟ أقيسُ أنك
مُضْحِي؟!!

الصبي:

لا لا أنا رسبت أدان المدير لا أدخل مع زملائي للفصل الثاني.

العم حسن:

مأبو المدير وانت تعرف تقرأ وتكتب وتعرف تحسب؟؟

الصبح أبره معك..

الصبح التالي يرافق العم (قيس) ولده.. يرج فناء المدرسة

احتجاجا:

ما سبلكم تنجحون كل الأولاد وترسبون "أمولد"؟؟ وولدي يقرأ
ويكتب ويحسب!!

مدير المدرسة:

يا عم (قيس) ، ولدك ممتاز ومتفوق لكن ما اختبر..

لم يختبر الصبي ، واكتفى العم (قيس) بما تعلمه ابنه خلال السنة ،
ولم يكن يعلم أن هناك اختبارات ، وانتقل إلى "السروات البعيدة"
لموسم الصيف والرزق ومعه ابنه الذي لم يختبر..

رسب الشاعر..

رسب الشاعر..

ريال الجزائر.. (1)

دموع شفافة يسكبها الصبي على دفاتره حين رسب..

لكنه ركب كل المفارقات التي ترسم طفولة الرجال..

مضى في ركب الاجتهاد غير مبالٍ برسوبه..

راح يعاقره..

يحوله إلى براق..

يرتقي درجات التميز والتفوق..

يعلو الفارس الصغير المنبر في طابور (مدرسة البتيلة) الابتدائية ،
فإذا ألقى كلمته عرّج إليه النبوغ فبان وتجلّى..

هناك تحت (عرّج السدره) ما زالت ذات الجداول الشقراء تشاكسه
حين يستغرق في صورة الصبية التي تحمل البندقية في كتاب
القراءة..

تسكنه تلك الصورة..

تعبّر خياله..

هي ظلال يجني منها وعد اللقاء الذي لا يزال يسكن الغياهب..
كان هنا تحت (عرّج السدر) ، وكانت الطفلة إلى جواره تشاكسه ،
وكانت صورتها التي رُسمت على كتابه المدرسيّ قبل ميلادها
معهما..

هناك على ماء " امبراء " كانت (وُمّي فاطمة) تجمع التبرعات..
يصغي الصبي إلى القرويات..

وُمي فاطمة :

- يا نالة.. يا آمنة.. يا رحمة..

معنا فزعة تكفون..

- أبشري أبشري يا فاطمة..

- اجتمع أخوكم (قيس) بعد صلاة الجمعة مع (امعشيرة) ، ويقولون
لازم نفزح بما تجود بو نفوسنا لقوم مسلمين في أرض فواتن
سلب الكفار أرضهم..

يا أهل الخير تا معها شي من فضة وذهب تبرع بوه للمجاهدين
في سبيل الله..

يفزح القرويات :

- تم يا (فاطمة) أبشري :

- خذي هذا خاتم فضة من صدقي..

- وهذا "خزام" فضة من مهري..

- وهذي بناجر ذهب هدية من ولدي يوم راح من العسكريه..

- وهذا خلخال فضة مهربي بو عمش "مرعي"..

هكذا كان القرويات يفزعن ويضعن أغلى ما يملكنه في منديل
(ومي فاطمة) تبرعا وتضامنا مع قوم مسلمين انتهك الكفار
حرمات أرضهم..

يُصغي الصبي إلى والدته وإلى حديث القرويات..

تشده كلمة "الجهاد" التي كان أول عهد له بها حين عاد العم
(قيس) مع رجال القرية من معركة "امقهر" ، وكانوا يرددون
هذه الكلمة :

جهاد..

مجاهدون ، ويحتفون بالنصر..

كان أول انطباع لهذه الكلمة لديه جميلاً..

انطباع ارتبط بفرحته حين ألبسه العم (قيس) الجنبية وعلمه
أهازيج الحرب (الدّمات)..

كانت قيمة مقدسة ترسخ في ذاكرة الصبي، وها هي اليوم والدته
تردد هذه الكلمة مع القرويات، ويفزع النسوة بتبرّعاتهن بأعلى
ما يمكن لقوم مجاهدين في أرض بعيدة..

ما زالت الطفلة المتسللة من نافذة (الكوخ الألمعي) تشاكس
الصبي..

يجلس إلي جوار العم (قيس) وبني العمومة منصتا إلى حديث لا
يستوعبه عقله الطفولي، لكنه يستشعر من قسمات القرويين وهم
يروون سيرة ثلّة من شباب قبائل (رجال ألمع) تطوعوا وحلّوا
هناك إلى جوار المجاهدين في أرض شامخة جبالها..

يستشعر معاني الدفاع عن حرّمات الأرض..

العم (قيس):

- جاني خبر أنّ (علي جبلي) ومجموعة من (رفاقتوه) رحلوا
يساندون إخوانهم المجاهدين ضد الكفار هناك في أرض يقتلون
جبالها مثل جبالنا..

- يقتلون هم أول مظليين في جيشنا..

- وش المظليين؟

- عسكركم ينزلون من امطياره بسلامهم على العدو..

- الله ينصرهم وينصر المسلمين في ذاك الارض..

يصغي الصبي إلى الحديث:

مجاهدون..

جهاد..

مظليون..

لا يفهم كل هذا ، لكن كله يرتبط في

ذهنه الصغير بصورة الصبيّة التي تحمل البندقية ترافقه في كتاب

القراءة..

يسير خلف (العم قيس) عبر جبل (امصعداء) إلى حاضرتهم (قرية

رجال) البعيدة..

رحلة (العم قيس) الشاقة هذه في بداية العام الدراسي ليقترض

من تجار القرية ريالاً واحداً..

ريالاً يقضي دينه خلال سنة طويلة من الكدح في الأرض حرثاً

وزرعاً وحصاداً ، ليقايض بالذرة والحنطة التي تجود بها

(شطانة) دينه للتجار، ولا يكاد دين الريال ينقضي حتى تحل رحلة

اقتراض ريال آخر عند حلول العام الدراسي الجديد..

اشتدّ عود الصبي..

هو على وشك مغادرة الطفولة..

خَطَّ شَارِبُهُ..

مقبلاً على الحلم في الفصل السادس..

اجتاز فَجْرَهُ الدَّامِيَّ في (السَّرَاة) ، وراوَضَ شَفْرَةَ (الخَاتِنِ) ،
وهزَمَ حَدَّ تلك الشَّفْرَةَ التي تسكب دمه ، في حين كان الخَاتِنُ يمرَّر
شَفْرَتَهُ على جلده الحنْطِيِّ يَبْتُرُ بها كل ما يُعْلي الفتى ليرتقي إلى
عالم الرجولة..

كان الصبي يُخرسُ صيحاتِ الوجع وحَدَّةَ الشَّفْرَةَ التي يمررها
الخَاتِنُ على جلده..

يُخرسُ كلَّ ذلك بتناغمه مع (الهَوْد) و(القاف) المسترسلِ من
أهازيج أخواله القادمين من قمة جبل "امرّواخ" ..

لم يكن (الخِتَانُ) أولَ وُقْفَةٍ مع الرجولة يجتازها الشاب الصغير
بشجاعة ، فهو على طاولة الاختبار يجتاز آلام الحروق على
ذراعه الأيمن..

ذراعه متفحّم تتجذر به قطع جلد متعفنة من جراء انفجار (دافور
الكيروسين)..

يختبر..

لا يستطيع الكتابة..

يملي أجوبته على ابن عمه الشاب المتعلم ذي الخط الجميل(محمد
بن يحيى)..

الصبيّ اليوم شابّ يفقه كل شيء..

ينصت إلى أساتذته ليكون جرحا في (فلسطين).. جرحا ينزف في
الأرض العربية حفره "وعد بلفور" في بيت المقدس..

الأساتذة العرب من أرض (مصر) وأرض (الشام) يكون أرض
(فلسطين)..

يستبشرون بثورة تفجرت في (جبال الأوراس)..

يطل الشاب الصغير على (ثورة نوفمبر) في جبال (الأوراس)
بالجزائر ضد المحتل الفرنسي..

يُضفي معاني ثورة (الجزائر) على صورة الصبيّة المجاهدة في
كتابه..

ترافقه ثورة الجزائر في التبرّعات التي تجمعها (ومّي فاطمة) من
القرويات..

تعطّره ثورة الجزائر في سيرة المظليّ (علي جبلي) من أبناء
القبائل المجاورة الذين تطوعوا ورحلوا إلى جبال الجزائر..

إنه يحفظ اليوم شعر الشاعر / زاهر الألمعي عن ثورة الجزائر:

هتَفَ المناديّ واغتلى صرْحَ الدِّرا

فأنزاح كابوسُ الدياجيِّ وأنبرى

إنَّ (ابنَ بَلّا) قادَ أخطرَ ثورةٍ

عُرِفَتْ وخاضَ غمارَها المتأزّرا

إنه اليوم يعرف الجزائر..

إنه يتبرع لثوار الجزائر بـ(ريال الجزائر) الذي يقترضه والده من
التجار كل عام دراسي عبر رحلة شاقة في جبال رجال ألمع..
إنه يعيش تحت وقع ثورة الأحرار هناك في أرض الجزائر..
هذه السنة يحج والده والقرويون جميعا تحت بيرق يعلوه شعار:

"حج الجزائر" ..

صوتُ خشنٌ غليظٌ يرجُّ (الكوخ الألمعي):

- يا بنت يا لله ألهيئا ، باقي نسري بضيوفنا نعشيمهم في قرية
(رجال) ..

- ياعمّه ياعمّه ..

عمّي يناديك ..

هكذا يكسر الشابّ (محمد طالع) صدى صوت (بُوَاحاف) الخشن
الذي يدوي في بيت الدّرج ..

تعودُ (كنزة) من فضاءاتها السرمدية إلى زمن الشاب (محمد)
المزهر ..

تُكرم - مع (بُوَاحاف) - ضيوفهما الجزائريين ..

تعود إلى بيتها الألمعي ..

تغوص في تاريخ الوفاء مرة أخرى ..

تسترسلُ في صفحات (الألبوم) ..

في جلسة والدها المجاهد "السّي عبد القادر" وعنوانها : "حتى لا ننسى" ..جلسة الوفاء..

تقلب (الألبوم) ..

وثائق ..

قصاصات جرائد ..

شهادات تاريخية موثقة ..

صور لقادة المملكة الذين ساندوا ودعموا الثورة الجزائرية ..

كان كل ذلك هناك معلقا في مكتبة والدها ..و حين ضرب زلزال ١٩٨٠ سقطت المكتبة، ولم يسقط الوفاء من قلبها ، وحين طلعت من تحت الردم وأنقاض "فيلا سيرانو" كان أول شيء قامت به هو إنقاذ الذكرى ..

استخرجت من تحت الأنقاض ما استطاعته من تلك الوثائق ..
حفظتها في "ألبوم"، وحملتها معها ومعها وفاؤها إلى بيت زوجها في أرض المع ..

زلزال 1980 "ريال الجزائر2" ..

كانت توارب تلك النافذة عصرا..

نافذة (الكوخ الألمي) للمهندس (محمد طالع) ..

تهيم روحها..

تمتطي حقبَةً تلوَ حقبَةً من تاريخ قرية "خرار" تحت شجرة
 "أمْبْرَايَة" تارة وتارة أخرى تحلق مع طائر "أمْهِيم" إلى قمة
 جبل "أمْرُواح" لتشهد ميلاد الشاعر ، ثم تتدحرج روحها
 الطفولية إلى منبت الحصن الحجري "أمْحَدَب" لتتقاسم مع الصبيِّ
 حلم اللقاء..

ترسو على عتبات تاريخ "مِيل قَيْس"

وتاريخ قبائل "رجال ألمع" في عسير..

عبر صفحات كتاب الصبي تطل على صورة جدتها وصورتها
تحمل البندقية ثائرة تحارب الاحتلال الفرنسي..

تستقرئ سيرة القرويين في مساندة ودعم تلك الصبيّة المجاهدة
جدتها وكل أسلافها في ثورة التحرير..

تعود من معراجها.. ما زالت روحها عالقة مع كل ذلك التاريخ:

"ريال الجزائر" ..

شعار "حج الجزائر" 1957..

أسبوع التبرع للثورة الجزائرية في المملكة العربية السعودية..

تاريخ، وتاريخ دعم ومساندة..

تدخل مكتبة زوجها (بُو نَحَافَ).. تُخْرِج الألبوم الذي حفظت فيه كل
الصور والوثائق..

تعود إلى زمن الطفلة المتأرجحة بين الطفولة والصبا في مكتبة
والدها "السّي عبد القادر" ..

مضت أيام العزاء.. السّي عبد القادر في ذمة الله. توفي متأثرا
ببقايا الرصاص التي تعفنت في خاصرته ودمرت كليته من آثار
التعذيب صعقا بالكهرباء فتسمم دمه..

لم تستوعب (كنزة) بعد يُتمّها ، لكنّها تهزّمه..

مكتبة المجاهد "السّي عبد القادر" في فيلا المحتل الفرنسي
"سيرانو" تُرسّخ استقلال الجزائر بالتاريخ الذي تكتنزه.. تُسقط
كل معاني الاستبداد أنقاضا على مقتنيات الفيلا الفرنسية.. تعمل
(كنزة) بوصية والدها.. تجمع كل الوثائق والصور.. صور ووثائق

أوصاها بالتبرع بها لمتحف المجاهد.. كُتِبَ ومخطوطات تتبرع بها للمكتبة الوطنية.. ووثائق وصور تحتفظ بها تلازمها حيثما حلت..
 تُرتب كل ذلك..

ارتجاج في الجدران.. أزيز.. دويّ فأنهيارات.. إنه زلزال أكتوبر 1980.. وحدها في الفيلا.. الأهل كلهم في زيارة قبر والدها..
 تصمّم على إنقاذ ما تستطيع من المكتبة التي تنهار.. تتراشق على وجهها قطع الزجاج.. تحت الردم تحاول تحرير ساقيها المحجوز تحت الطوب.. تحاول جمع الصور والوثائق التي تساقطت من الجدران لتخرجها من بين زجاج البراويز..

هزة أخرى ، وهزة أخرى بمقياس 7 ونصف على مقياس ريشتر..

زجاج البراويز يدمي أناملها.. كفيها.. جبوس السقف والثريات تهوي عليها.. يتشقق سقف المكتبة.. تستمر في إنقاذ ذلك الموروث.. لا تبالي بالهزات الارتدادية التي تُسقط ما تبقى من المكتبة.. تتجاهل أصوات الدفاع المدني التي تصيح بالمكبر:

- هل هناك أحد بالداخل!؟

ما زالت ساقيها محجوزة بالخشبة التي تخرقها..

تزحف وتزحف..

لا تقدر على القيام.. تمد يديها لجمع كل ما كان ينهار عليها من كتب ووثائق من رفوف المكتبة.. يكاد يغمى عليها من رائحة غاز المدينة المتسرب من الشبكة العامة في كل أحياء (الجزائر العاصمة).. تحيط بها شرارات من جراء الماس الذي يحدثه تساقط

كابلات الضغط الكهربائي المرتفع وتلاطمه مع دفق المياه جراء
انفجار الشبكة إثر تشقق الخطوط والطرق... يُغمر عليها..

تستيقظ..

تحت تأثير البنج تهذي:

بابا مات..

بابا مات..

وَيْنُ تَاغُ بَابَا وَيْنُ تَاغُ بَابَا؟؟

تفتح عينها.. غرفة المستشفى.. الجراح والمرضة يقفان عند
السريـر:

- الحمد لله على السلامة.. تَمَكَّنَا من إنقاذ ساقك من البتر، كانت
تخرقه خشبة قوية.. وأخرجنا كل الزجاج العالق في يديك..

تبكي (كنزة).. تصرخ تصيح..

- وَيْنُ لُورَاقُ وَالصَّوْرُ تَعُ بَابَا؟

تتحني الممرضة عليها:

- هَاكِ يَا بِنْتِي.. كُنْتَ تَحْضِنِينَ هَذِي الْوِثَائِقُ وَالصَّوْرُ وَاحْنَا نَخْرُجُكَ
من بين الردم..

تحضن (كنزة) كل ذلك.. الحمد لله لم تَضَعِ، وتَسْأَلُ بعد ذلك عن
أهلها؟

في مكتبة الشاعر "بُو لُحَافُ" تتصفح (كنزة) الألبوم..

كل الصور والوثائق متشققة ومشروخة كساقها الذي لا يزال يحمل أثر اختراق الخشب، وكفيها اللتين ارتسمت عليهما علامات انغراز الزجاج..

تقلب الصور:

كل تاريخ دعم (المملكة السعودية) لثورة التحرير هنا..

وُصُولات لريال الجزائر، وقصاصات جرائد..

صور للملك (سعود) يحمل علم الجزائر في الأمم المتحدة يدوّل قضية الجزائر سنة 1955..

صور (حج الجزائر) 1957.

نداء أمير الرياض آنذاك الأمير/ سلمان بن عبد العزيز للتبرع للثورة الجزائرية..

صور لصندوق التبرع للجزائر، وصور المشرفين عليه السيد المجاهد/ توفيق المدني وسواه...

صور شعار المقولة الشهيرة للملك (سعود) :

"أنتم تدفعون ضريبة الدم ونحن ندفع ضريبة المال ، والله يوفقنا جميعا" ..

صور ووثائق دعم الجزائر بعد الاستقلال..

مبنى معهد (الطائف) للطلبة الجزائريين عقب الاستقلال..

صور لبعض العرب الوافدين للتعليم في الجزائر التي تحملت
نفقاتهم (المملكة العربية السعودية) والتزمت بهذا أمام الجامعة
العربية..

صور ووثائق مُصدّقة حفظها (السّي عبد القادر) في مكتبته وفاءً
وامتناناً أوردتها (كنزة) تُبلِّغ بها كل الأوفياء وكل من نسي وكل
من يتناسى...

- لا لا يا لا لللاه..

طروق (بُولحاف) تتسرب إليها..

يقف عند عتبة المكتبة:

ما زلت تقلّبين في ألبوم (السّي عبد القادر)!!؟

تُحدّق فيه مُغرورة العينين:

- سأحتفظ بك مع هذه الوثائق..

- ما بشّ يا بنت أنت خُبّتي!!؟

- أنت وثيقة حيّة على ما أكتبه..

- كيف!!؟

- أنت كنتَ موفداً للتعليم في الجزائر في إطار تضامن ودعم

المملكة العربية السعودية لها في دعم النهضة التعليمية؟

- إيوة كنتَ آخر دفعة تُوفد، لأن الجزائر في نهاية الثمانينات صار

لديها أبنائها المؤطرون ..

- اييه شطر الأستاذ وشرط الطالبة يُضيف..

تنهمر دموعها ترفع الألبوم عاليا..

-سأكتب كل هذا التاريخ..

سأقص لأطفال الجزائر روايا وشهادات العم "جَبلي" ورفاقه
وتطوعهم كمضليين في المنطقة الأولى في "وهران" سأروي لكل
أجيال الجزائر نضالهم إلى جانب المجاهدين في جبل
"الصنوبر" ..

سأروي لكل الأوفياء وغير الأوفياء مساندة سيدات تهامة
والسراة وتبرعنهم بمصاغهن لجيش جبهة

التحرير الوطني .. سأغني حكاياتهن عن الصبية "جميلة" التي
أحرق العسكر الفرنسي نهديتها بالصاعقة الكهربائية فأحرقته ..

تستحضر كنزة كل ذلك..

-تصّور إلى يومنا هذا كلهن يناديني بجميلة..

فأرد..

-ياخاله أنا إسمي "كنزة" ..

-لا والله ياولدي أنت "جميلة" وكل الجزائريات "جميلة" ..

سأخبر الكل في الجزائر بهذا الحوار..

-من فين أنت ياأختي؟؟

-أنا من الجزائر..

-الله أكبر بلد المليون والنصف المليون شهيد..

سأخبرهم عنك..

تضيف..

- ترقبُ أيّ في يوم من الأيام سأحتفظ بك داخل هذا الألبوم.. إنك شهادة ووثيقة حيّة ومصداقية لهذا التاريخ. أنت كتابة للتاريخ كما يجب أن يُكتب..

جَدَّةٌ - الْحَيَاةُ إِلَى الِدَاخِلِ..

الْ(مِنْئِيُو- كَنْزَةَ وَبُو نُحَافْ)..

حين قرر الرفيقان في زمن تعليق الطيران لفة المملكة..
كان قرارهما نابعا من قناعة، ولم يكن قرارا وليدا لمنع السفر أو
الخوف منه..

هي لفة المملكة التي تحلم بها رفيقته..

حان وقتها فراحا يرسمان مسارهما للحياة إلى الداخل..
كانت جدة أول نقطة..

جدة الساحل والبحر القريبة من بيت الله...

كعادتها حتى من قبل احترازات جائحة (كورونا) راحت تحضّر
مطبخها المتنقل الذي تأخذه معها في (الكامري).. السيارة
المسكينة التي تحملها موروثا ثقيلًا من البهارات والأواني التي
تعدّ فيها أطباقها العابرة للقفارات من المحيط إلى الخليج..

اعتاد رفيقها كل هذه الحمولة قبل كل رحلة يقف أمام الراحلة
التي ترصّها عند الباب..

- لِمَ كل هذه القرايع ؟

- آه أنا مَكَلتُ الزُّنْقَةَ ما تُوالِمِنيشْ..

- طيب.. طيب.. يكلم نفسه خشية من عصبيتها :

وكأنها تقطع البحر لأرض قفار..

هي تعمل في صمت.. تضيف إلى كوم الحمولة كيس السّميد
والشّعير والنخالة وكل البذور التي تضعها في الخبز..

في حركة دائبة يحمل كل ذلك على دفعات بين الطابق الأول
والسيارة التي تَبْرُكُ في الحوش من تلك الأثقال..

يتمتم تمتته المعتادة ويقول تعويذته :

- ياذا المقلب !! يا ذا المقلب !!

ويقولون ثقافتها فرنسية وفيه ربما من يحسدني علاها..!!

كل الأمور على مايرام وصلت كل المواعين سليمة لم تتهشم من
جراة سياقة صاحبنا الذي يخبط مسرعا على مطبات خط الجنوب
فتتأرجح كل المواعين في الشنطة تتخابط مع بعضها.. تحدث
فرقعات تنبئ الجنوبيين في (جدة) أن ابن العم وحرمة المصون
قادمان على خط الساحل..

يلازم تلك القربعة صياحها لازمة ترافق كورال المواعين:

attention (attention..attention)..بالأك..بالأك..

فُناجلي..فُناجلي تَدْفَقُ..فُناجيلها (أبو مسكة) الستة الأثرية من
الفخار عبرت بها منحى عكسيا لطريق (عقبة بن نافع) إلى شمال
إفريقيا.. فناجين (أبومسكة) تصب فيها قهوتها دفعة واحدة في
قهوة الصباح وقهوة العصاري ، تتعطفُ بواحد منها لرفيقها
وتترشف الباقي لتستكمل جرعتها اليومية من (الكافيين) فيحلو
لها المقام حيثما حلت.. في السكن كل شيء على ما يرام..تشرف
على تعقيم كل شيء..

في الفندق الشقة بعدة أثقل من عدة (Cousteau) و)

(Ushuaia) في زمنهما.. تحقّق (كنزة) في كل هذه الأشياء

المرصوفة ، وتتمنى ككل مرة من رحلاتها أن ترتقيَ إلى

مستوى من تحضر الأروبيين والأمريكان في السفر كما كانت
دوماً تلاقهم في المطارات :

شنة على الظهر وأخرى صغيرة في اليد.. لكن ما زالت مثل
البدوي بيتها على ظهرها.. بعد إرهاق الطريق قرر رفيقها أن
يخرجا لملاقات ليالي جدة والعشاء في مطعم!!

اعترضت كعادتها لأنها لا تحب الأماكن المغلقة ولا الأماكن التي
تقيدها ولا مزيج روائح الأطباق المفصلة بدفع ثلاثي من المحسنات
الغذائية والنكهات التي توحى لك بشيء من طعم الزاد

سرعان ما تتلاشى عند مقدمة لسانك فتتوهم أنه أصابك شيء
من مس (كورونا) حين تنبه عنك حاسة الذوق..

مطعم فخم (5) نجوم على الكورنيش لعلهما يستعيدان شيئاً من
زمن العافية في زمن (كورونا)..

في هذه الليلة لم تكن تلك النكهات التي تتقمص رائحة الأكل هي
ما يحول بينها وبين الأكل بما يُدسّ فيها من مكعبات كيميائية
مركزة ذات إحياءات بطعم اللحم والدجاج والسمك تتسلل إلى
الأنف دون سابق إنذار..

هذه الليلة ما يحول بينها وبين الزاد كان عصراً من الرقمنة..
فعلينا أن نطلب الزاد لها ولرفيقها من خلال العالم الافتراضي..
أُفعل (الواتس ويب)..

تدخل على تطبيقات..

تغوص داخل الرّصافات في مَتَجِراتِها الفِجوال ، تخاصم (بُو
 لُحاف) :

- أنا لا أعرف فعل كل هذا ، وقد قررت منذ أمد طويل أن أكف
 عن التعلّم، وكنت أظن أنه يكفيني مواصلة حياتي بما تعلمته خلال
 عقود من الزمن..

بجوارها كان الرفيق التهامي يفتعل التعب من شدة الإحراج، لأنه
 مثلها لا يفهم هذه الرقمنة..

أخيرا تصارحا بأميّتهما في هذا العالم الافتراضي، واستجدا
 بـ(الجارسون)، وطلبت أشياء بأسماءٍ أعجمية لا تعرفها، وحين
 حضرت كانت مجرد خضار وسمك وخبز من زاد الأرض المألوف
 ، لكنها متكرةٌ بأسماءٍ تدلّها..

كانت كل تلك الروائح في المطعم قد أنهكت شهيتها، وهوت بها..
 كعادتها أخرجت قنينةً (كولونيا) الليمون، وأغرقت بها كمّامتها
 وأخذت كل الأكل (سَفَري)، وإلى الكورنيش اتّجها لعل نسمة البحر
 واليود تسعفها بطيف من الشهية..تناولت وصاحبها بعض
 اللقيمات الباردة على الشاطيء..أحاطتهما قِطةٌ ساحلية معترّة،
 فتذكرت (هرّتها) التّهامية التي تركّتها حزينة لفراقها..

وزعت كل الزاد على قطط (الكورنيش) وعادت إلى الفندق مع
 الرفيق ليتعشّيا أرغفة من الخبز الأسمر مع اللبن...

جدة..خبزةٌ رفيقها..

في السكن بجدة تمضي الأمور على ما يرام ، لكن صباح اليوم الثاني من وصول الرفيقيين، الدخان الكثيف يتراقص في رواق الطابق..

أجراس الإنذار توقظ في هلع كل اللاجئين لدفع الساحل في السكن..

صنابير إطفاء النيران تضح رشاتها الأولى..

يسرع أمن السكن إلى الشقة..

الرفيقي (بو لحاف) مفزوع من النوم:

- مايشن؟

مايشن؟

احترقت؟

الأ..راني (نديز) في الخبز تاعي على طاجين الطين..نحرق الطاجين من عيون الكهرباء القوية ونحرق بذور الحبة والكتان والسائوج اللي في الخبز..

- هذا تحضير لقبيلة موقوتة ماهو خبزة!!

يخرج صاحبنا للأمن يطمئن الجميع..

الرفيقان التهاميان في أزمة:

من أين لهما بخبزة سَمِيدٍ أو شعير أو نُخالة طريّة في جِدة؟!
بحثهما المتعنّت عن مخبز يحضّر ذلك لم يسفر عن العثور على
خبز طريّ ، ولم تعثر هي على حالات الخبز(سيّادات من الأسر
المنتجة)..

هي لا تعرف الأماكن وعلى عاتقها إطعام رفيقها خبزة طرية،
والعيون الكهربائية لا تتحمل تركيبة خبزتها وكل النسيج الذي
يدخل في عجنتها..

نسيج تراكمي من أغوار حضارة (نوميديا) إلى حضارة القبيلة
العربية في (أرض ألمع)..

عيون كهربائية للعابرين لا تتحمل كل هذا الثقل التراكمي من
تفاعل حضارتين راسختين في إطعام بني آدم منذ فجر الإنسانية..

تمتطي مركبتها عصرا.. تهيم في الخطوط اللامتناهية لجدة..
يأمرها الـ(جي ب اس) فلا تطيعه ، فكلما قابلها جسر أسرع إليه
لعلها ترتقي قليلا نحو السماء، فمن أكثر من شهر لم تمارس
فطرتها في الصعود..

ترتقي كل الجسور لعلها تشعر أنها ارتفعت عن مستوى سطح
البحر ، ولعلها تشعر أنها تحررت قليلا من وطأة الجاذبية..

ما زالت تبحث عن خبزة طرية وجبل في الأرض المستوية..

تكاد لا تصدق أن الأرض كروية..

كانت (جدة) مرحبةً بها تريها وجهاً آخر من تنوع وجه اليابسة..

هي تعلم أن هذا التنوع للأرض من آيات الله في خلق الجمال والتنوع..

لكن رغم تلك القناعات تعصي الشيخ (ج ب آس) ، لا تبالي حين يوجهها إلى الخط المنحدر، لأن انحدار هذا الصوت المعربد وهمي..

تنزع نظارتها الشمسية..

تلبس نظارة من وهمٍ لعلها تريها سرايا يوحى لها بهيكل جبل فتصدقه..

تدخل إلى أول شارع يقابلها..

لا أحد في الشارع..

سيارات تعبر كالبروق..

لا أحد تكلمه فالكل يحدثُ الشاشات..

تتمنى أن تطل من النافذة وتسال :

- صَحَا حُويَا عَسَلَامَة وَيْنِ نُصِيْبُ مَخْبِزُ بَلْدِي؟

- يَا مَدَامِ اِطْلَعِي مِنْ هَذِي الْعَقْبَة وَخُذِي هَذَاكَ الْمُنْعَرَجِ تَقَابَلِكِ حُدُورَة تَمَّ كَائِنُ مَخْبِزُ بَلْدِي..

تدرك أنها تُهلوس..

يلوح لها من هناك مجسّم من الصفيح تلمع فيه أشعة الشمس.. تتجه نحوه:

- يَمَكُنْ فِيهِ مَخْبِزُ بَلَدِي..

تدخل (المول)..

تكاد تختنق من أسوار الزجاج حولها، وكل تلك الأضواء التي تأسر ضوء النهار..

تبحث عن مخبز لا تلقاه..

تنزوي على مقعدٍ يائسةً لم تجد خبزة طرية لرفيقها..

تجلس تتأمل الزائرين (المول)..

تتمنى أن تشعر بنفس الفرحة على وجوههم..

تختنق من كل الجدران وبريق المادة الصلبة فيه..

تكتب قصتها اليومية المعتادة..

هناك من الزاوية تتسلل إليها رائحة زكية..

تقترب إليها..

مَطْعَمٌ كُتِبَ عَلَيْهِ (مطعم حجازي يمّني).. شباب يلبسون زيّاً

تألفه، يصنعون على صاجٍ خبزا يشبه خبزها..

أخيرا وجدت ضالتها نوعا ما..

- ياؤليدي واشنوا هذا؟

- هذا لَحُوحٌ.. خبز يمّني يا خالة..

- دِيرْ لِي ثَلَاثَ أَقْرَاصٍ يَا بَنِي

- أَبْشِرِي ١٠ دَقَائِقٍ..

تَتَنَفَسُ الصَّعْدَاءُ..

أَخِيرًا تَعُودُ بِخَبْزِ طَرِيٍّ لَزُوجِهَا..

تَدْخُلُ الشُّقَّةَ.. تُحَضِّرُ لَهُ الْإِيدَامَ مَعَ اللُّحُوحِ الْيَمْنِيِّ بَعْدَ أَنْ جَابَتْ
٤٠ كِيلَا مِنْ الْخَطُوطِ الَّتِي تَبْقُرُ بَطُونَ الْخَبُوتِ فِي جَدَّةَ، وَمَعَهَا
عَشْرَاتُ الْمَخَالَفَاتِ مِنْ (سَاهِر)..

تَتَوَعَدُ رَفِيقَهَا:

- لَا عَادَ تُسَكَّنِي فِي شَوَارِعِ الْمِلْحِ وَالْبَخَارِ..

الْمَرَّةَ الْجَايَةَ مَا أَحَلَّ إِلَّا فِي جَدَّةِ الْقَدِيمَةِ، حَيْثُ أَعَادَتْ أَنْفَاسَهَا
سَيِّدَاتٌ مِنَ الْأَسْرِ الْمُنْتَجَةِ..

جدة..سِرْوَال (لَلَّا)..

استقرّ الرفيقان في (جدة) خلسةً عن القوم..لكن الجنوبيين في
 جدة لهم استشعاراتهم ، وكان الرفيقيين سكباً كل المعاني الجنوبية
 على حبات الرمال، وراحت تلك المعاني توقظهم..تتسلل إليهم من
 طيف ألوان البُردِ اليمانيّ لـ(بُو لحاف)..تسكب عطراً معتقاً بنسمة
 الشاطئ وعطر البرك والريحان الألمعيّ توحى لكل الجنوبيين في
 جدة أن ابن العمّ التّهاميّ قد وصلها..

بعد صلاة الفجر من وصول الزوجين انهال على جوائيهما وابل من
 الأيمان مثنى وثلاث ورباع:

- طلاقٍ انّ العشاء عندي الليلة..

- بالحرام أن أمعشا الليلة عندنا..

عزامة وعزامة رقمية تصل الرفيقيين لفيديوهات على نحو (هاك عقالي)..

عزائم شرسة تهاطلت عليهما من القوم الجنوبيين الكرام في جدة..

ونطقت تلك القبائل في الغربية بالقصاص والحد على الرفيقيين بأخذ واجبهما في مراسيم (المفطحات)..

صاحبنا مستعد لكل المواقف المباغثة والمفاجآت بلحافه ، يُعمّده بماء بئره في مزرعته ، لا يغسله أبدا بالصابون يخشى أن تَبْهت ألوانه..

يحضر به كل المناسبات والعزائم واللقاءات الثقافية وله في (مصنّفه) مآربٌ أخرى..

أزديته تَقْتَبِسُ من لون لحافه كل سجايا هويتها التي تَتَرَسَّخُ في تقاسيم وجهه وفي ذلك الشعاع الذي ينثر من مسامت بشرته كل ألوان الحنطة ليمنح التهانم سمارها..

بُرْدُهُ اليمانيّ يستعد به في حله وترحاله..

يحتبي به..

يقيه شرّعدوى (كورونا) العالقة على المقاعد العمومية في الأسواق والشواطئ ، فهو دائم التجنّد به، وهذا البردُ مستنفر له دائما في حالة من التأهب القصوى عند أمر صاحبنا..

لكن رفيقته لم تستعد، فهي في زمن (كورونا):

لا مخالطة.. لا تجمعات.. وعلى الرغم من ذلك راحت تجوب
"مولات" جدة لتقتني ما يسترُها في هذه المناسبات والعزائم التي
لم تستعد لها..

تستعرض كل واجهات تلك المحلات التي تحمل "الماركات"
الفرنسية والإنجليزية..

تدقُّ هنا وهناك في كل ما هو في العرض مرهقة متعبة تلبس
نظارة شمسية تحت الأنوار، منظرها عجيب غريب بنظارتها
الشمسية..

لا تبالي بنظرات الكل المستنكرة لها ، فقد أعدم جفاف (السَّروَات)
الطبقة التي تحمي عينيها ذات النسيج البحري فهي تلتزم
بنظارتها الشمسية حتى في الليل كما أوصاها الأطباء..

"ماركات وماركات" لمحلات تعرفها جيدا في أوروبا والجزائر
لكن:

- ما هذا الذي تعرضه هنا في جدة..؟

فساتين بكمٍّ واحدٍ، وفساتينُ أخرى لم يُرَكَّب لها ما يَسْتُرُ الخَصْرَ
الأيمن أو الأيسر حسب موضة التعرّي..

"تنانير" قُصَّت من دُبُر.. و"بلايز" لم يُرَكَّب لها ظهر، وتارة
اختفى جانب لها..

سراويل مُرَقَّت..

لم تجد الرفيقة في هذه المحلات لباسا يستر كامل جسدها..

منهكة تفكر في الثوب العسيريّ، لا يهتما كيف يُنظر إليها من السيدات اللواتي جعلنَ هذا الثوب الأنيق المحترم يرقد إلى الأبد في المتاحف العسيرية.. هي تؤمن بهذا الثوب، وقد نال كل الرواج حين كانت تلبسه مع صديقاتها الأوروبيات والجزائريات هناك.. وصرنَ يطالبنها به كلما سافرت لهنّ، وصار يُلبسُ في أوروبا والجزائر...

آمنتُ أن الثوبَ العسيريّ وحده الجديرُ بسُتر كامل جسدها ، لكنّ : هذه (المولات) زجاجٌ واجهاتها هَشَّةٌ لا تحتمل كل الأزدية التي يكنزها الثوب العسيريّ..

لم تجده في هذه المحلات المتتكرة بأسماء الإفرنجة، فراحت تكلم صديقاتها في جدة:

- وِينْ سوق الثلاثاء تاغكم في جدة؟

- لا وجود لسوق الثلاثاء في جدة ولا أمل في ثوب عسيريّ...

هنااالك بعد إرهاق وكلل وممل، كان شيء يلوح لها من بعيد كأنها تألفه..

تتقدم بخطوات مثقلة يائسة..

تقترب وتقترب نحو الواجهة..

أشياء معروضة توظف فيها كل أحاسيس الألفة الضاربة في الزمن..

تقرأ اسم المحل.. اسماً أيضاً فرنسيًا.. تتقدم..

تدخل المحل..

تبتهج..

تنتشي لكل ما هو معروض فيه..

أخيرا : محلّ من سلسلة المحلات المغاربية التي نجدها في الجزائر وتونس والمغرب ومدن جنوب أوروبا:

لباس مغاربي: فُفْطَانُ.. كَمِيْزُورَة.. قَنْدُورَة.. بَدِيعِيَّة.. سِرْوَال
لَلَّا... سِرْوَال الزَّنْقَة.. سِرْوَال الشَّلْقَة.. قُوَيْطُ.. قَشَابِيَّة...

تسأل البائعة:

- غلاش تبيعو لبس مغاربي واسم محلكم فرنسي؟؟؟

ترد البائعة:

- في (المولات) لو أسمينا المحل باسم لماركة غير فرنسية أو أوروبية لا أحد يشتري منا..

- لا تعليق.. لا تعليق..

هذه كانت رحلة (كَنْزَة) حتى تجد ما يليق بضوابط اللباس الذي يليق بحواء:

ما لا يصف ولا يشف..

لم تجد الثوب العسيري في هذه (المولات).. ثوب (وَمِي فاطمة)..

لكن أخيرا وجدت لبس (يَمَّا كُبِيرَة) (جَدَّة جَدَّتْهَا): (كَمِيْزُورَة
وسروال لَلَّا)، وما بين الثوب العسيري وسروال (لَلَّا والكَمِيْزُورَة)
تلبس لباسا يشبهها وتشبهه.. يألفها في أرض الأزد وتألفه..
معتق في أرض (بني مزغنة) و(ولاد بني زيري) على ضفاف

إِكُوْزِيَوْمَ (جَزِيْرَةُ النُّورِ) ، وَلَا تَهْمُهَا كُلُّ الْمَوْضَاةِ الْوَاقِدَةِ الَّتِي
تَسْتَبِيحُ حَرَمَاتِ جَسَدِ حَوَاءٍ...

جِدَّةٌ.. (كَنْزَةٌ) تَبْحَثُ عَنْ إِطْلَالَةٍ..

فِي جِدَّةِ رَاةٍ (بُوْ لُحَاةٍ) يَتَحَوَّرُ إِلَى مَاهِيَةِ صَاةِبَتِهِ..
يَمُرُّ بِكُلِّ أَطْوَارِ التَّحَوُّرِ مِنْ كَائِنِ جَبَلِيٍّ إِلَى كَائِنِ بَحْرِيٍّ مِثْلَهَا
لِيَرْسُوَا سُوِيَا عَلَى شَوَاطِئِ جِدَّةٍ..

في هذه الرحلة قررت أن تتعرف على جدة ، فلن تكون هذه
المدينة مجرد نقطة عبور إلى مكة كالعادة..

في نواميسها :

الأماكن لها نبض كالbشر تتعرف عليها كتعرفها على الأصدقاء..

تتطلق من الفندق..

تجوب شوارع جدة..

تبهر بمظاهر النهضة والتنمية..

تدرك أن هناك رجالا يعمرن الأرض..

يحيلون الخُبوت إلى مدائنَ تدورُ فيها عجلات الرزق..

كل هذا كانت تشهده في المدينة الممتدة الأطراف التي تسير- في
مكابرة - الساحل العنيد الذي لا يكف عن الاتساع شمالا وجنوبا..

مدينة تسير حوافها مع الساحل..

تعاقر الشاطيء الذي يأبى عن التوقف عند الضفة..

كانت تذهل بكل هذا النماء..

كانت بنت الجبل والبحر تشعر بحبسةٍ عجيبة وسط هذا الاتساع
المستوي ، يتقمصها شئ من "جَمَل امَّصارة" في أرض "بارق
والمجاردة وجازان" ..

تسير من خلال الطرق المستوية المتوازية تارة والمتقاطعة
بدرجة ٩٠ تارة أخرى..

تبحث عن منحدرات..

تبحث عن ربوة..

عن هضبة..

عن جبل صغير يشبع شغفها لترى الشاطئء إلى البعيد يغتسل في
عينها كما كان يفعل وهي طفلة تطل عليه من الجبل على خليج
"مزعنة" فيداعبها ويحيط بها..

هي تدرك أن الجبل والبحر سويا يسكناتها، وهذا حكم البيئة
(أنثروبولوجيا)..

تسير وتسير وتسير في الأرض المستوية في جدة على اتساعها..
تشعر أنها تلف حول ذات المحور، فتضيق بها الأرض الفسيحة
الأفقية في أفنية جدة و"مولاتها" وكأنّ اتجاهها إلى الأمام يعود
بها إلى الخلف..

الأرض مستوية ولا تستطيع أن تسكب كل المدينة والشاطئء في
عينها..

هي تدرك أن المدن تختلف كالنساء.. وكذلك البحار.. فالبحر هنا
سيد مختلف له مظهر آخر يختلف عن شاطئها هناك..

هنا البحر يعاند المدينة المستنفرة الأطراف..

يطول فتطول معه.. لكنها لا شعوريا تبحث عن ذلك الشاطئ في
عُرف الطفلة التي ما زالت تبحث عن ضفة تستعرض زيد المدّ
والجزر عند منبت الجبل.. ضفة تنتظر مع الغابة هذه (البُنُوتة)
التي تطل عليها من مشارف الطّور فترى المدينة تلتف حول

وتده، وتمضي مع ظل أشجار الصنوبر نحو الخلجان الصغيرة
التي تتخلل الأزقة والأحياء..

جِدَّة.. من يعرف رفيع؟!!

تعود (كَنْزَة) من الشّوارع المستوية في المدينة الأفقية إلى الفندق
لتلقّى حلم الرفيق بالجبل والوادي..
يَعِدّها بأخذها إلى أقرب شاطئ..

يخرجان بعد منتصف الليل في المدينة التي لا تنام..
كعادته السائق العاق لا يمتثل إلى تعليمات الشيخ (جي بي أس)..
يسلك طرقاً على عكس تعليمات (قوغل)..

يسلك دروبا كان يعرفها من ٤٠ سنة لا توصل الطفلة إلى
الشاطئء أبداً أبداً..

بعد منتصف الليل يجوب القرويّ الخطوط المتوازية المزدحمة في
المدينة ليصل برفيقتة إلى أقرب شاطئ قلّقا يلتفت يمينا وشمالا..
لا يستطيع أن يتوقف كما يشاء في وسط الخط كما يفعل في
طرقات أرض "المع"..

تظهرُ عليه علامات الارتياح القريب كلما رأى ظلّ شجرة ، وإذا
اقترب منها يزيد قلقه وحرجه ، وتزيد علامات التألم بروزا على
قسماته، فالأنوار تفضح ما حول الشجرة التي وُضعت لتزيّن
حواف الخط ، فهي شجرة مفتعلة ليست كأشجار واديه..

بصوت مرتفع يصرخ: "الله يسقيش يا بلاد امرباخ" .. تسأله:

- واشن بيك؟ واشن بيك؟ .. رالك عيان؟ ..

- لاوّه... لاوّه..

يواصل تمتمات لاهوتية مبهما تفقه منها كلمات بسيطة:

- الله يسقيك يا عرعر (تَهْلَلْ).. الله يسقيك يا سدر تهامة وبرايها
كم سترت العرب!!!..

ما زال الرفيق القروي يئن ، وجهه مكتظ بشيء من الضيق..
يمقت كل أشجار المدينة على حواف الأرصفة والخطوط السيارة
التي تحيط بها أسلاك حول جذوعها..
أضواء تجذب النظر..

يمضي.. يوجه "الديريكسيون" في كل المسارات دون تحديد
وجهة..

أخيرا يدرك دوارا فيه مجسمات يتخللها شيء من الظلام.. يفرط
في السرعة متجاهلا "ساهر"..
يصل إلى الدوار..

يهدئ السرعة ليتوقف وينزل متسللا داخل المجسمات.. لكن يأمره
الشيخ "جي بي أس" بالخروج عند الطريق المنحدر يمينا
فتضيع كل آماله في الفرع..

يوشك على الصراخ من الضيق الذي يفضح ملامحه بوجه
متجهم..

أخيرا يتسلل عكس الاتجاه في شارع مظلم عبر قصور مظلمة
مهجورة..

يلاحقه وابل من "طرطرقه" كاميرات "ساهر" لا يبالي بها..
ينزل ثائرا من السيارة.. تصيح (كثرة) :

- وِين رايح؟..وِين رايح؟؟!! نُجِي معاك..

- لا. لا.. اقعدِي مكانش..

يغيب لحظاتٍ بين أسوار قصرين فخمين مظلّمين ، ثم يخرج
مرتاحا مبتسما يتنفس الصعداء يتمتم كل الأدعية المألوفة عند
انتهاء مواقف الضيق.. يلتفت إليها ويردد :

(مَنْ يَعْرِفُ رَفِيعٌ؟..مَنْ يَعْرِفُ رَفِيعٌ؟

تضحك..

تضحك..

تضحك..

ينطلق بالسيارة نحو الفندق وقد غلب على الرفيقين النعاس..
يخلدان إلى النوم وتخيب كل آمالها في لقاء البحر..

جدة- (كَنْزَةٌ) وَجَارُهَا الْجَدَّائِيُّ..

لَقِيْتَهُمَا مَعَاذَاتِ صَبَاحٍ صَامِتٍ فِي جَدَّةٍ بِالْحَيِّ الَّذِي حَلَّتْ فِيهِ مَع
(بُو لِحَافٍ)..

كَانَتْ هِيَ مِنْهَكَةَ بَاهِتَةٍ، وَكَانَ هُوَ بِجَوَارِهَا يَمَارِسُ كُلَّ الْحَدِيثِ
الَّذِي يَجِيْشُ بِهِ لِسَانَهُ الْأَبْكَمِ..

تَعَهَّدَتْ لَهَا (كَنْزَةٌ) :

سَأَهْتُمُ بِكَ يَوْمِيَا.. أَعْلَمُ أَنَّ صَاحِبَكَ أَهْمَكَ وَزَجَّ بِكَ فِي مَصِيرِ
مَأْسُوِيٍّ مَقِيْتٍ لَتَلِكِ الْبَالُوْعَةِ الَّتِي تَقَابِلُكَ.. تَرَجُّمُكَ بَرَشٌّ مِنْ مَاءِ
قَدْرٍ تَعَبْتُ بِهِ كَفْرَاتِ الْمَرْكَبَاتِ الْخُرْسَاءِ الْعَرَجَاءِ فِي الْأَزْقَةِ لَا
مِبَالِيَةَ بِمِيَاهِ بِهَذِهِ الْبِرْكَةِ الْعَفْنَةِ..

فِي الْحَيِّ الْمَوْحِشِ الَّذِي أَطْفَنَتْ فِيهَا كُلُّ أَنْوَارِ الْبِنَايَاتِ جِرَاءِ أَرْمَةِ
رَكُودِ الْعَقَارِ.. تَطْلُقُ تَلِكِ الْكَفْرَاتِ عَلَيْكَ يَا صَدِيقَتِي الْجَدَّائِيَّةِ كُلِّ
الْأَوْزَارِ الْمُتَجْمَعَةِ عِنْدَ مَسْرَحِ التَّلُوثِ حَوْلِ الْبَالُوْعَةِ..

التَّقْتُ (كَنْزَةٌ) بِتَلِكِ الرِّيْحَانَةِ فِي حَوْضِ عَلَى بَوَابَةِ السِّكَنِ صَدْفَةً
وَكَانَ هُوَ إِلَى جَوَارِهَا..

كَانَتْ الرِّيْحَانَةُ تَسْتَرْجِعُ هَلَامِيَّتَهَا حِينَ تَعْبُرُ حَيَاتَهَا دُونَ مَوْعِدِ
مَسْبِقٍ..

سيدة مثل (كنزة) تؤمن بعطرها..

تقطف غصنا غضا..

تضعه داخل الكمامة لتَهزَمَ كل معطيات فايروس (كورونا) التي
تُسقط معاني المنية على الشفاه..

ريحانة لقيتها صدفة عند بوابة الفندق تتمسك بهلاميتها
التهامية..

توشوشها.. أنا الريحانة ، وهذه أرضي ومنبتي ، (جدة مدينتي)
لم تنسلخ من أريجها التهامي في هذا الإقليم الفسيح الذي يمتد
من مكة إلى سواحل عدن على ضفاف البحر الأحمر..

تخبرها صديقتها الريحانة أن ذاك النبي الذي فطرت على أبدية
الصلاة والسلام عليه "تهامي" ..

تخبرها عن رفيقها الصغير الذي كان سمياً له.. ابن الجيران الذي
لعبت معه هناك في مدينتها عند الضفة التي تلتقي بأحدار الجبل
في (جزيرة النورس)..

الرفيق الصغير (تهامي).. هكذا كان اسمه، وكانت تتأديه دون أن
تَعْلَمَ أن قدرها سيردّها إلى تجذر ذلك الاسم التهامي في أرض
البيت المعمور..

تخبرها كل ذلك ريحانة ، وتتحل جارها السمي بأرضها وبنبي
أنجبه ثرى التهام..

تتحلّه نخله بشيمة العرب هي كل ذلك العلم الذي تزفه إلى (كنزة)
، وكل تلك الأخبار عن أرضها التهامية.. صادفتها في (جدة) عند

بوابة الفندق، وهو إلى جوارها يمارسان معا عشق التهائم في
عطر ريحانة..

كان هنا يختلسُ السمع إلى بوح جارتة الرِّيحانة مُعْتَرًا لُوحًا
حولها وحول (كنزة) يمارس كل التَّمَقِّ بصوته الغليظ، وجسمه
الأغظ، وأذنيه المتطفلتين لسماع وشوشتهما..

يحاول لُوحًا لَفَتَ نظرَ كَنَزَةٍ.. يتودّد لها..

كان هنا وكانت هنا.. تقابلا عند رذاذ عبق الريحانة التهامية..

كان قدرا رتّبته الصدفة..

أحبّته وأحبّها.. عاهدته أنّها لن تتخلّى عنه قبل رحيلها ، فأمن بها
تقاسمه الزاد كل يوم.. تقول له أعذب الحديث..

ينتظرها كل وقت دون كلالٍ أو ملال ، وعند الموعد حين تسقي
كل فجر صديقتها الريحانة ينتشي للحياة التي تبعثها في الحيّ
الموحش الذي لن يأتيه أحد..

يحدق فيها..

صار يعشقها..

يتبعها إلى أول النهج حيث تركب (التاكسي)..

ينتظرها حين تعود.. هو مثلها لا يستعمل المصعد..

يتبعها إلى الطابق الأول.. إلى باب الشقة رقم (٧)..

يتودّد لها لعلّها تدعوه للدخول.. تعطيه ما تجود به المقاضي التي
اقتنتها من زاد يناسبه..

شَجَنٌ وقد ملاءه الشوق والحنين للقائهما فجرا قبل الشروق
 الجدَّاويُّ في مكان موعدهما حين تنزل لسقي الريحانة.. وهي
 توجَّه (الكارت المغناطيسي) لفتح الباب يطأطئ رأسه..
 يقبع قليلا عند الدواسة..

يحدِّقُ فيها..

يقول في صمت:

دعيني أدخل معك إلى الدفء..

أنقذيني من وطأة كل الصمت الذي يملأ الشوارع الخرسانية ،
 فشوارع (جدة) صامته عجماء.. لكنَّ استعطافه لها كان دون
 جدوى..

إنه يعلم أن نظام الفنادق والمراكز السكنية تمنع دخول
 الحيوانات..

"بَثَابَتْ" .. هكذا أسمته.. جارها الهَرَّ الكبير الأرقط الذي ألفتُه
 وألفها..

تفكَّرُ في أخذه معها حين تعود إلى الجبل ، لكن :

هل سيتخلَّى (بَثَابَتْ) عن أنيسته (ريحانة) في الشارع الأخرس..؟

جدة.. هو وقطرة المطر..

أطل من نافذة الفندق يترقب غيمة حُبلى استبشر بها منذ الصباح..

يترقبها دون كلل وهي تسبح في السماء عابثة بآماله في الاستمطار وتتخفى من حين لآخر خلف ناطحة السحاب..

أنهكه الانتظار، فراح يخلد إلى قيلولة أهل المدينة وقت الغروب..

ما بين غفوة ويقظة يصغي إلى الغيمة المستعصية تصب مخاضها على صفيح صندوق المكيف الصدىء. يهجره أريج المطر الذي ألفه منذ الأزل في مزرعته وواديه ، لكنّ روحه تتناثر على حافة الرصيف تسابق جسده المأسور بين الجدران الزجاجية للفندق..

يلتحق جسده بروحه..

عيناه القرويتان الثاقبتان تلاحق قطرة المطر وقد احتبس في جفني الفلاح التهامي دمغ كلّ الأنبياء لتبكي قطرة المطر..

إنه لا يستطيع لها شيئاً!!

ستهوي إلى البالوعة في آخر الشارع..

ستفقد مهابتها وطهرها وشفافيتها وتختلط بكل الموائع العفنة في
البالوعة..

على حافة الرصيف تسلب المدينة حلم الراعي..

لن يداعب قطرة المطر..

لن يركض خلفها كعادته في مجرى الوادي وهي تمتطي زبد
السيل..

كان يواسيها حين تخشى أن تختفي إلى الأبد حين يصبها التيار
في مزرعته فتنثني بالحياة جدائل الذرة والحنطة في مسرح
مهيب لعرس البيدر..

لن يواسي الراعي على حافة الرصيف في الشارع المغمور
بالمطر القدر حبة المطر وهي تمضي لقدرها في مصب البالوعة..

لن يواسيها كأختها التي تخشى تلاشيها حين تركب السيل..

كان يقول لها شِعْرا وكل أهازيج الرعاة..

يَعدّها أنّها حين تختفي في زيد السيل الذي يصبها في النهر الذي
يرنحها ، كان يعدّها أنّها سترسو على الموج اللازورديّ للبحر
يهددها لتعرج إلى أعالي البحار في المحيط الفسيح لتتمازج مع
كل القطرات التي تولد من بخار الماء العطر فيصنَعن رائحة
الأرض الطيبة ، ويرسمن بالخضار وجه اليابسة..

ستتحول مع كل حبات المطر إلى بحار.. إلى محيطات..

يقف ويقف القروي على حافة الرصيف في المدينة يودع المسار
الأخير لقطرة المطر..

لن يستطيع أن يفعل لها شيئاً ، ولن تستطيع أن تستشف ظهرا
ونقاء من دمع كل الأنبياء الذي احتبس في جفنيه لتصنع ماهيتها
العذبة ، لأنها ستتبدد وتتبدد وتختلط بصمغ الأسفلت اللزج عن
فوهة البالوعة..

لن تلتحق أبدا بأخواتها لتمتطي السيل والظمي..

تتية إلى الأبد في أغوار البالوعة..

يعود الراعي إلى غرفته الزجاجية.. يواسي روحه.. يحتفظ بذكرى
المطر المهبب في مزرعته..

يكنز كل دمع الأنبياء في عينيه ليُعْتَقَه..

شيء من نظرية (داروين)!!

تتية وتتيه في المساحات الشاسعة لامتداد المدينة المتمردة شرقا
وغربا..

تشعر أنها تنغمر في باطن الأرض..

تخنقها كل المجسمات الزجاجية التي تحجب عنها الأفق..

يصرخُ بداخلها الجبلُ المُطلُّ على الضفة.. يستعطفها أن تعرجَ إلى
أعلاه ، لتطلَّ على المدينة تغزلُ في سياقها حياة كلِّ المارة
والعابرين من الخبوت إلى الضفاف..

لا ذنبَ للمدينة فهذا وجهها المبتسم ، لكنها تحمل وزرَ بنتِ أعالي
الجبال..

بدأت (كَنْزَة) تشك من غريزتها في حب التسلق أن الشيخ (داروين) فعلا "جاب أصحیح" حين نسبها إلى تلك المخلوقات التي تحب التسلق..

نظريته في التطور تخيفها حين يغمرها شغف التسلق.. تبحثُ بإصرار عن حَبِيلٍ في شوارع جدة حتى تسكب أبعاد المدينة وامتداد الساحل في جفنيها كما كانت تفعل دوما على قمة جبل (أزغارة)، وتختصر كل تفاصيل الأمكنة محتبية على القمم كما تستدعيها فطرتها الجبلية والبحرية على حدٍّ سواء..

صاحبها لم يقصر.. يمتطي الزوجان الجبلان (كنزة - بُو لحاف) أعقاب الليالي وقت السحر تحت مباركات العراف (ج بي أس) ينير دربهما..

لم يفلح أبدا هذا العراب الرقمي في إسعادها.. تلتفت إلى رفيقها في خيبة متناهية تهاجمه:

- واشْ بِيْكَ تُدَوِّرُ بِيَّا بَرِّكَ فَالْحَوْمَة تَاعِ الفندُق؟؟؟

- كيف أنتِ جهلتي؟ قد عبرت بشن ٣٠ ك إلى شمال جدة!!

- لا أنتِ قاعد تدور في نفس الشوارع ما حسيت أننا نتحرك..

وهكذا حتى يؤذن الفجر ولا تلاقي ضالتها ، وتتمنى أن تتغير مصطلحات الـ(ج بي أس) ويأمر رفيقها :

- عند اليمين لفّ عند المنعرجات واصعد العقبة إلى قمة الجبل وتصل إلى وجهتك..

أخيرا صار رفيقها (بُوْ لُحاف) يتجه بها قليلا بمنحى شرقيّ باتجاه مكة لتلمح طيف الجبال تلوح لها من بعيد..

جدة.. (ياهي شَنْطَةُ أَمْذَهَبْ؟)

أين "شَنْطَةُ" الذهب؟!..

- سيدة قادمة من الجنوب..

ترحال ووجهة من الغرب إلى الشرق ومن الشرق الذي يصبح غربا إلى الجنوب ومن جنوبي غرب إلى شمال غربيّ..

هكذا كانت خطواتها تنهل منحاهها في مسار يعاكس نواميس الهجرات البشرية من الشرق إلى الغرب ومن الجنوب إلى الشمال..

الجزائر العاصمة.. جدة.. أبها ..

رجال ألمع..من

أرض (التهائم) صارت تنطلق كل وجهاتها مع زوجها فهي
السيدة القادمة من الجنوب...

عقدة الجنوب!!

كم يمقت البشر هذه الوجهة ، لكنها لا تهتم لذلك لأن الجنوب في
موطنها الجديد يهديها جبلا تستقطبها كل الإطلالات فيه..
الصدر..الربوة.. السهل..الانحدار السَّمح..الوادي
الطوى...والضفة البعيدة.

الضفة هناك في الأقصى هي لا تبالي بذلك فقد صدقت الإخوان
الصغار حين أوهموها أن (أبها) كانت في سالف الزمان بحرا ،
وما جبل ذرة (الجبل الأخضر) إلا سفينة تجذرت مع وتده حين
تجمد البحر من غزارة البرد الذي لم ينصهر..

هكذا كان الإخوان الصغار يتآمرون مع الأخ الكبير..

يؤاسونها حين تشتاق لفيء مرفأ وضفة.. بدورها تتظاهر أنها
صدقت أسطورتهم العذبة...

سيدة قادمة من الجنوب تتيه في الخبوت المستوية في جدة.

هي على طول الخطوط الخرسانية متنافرة مع المدينة.. تشعر أن
استواء الأرض يبتلعها.. يُنْقِصُ من قامتها..

تحيط بها المدينة التي لا تستشعر مَدَنِيَّتَهَا..

تبحث عن المدينة لعلها تلقاها لِتُخْبِرَهَا بأحاديث الصباح والمساء
في الحارة والزقاق وعتبات الدكاكين..

- جدة التاريخية..

هناك عند المرفأ المتمرد في أحقاب الدهر ، من (ميناء جدة الإسلامي) لاح لها طيف الرواشين.. هنا تتربع مدينة جدة تدعوها لتخبرها بكل شيء..

جدة التاريخية

تخبرها في بوح الرواشين..

يُوشوشها روشن (بيت نصيف) عبر نغمات وإيقاعات حجازية..
يخبرها كل شيء عن السيدة العتيدة..

توشوشها ظلال شجرتة إيادة صانع التوحيد توحيد أرض المملكة حين حلّ في أرجاء بيت نصيف.. تُفضي لها الشجرة المعمرة ببركات مياه الوضوء..

بكل التاريخ الذي صنع أرض المملكة العربية السعودية..

زَقت لها كل الرواشين تباشير انبلاج وجهها المستنير في الغد القريب..

وجوه حية..

أخبرتها عن ذلك الفارس الذي قَدِمَ من الزمن المزهر باسطا لها يمينه ليعيد إليها ماهيتها ويبعث فيها رونقها من جديد..

تصالحت السيدة القادمة من الجنوب مع (جدة)، ووعدت المدينة التاريخية أن تحلّ فيها دوما حين تعود مرة أخرى من الجنوب..

- الطريق إلى مكة..

أوشكت رحلة (بُوْأحاف) وزوجته على النهاية..

كعادتها آخر مطاف كل رحلة إلى جدة : عُمره أو صلاة فرض في الحرم المكي..

تمتطي (الكامري ٢٠٠٧) شرقاً نحو (مكة)..

تتية في الخطوط الصماء - كعادتها - : وابل من الفلاشات الضوئية تنهمر عليها..

- إيه ماقصرَ معي الجداويون يوثقون عبوري من مدينتهم..

تتكاثف إشعاعات الأضواء الخاطفة على الكامري المُعْتَقَة..

- إيه رُبّما كائنات فضائية تحتمي بي في جدة وتخلد عبوري منها..

جوالها يرنّ تحت المقعدة حيث لقيَ حَتْفَه جِراء فرملاتها المفاجئة عند مطبات الأحياء الخلفية الخاوية التي تتسلل إليها عاكسة الاتجاه.. لا تكاد تشعر بساقها الأيسر وذراعها الأيمن.. اللذان يكادان ينشلان..

فهي الوحيدة في جدة التي تمتطي مركبة (بُوْأحاف) اليدوية..

تعزف أصوات رهيبة حين يصيح محركها في الخط السريع من تباطئها في تمرير السرعة ، فلا يستجيب لها (القيِر ولَكْلاشْ) محدثةً ربكات في مرور جدة.. تُتَوَّجُ كل

تلك الربكات (فلاشات) أضواءً في عزّ النهار احتفاءً بالسيدة الجنوبية..

نعمة (بُو لحاف) التهامية تصر على وناسة كل المنتظرين في
الخط السريع..

خلف (الكامري) ينتظرون السيدة تنطلق من جديد..

تُونِسُهُم نعمة (بُو لحاف): (طرق الجمال)..

ترجّ طريق الحرمين نحو مكة.. -oh la la أو لا لا

فَأَقِ بِي كِخْدَتِ الطُومُوبِيلِ..

- ألو.. ألو.. أنتِ أَخَذْتِ السَّيَّارَةَ..؟

- إيه راني رايحة لُمَكة

- لكن اتفقنا تروحين في (الباص).. والله قد عرفت أنك عَطَّلتِ كل

الخطوط السَّيَّارَةَ نحو مكة جاتني صاعقة من (رسايل) ساهر من
مخالفاتك..

- c'est bon..c'est bon..

طيب..طيب..دوك نُوقَفَها ونُروُحُ لِمَحَطَّةِ النُّقْلِ الجَماعِي..

أدركت السَّيِّدة الجنوبية أن تلك الأضواء لم تكن اقتناصا للحظة
عبورها من جدة من قبل الجَدَّاويين، ولم تكن بيد كائنات فضائية
ترصد تاريخ عبورها المدينة..

كان (ساهر..ساهر)..

رحلة العمرة هذه ستكلف (بُو لحاف) نفقات تفوق نفقات حج
جدها شيخ القبيلة (مُوخ الشَّيخ) وعشيرته من أرض (الأمازيغ)
حين حج من ١٥٠ سنة عابرا الصحاري بقافلته...

- نحو مكة..

تركن السيارة عند مواقف النقل الجماعي..

تركب (الباص)..

تتطلق نحو مكة.. تطل عليها..

الساعة تتقمص نافذة الباص..

(بلكونة) غرفتها في الأبيار حياها ومسقط رأسها أعالي العاصمة

تتمرد الطفلة الصغيرة من خلف كل احترازاات (كورونا) التي كانت
تَلْفُ السيدة..

يتملكها شعور الطفلة التي تطل من (البلكونة) على خليج
(مِرْعَنَة) على الزاوية هناك عند جبال (الْحَسْنَة) التي تحز الخليج
والتي تحول بينها وبين رؤية بيت الله..

بيت الله كان دائما خلف بياض الثلوج على الطور الذي ينغمس
في (أرخبيل الجزائر العاصمة) شرقا..

هي في (الباص) تتشبث بالنافذة التي تَتَحَوَّرُ إلى شرفة
غرفتها.. تترقب منها طلوع الشمس من الوجهة الشرقية معطرة
أشعتها بنسائم المسك والعنبر الذي ينغمر فيهما رداء الكعبة..
يصل الباص..

ساقاها جناحان يقتبسان مدارات تحليق حمام الحرم في الساحة..
تكاد تلمح الكعبة خلف المآذن..

تُشهر تطبيق (اعمارنا) في وجه الكل..

ما أروع جوالها الذكي!!

كانت تنبذه قبل اليوم ولا تشغله إلا للعمل، اليوم تقدسه لأنه
بشرها بالعمرة..

تتحدّر في معراج نحو المطاف..

جوارحها متصلبة كأول مرة تعانق عيناها الكعبة..

روحها ما زالت تهاب الجلال..

الجلال الذي تهابه الروح هيبة بيت الله.. تتصلب جوارحها ثم
تنساب في سياقها إلى النقيض..

تبكي دموعا فياضة في مدّ وجزر ودفق عند تعامد الكعبة والبيت
المعمور..

تؤدي عمرتها..

تصلي..

هي شفاقة.. بيضاء تعود إلى هلاميّتها.. تركب الباص..

ينساب بروحها مغزليا بين انحدار وصعود في شوارع مكة.. تطلّ
على مقبرة الحجاج..

تتذكر وصيتها المألوفة بعد كل عمرة تُكلم (بو لحاف) :

- ألو.. راني اغتمرت الحمد لله وُجاية فألباص..

- زين قَدْ العفش جاهز أقابلك في المحطة وناخذ السيارة من
المواقف وعفشنا من السكن وننطلق على طريق الساحل..

- إن شاء الله..بَصَّحَ اسْتَنَى شَوِيَّهَ اللهُ يَعْلمُ نَوْصَلَ مَنْ مَكَّةَ وَلَا لَا؟؟؟
- ايوه تَمَّ هِيَ رَجَعَتْ لِمَوَالِهَا خَلْفَ كُلِّ عَمْرَةٍ..يُخْمَنُ "بولحاف"
- بُجَاهَ رَبِّي.. لَوْ خُذَا رَبِّي أَمَانَتَهُ تَدْفِنِي فِي مَكَّةَ مَعَ الْحُجَّاجِ حَتَّى لَوْ كَانَ نَمُوتُ فَالْجَزَائِرُ تُجَبِّنِي هُنَا..
- تَمَّ..تَمَّ..أَبْشِرِي مُوتِي وَيَهْنَأُنْ مَوْتُنْ وَلَا يَهْمُكَ..
- لَيْسَ مَعَشِ الْقَبْرِ إِلَّا فِي (أَمْصَدَه) خَلْفَ بَيْتِنِ فِي تَهَامَةَ.. يُخْمَنُ.

يتذكر (بُولْحَاف).. سؤاله المعهود بعد كل وصية توصيه بها بعد كل عمرة عبر ما يقارب ٣ عقود من الزمن :

- أَلُو يَا بِنْتُ يَا أَهْبَتِي مَطْبَقِيَّةُ
- ذَهَبَشْ؟؟ (أَيْنَ وَضَعْتَ شَنْطَةَ ذَهَبِكَ) قَبْلَ مَا نَسَافِرُ؟
- فِي الْمَكَانِ الْمَعْتَادِ
- طَمَّنْتِنِي..الْمَهْمُ مَا غَيَّرَتْ مَكَانَهَا..
- غَلَّاشْ تَدَوَّرْ عَلَى الذَّهَبِ وَاشْ فِي رَاسِكَ بَعْدَ وَفَاتِي؟
- طَيْبِ طَيْبِ يَا اللهُ عَلَى "أَمْجَبِل".. عَلَى بِلَادِ "التَّهَائِمِ" عَلَى الْجَنُوبِ...

يُشْغَلُ "الْيُوتِيُوبِ" عَلَى "خَوَّلْتِ بَارِقُ جَنُوبِي

يَا اللهُ بِنَاشِي مَعِينَهُ" وَيَبْقَى سؤَالَهَا عَالِقًا كَالْعَادَةِ..!

هل اُخْتَرِبْتُ (كَنْزَةً) ؟؟

هل اُخْتَرِبْتُ (كَنْزَةً) ؟؟

(الطفلة زريعة كل بلاد)..

(هو سيدها..مولاها)..

(هو ساسها علاها)..

(بنتي يا مفتاح البيت بوها في راس الزقاق وعمامتو عاليًا)..

أمثلة شعبية عريقة.. قاعدة وقانون تنشأ عليهما البنت
الجزائرية..

قيّم وأعراف تُرسخ لدى الطفلة الصغيرة ، تُهيأ بها عروسا
مُسيّرة للانتقال مع زوجها في حله وترحاله حيثما شاء ، وحيثما
شاءت الأقدار..

أيام تختزل دهرًا.. وشهور تختصرُ أزمناً.. لحظات بعمر أوتاد
الجبال في (رجال ألمع) ، تصوغ ربع قرن من عمر (كنزة) في
موطنها الجديد.. تلتبسُ لديها الأزمنة والأمكنة ما بين وطن هو
مسقط رأسها ونشأتها ، وموطن تجذرت فيه قبليًا فأنصهرت فيه
، لتتسع لها الأوطان : وطن في المشرق ووطن في المغرب..

ربع قرن بعمر دهر، هو عمر ذلك السؤال الذي يُثقل كاهلها ،
وترسمه مرآتها في سياق ملامحها التي تعكس تمازج تربة
(أرض الشهيد) و(أرض الحرمين)..

سؤال يصب عليها وابلا من الاستنكار والاستغراب والتعجب:

كيف تكيفت مع أهل زوجك وحياتك في السعودية ببلاد (ألمع)
وأنت جزائرية بنت المدرسة الفرنسية؟؟

تصمتُ..تكتنرُ جوابَ هذا السؤالِ.. تجعلُ منه تراكما..يعنِّقه ربع قرنٍ من حياتها على هذه الأرض ، لتسألَ (كَنْزَةَ) بدورها وتكتب وتنتثر جوابها في كلماتٍ..في صرخاتٍ..في احتجاجٍ أمام الملائِ هنا وهناك :

هل أنا مغتربة !!؟؟

أيتها الإيحاءات المستفزة عن وضع المرأة هنا ، تنتظرين مني نقدا واستياءً..أيتها الأسئلة المحمَّلة بالوعدِ والوعدِ المُبَيِّتِ بأحقادٍ ضدَّ هذه الأرض كلها تنتظر نقدا واستياء ووعودا ووعيدا مبيِّتا بأحقادٍ ضد السعودية ، تغذيها الادعاءات والصورة المعتمة التي تصنعها هالتكم الإعلامية المغرضة وصحافتكم الصفراء ، عن وضع المرأة هنا :

كيف تكيفتِ في السعودية وأنت من الجزائر ؟

اليومَ تجيبُ كلَّ مَنْ سألها من صحفيٍّ يرغب في لقاء ، أو مذيِّع تليفزيوني يرغب في توثيق تجربة اغتراب مزعومة ، أو سائل بسيط دفعه فضول بريء :

أنا (كَنْزَةَ) بنتُ المُجاهد (السِّي عبد القادر)..

لست مغتربة في السعودية..لم أنتقل من بلدي في تمثيل دبلوماسي ولا في عمل ولا طالبة للجوء..

قدمت إلى هذه الأرض الطيبة زوجةً صاهرتُ فيها أهلا..

بنيتُ صلة رحم..

انصهرتُ في عائلة شاركتني وشاركتها أحزانا وأفراحا..

عِشْرَةَ عَمْرَهَا الْيَوْمَ أَكْثَرَ مِنْ رِبْعِ قَرْنٍ ، اتَّسَعَتْ فِيهِ لَدَيَّ مَسَاحَةُ
 الْحُبِّ..حُبِّ أَبِي وَأُمِّ عَشْتُ مَعَهُمَا هُنَا عَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمَنِ وَبَكَيْتِ
 رَحِيلَهُمَا كَثِيرًا كَثِيرًا ، وَأَرْهَقْتِي الْحُزْنَ وَالْحَدَادَ عَلَيْهِمَا بِذَاتِ
 الْحُزَنِ وَالْدمُوعِ وَالرِّثَاءِ الَّذِي بَكَيْتُ بِهِ وَالذِّي فِي الْجَزَائِرِ..
 عَاشَتْ جِيلًا بَعْدَ جِيلٍ مِنَ الْأَبْنَاءِ ، رَأَيْتَهُمْ يُولَدُونَ وَيَبْلُغُونَ أَشَدَّهُمْ
 بَيْنَ أَحْضَانِي..صَرَّتْ جَدَّةٌ وَخَالَةٌ وَعَمَةٌ..

أَنَا (كَنْزَةُ) أَنْادِي هُنَا مِنْ أَهْلِي بِلِقَبِّ:

يَا وَالِدَةَ..يَا أُمَّ.. يَا خَالَةً..يَا عَمَةً..يَا جَدَّةً..إِلْخ..

لَسْتُ مَغْتَرِبَةً فِي بَيْتِي مَعَ زَوْجِي وَأَهْلِي هُنَا..أَنَا مَوْاطِنَةٌ..
 مَوْاطِنَةٌ فِي السُّعُودِيَّةِ..

لَمْ أَجِدْ مَا يَرِغْمَنِي عَلَى التَّجَرُّدِ مِنَ جَزَائِرِيَّتِي ، لِأَنَّي بِكُلِّ بَسَاطَةٍ
 لَمْ أَجِدْ هُنَا مَا يَجِبُ أَنْ أَبْذُلَ لَهُ جَهْدًا حَتَّى أَفْهَمَهُ وَأَتَغَيَّرَ مَعَ
 الزَّمَنِ..

بِكُلِّ بَسَاطَةٍ لَمْ أَجِدْ اخْتِلَافًا يَذْكَرُ لَا فِي عَادَاتٍ وَلَا تَقَالِيدٍ وَلَا
 مَعَامَلَاتٍ مِمَّا يَسْتَدْعِي أَنْ أَتَأَقْلَمَ مَعَهُ بِبِذْلِ جَهْدٍ سِوَى اخْتِلَافِ
 بَسِيطٍ كَثِيرًا مَا نَلَاقِيهِ بَيْنَ الْمُنْطَقَةِ وَالْمُنْطَقَةِ فِي مَسْقِطِ رَأْسِي .

تَوَاصَلْتُ (كَنْزَةُ) مَسْتَعْرِبَةً هَذَا السُّؤَالِ الْعَجِيبِ الْمَسْتَفْزِ:

(كَيْفَ تَكَيْفَتِ كَامْرَاةٌ فِي السُّعُودِيَّةِ وَأَنْتِ جَزَائِرِيَّةٌ بِنْتُ الْمَدْرَسَةِ
 وَالثَّقَافَةُ الْفَرَنْسِيَّةُ؟) ، وَتَرَدُّ :

سُؤَالِكُمْ هَذَا لَا مَحَلَّ لَهُ فِي عَقْلِي..

تكيفت، بل انصهرت ، لأنني بالذات جزائرية ، ولأنني لست بنت
 المدرسة الفرنسية ولا ذات الثقافة الفرنسية.. أنا بنت المدرسة
 الجزائرية المستقلة.. المدرسة (البومدينية) ..مدرسة الراحل
 الرئيس (هواري بومدين) ذات الثقافة الوطنية..
 سيدة هنا أثريت آدميتي سيدة حرة..

أعيش هنا السيدة المكرمة التي نص عليها الإسلام..
 بالثقافة الجزائرية اندمجت في السعودية دون جهد وداع للتغير..
 ألفت واندمجت لهذا..

بقصة الألفة مع أرض الحرمين. الأرض التي نعيشها مسبقا..
 نعرفها قبليا ، كغيري من أبناء بلدي، نقرأ أرض الحرمين حيننا
 وشوقا هي ذلك الشروق..

إطلالة الشمس خلف (خليج الجزائر) العاصمة..

إطلالة هلال رمضان وهلال الأعياد..

ذلك النور الذي يأتي من الشرق خلف (جبال الأطلس) المنغمسة
 في شواطئ (مزغنة) هي إطلالة كل هذا الفرح ، تحلّ مع فرحة
 لباس العيد وعطر الحناء الدّين يأتي بهما الحجاج..

كلها..كلها تطل علينا من هناك..

الشرق المبارك حيث نجد الكعبة..

نجد القبلة بيت الله..الروضة الشريفة..كلها هناك في أرض
الحرمين في الشرق خلف (جبال الخشنة) التي تحزُّ خليج الجزائر
العاصمة..

أرض الحرمين ..السعودية هناك خلف التل..حيث تطل الشمس كل
صبح على شرفة غرفتي..

كيف وكيف وكيف وأنت جزائرية!؟

ولأني كذلك بالذات ، وككل أترابي عشت هذه الأرض الطيبة في
لعبة طفل هدية (السّي الحاج) الثمينة : لعبة تلفزيون نرى من
خلالها كل المشاعر المقدسة ، فنعيش خشوع الحاج ..الحنين إلى
التلبية والإحرام..سُبحة خشبية من هناك برائحة المسك
والعنبر..رائحة الكعبة والروضة الشريفة..هدية ذلك المجسم
لهما ، والذي لا نحفظه إلا في مكان ظاهر ، ولا نلمسه إلا بعد
الوضوء..حنين وشوق..

الألفة في حُجيرات يأتي بها الحاج من مزدلفة ، وحجرالوضوء
من ثرى عرفات...و...و..وآمال تأخذنا إليها روايا الحجاج عن
أماكن طاهرة وأناس طيبين يخدمون الحجاج..يسخرون الغالي
والنفيس لخدمة ضيوف الرحمن..روايات عن ذلك البلد الأمين
الذي تبقى محلاته بكل خيراتها مفتوحة دون حارس أثناء الصلاة
ولا أحد يسطو عليها..

جزائرية ومسلمة..

طفلة صغيرة تلبس إحرام أبيها وتطوف حول بئر البستان تكررُ ما
تدربت عليه في الروضة من طواف وسعي..

تجعل من ينبوع الحديقة بئر زمزم ، ومن شجرة التوت مقام سيدنا إبراهيم ، ومن حبات البرقوق الغير مكتملة النضج حصى ترجم بها الشيطان خلف الشبّك الذي يفصل بستان الجيران..

تصغي إلى مديح "رابح درياسة" :

(الله الله الله احنا حجاج مشورين لمقام رسول الله).

تصغي بدقة..تحفظ الأغنية التي يردد فيها مناسك الحج والأماكن..

السعودية..أرض الحرمين..هي كل هذا ، وأنا كل هذا..

هي الأرض التي تسكنني..هي الموطن الذي اتسع لي من حدود

الجزائر -عبر الحرمين - إلى أرض (السروات) وأدوية

(التهائم)..

هي رابطة القرابة ، وصلة الرحم التي امتدت فسحتها إلى أم ترقد

في المشرق ، وأم ترقد في المغرب .

أنا (كَنزَة) سيدةٌ وزوجة وأختٌ وأمٌّ معززةٌ مكرمة..مواطنة من

وإلى موطن ممتدّ من هنا إلى هناك..

هل اغتربت ؟

هل هاجرت من شماریخ "الأوراسِ والطّاسيلي والأهقار" في

أرض " التّوارق" ..إلى اليابان؟! ..

أنا هنا راسخةٌ في هذه الأرض.. أرضٌ زفّها إليّ صوتٌ والدي منذُ

الطفولة الأولى..

دموعٌ وحنينٌ ووفاء لمقولة الملك (سعود) الشهيرة :

" عليكم الدم وعلينا المال" .. هكذا كانت جلسة والدي ..

تضعُ (كَنْزَة) قلمها الذي يتعثّرُ على صفحتها من دفقِ الدّم المنسكبِ من عينيها ..

صوتُ والدها الرّجراج يسترسلُ من صورته التي تخترقُ سكون الجدارِ الصامت .. صوتُهُ الرّجراج يتمازجُ مع صوت الملك (سعود) في مقولته ، فتتجلّى على الدمع والصفحات كلّ معاني الاستقلال ..
تُلهِمُ قلمها من جديد ، ليسكبَ شهادتها :

لم يكن والدي "المسبّل في صفوف جيش التحرير الوطني إبان الثورة) مهماً لدور كل من دعم ثورته الجزائرية ..

جلسة إجبارية تعسّفية يفرضها علينا أطفالاً على برنامج "صوت الثورة الفلسطينية" ، تتلوها "جلسة (حتى لا ننسى) يركز فيها على دعم (السعودية) للثورة الجزائرية قادة وملوكاً وأمراء وشعباً عرفتهم في صور أرشيف برّوزها وعلّقها بعناية في مكتبته الصغيرة ..

الملك سعود ..

الملك فيصل ..

الملك/ سلمان أمير الرياض آنذاك ..

وجوه ألفت رؤيتها طفلة .. قصاصات جرائد تحمل خبر تهديد السعودية لفرنسا بالمقاطعة تضامناً مع جزائر الحرية ..

صور وأخبار عن الملك سعود رافعا يده في الأمم المتحدة ، أول من فرض على المجتمع الدولي تدويل القضية الجزائرية ..

صوت السعودية الصارخ يتهم الولايات المتحدة في دورة ١٩٦٠
بتواطئها مع فرنسا ضد الجزائر..

شعار: (تحيا الجزائر) والعلم الجزائري الذي رُفِع في حج
١٩٥٧..

كل هذا التاريخ كان في مكتبة أبي الصغيرة محفوظا ومدونا
وموثقا في جرائد ومنشورات..

طوبع وإيصالات تبرعات للثورة الجزائرية ، كلها كانت تحف
طفولتي بمنارة هي أرض الحرمين..

توفِّي والدي..

ضرب زلزال ١٩٨٠..

سقطت مكتبة والدي ومعها الصور والوثائق تحت الأنقاض، ولم
تسقط الذكرى من ذاكرتي ، ولم يسقط الوفاء من قلبي لأرض
الحرمين شعبا وقادة..

من تحت الرِّدم زحفتُ ولملمتُ كلَّ هذا التاريخ..

(كَنْزَة) تحدّثُ نفسها.. تصرُّ بصوتٍ مرتفع :

لستُ مغتربة !!

تواصل كتابتها.. تشهدُ للتاريخ للأمانة:

لستُ مغتربةً في السعودية..

السعودية هي الأم التي تمتدُّ يمينها للجميع..

السعودية هي كل الأساتذة الوافدين من المشرق الذين علمونا ،
والتي كانت تدفع لهم رواتب إيفادهم ونفقاتهم في الجزائر لدعم
الحركة التعليمية بعد الاستقلال.

السعودية هي ذلك الشاب الأسمر القادم من أعماق (التهائم) عبر
قمم جبال عسير ، يدفعه الشوق إلى (أرض المليون ونصف
المليون شهيد)..

حلم وشوق يملآن قلب الطفل في إصرار والده الفلاح راعي الغنم
ورحلته الشاقة عبر جبال وعرة من قريته النائية ، ليستلّف (ريال
الجزائر) من التجار ويسهم به ابنه التلميذ في دعم الثورة
الجزائرية ، وتجنّد والدته في جمع تبرّعات القرويات للثورة
الجزائرية..

طيف المرأة الجزائرية صورة راسخة في ذاكرة الفتى الألمعي :
صورة الفلاحة الجزائرية تحمل البندقية والتي طبعت على غلاف
كتاب القراءة وهو في مرحلته الابتدائية..

رواية وأصداء أخبار بعض قومه المظليين الذين تطوعوا في
صفوف جيش جبهة التحرير الجزائري في (المنطقة الأولى في
وهران)..

إصراره في أن يكون حتى ولو مع آخر بعثة إيفاد إلى الجزائر
ويتوّج كل هذا التاريخ..

هذه هي السعودية..

أرض الحرمين التي عشتها في جلسة والدي: (حتى لا ننسى)..

أَرْضٌ وَرَحِمٌ وَأَهْلٌ أَحْيَا عَلَيْهَا مَتَجَدِّرَةً فِيهَا :

أَنَا لَسْتُ مَغْتَرِبَةً.. لَسْتُ مَهَاجِرَةً..

تَنْهِي (كَنْزَةَ) بَوَحَهَا.. تَوْقَعُ كُلَّ صَفْحَاتِهَا بِدَمْعِي حُبًّا وَوَفَاءً..